شعاع من السيرة النبوية

في

العهد المكى

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤/١/٤٨٣)

٢٣٩,١٣
كردي، راجح عبد الحميد
شعاع من السيرة النبوية في العهد المدني/ راجح عبد الحميد كردي._ عمان: دار المأمون، ٢٠١٤ .
(٤٥٤) ص.
ر.أ: (٤٨٣/ ١/ ٢٠١٤).
الواصفات: /السيرة النبوية/ /العصر المدني لحياة النبي/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٧٧-٣٠٢-١ (ردمك)

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

شعاع من السيرة النبوية

في

العهد المكي

تأليف

الدكتور راجح عبد الحميد كردي

أستاذ العقيدة والدعوة والفلسفة

كلية الشريعة/الجامعة الأردنية

مُخَرَّجة ١٤٣٠هـ -

2014م

المحتويات

الفصل الثالث

المرحلة السرية

الفصل الرابع

المرحلة الجهرية الأولى-دعوته لأهل مكة من دعوته لعشيرته الأقربين إلى عام الحزن

الفصل الخامس

المرحلة الجهرية الثانية

من عام الحزن إلى هجرة

الرسول ﷺ

الفصل السادس

الهجرة العامة-مقدماتها وهجرة بعض أصحاب رسول الله ﷺ

الفصل السابع

وقفات مع العهد المكي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد،

فقد مضى على الطبعة الأولى لهذا الكتاب ما يقارب ربع قرن من الزمان، ونفدت منه عشرات الألوف من النسخ، وما كنت أتوقع له هذا الرواج، ولكني لا أستغرب ذلك لأن حب رسول الله ﷺ يدفع القراء لمطالعة سيرته، وهذا هو السبب الأول، أما السبب الثاني فهو أن هذا الكتاب كتب منذ أول معاناة عرضه منطلقاً من حب المؤلف - بحمد الله- لرسولنا ﷺ، ولقد بدأت صلتي بالسيرة النبوية على المستوى العلمي والتأثر العاطفي الإيماني بهذه السيرة من أول سنة طلبت فيها العلم الشرعي سنة ١٩٦٦م، حيث كان أول اطلاعي على السيرة من كتاب فقه السيرة للمرحوم الشيخ محمد الغزالي، وبصدق لم أجد كتابة أذكت عاطفة الحب للسيرة وصاحبها عليه الصلاة والسلام مثل كتابة الغزالي في فقه السيرة. ولقد عايشت بعد ذلك السيرة دراسة وتدريساً إذاعياً ومسجدياً وجامعياً ما يزيد على أربعين عاماً، مما جعل ذكره ﷺ في حياتي دائماً، وجعل الإحساس بالعيش في ظلال سيرته في كل مرافق الحياة وفي كل أيامها، حتى شعرت بضرورة تقريب سيرته من علم يُدرس إلى بعث إحساس به، وشعور بحبه وعمل يقتدى فيه به في كل لحظة من لحظات الحياة، فالإسلام إيماناً وعبادة وخلقاً وسلوكاً هو حياة رسول الله؛ إذ هو الذي عرّفنا بالله وعليه أنزل القرآن الكريم، وأوحى الله له بالسنة، ورعاه الله على عينه في كل نبْضة من نبضات دمه، وكل حركة من حركاته، فهو الأعرف بربه، والأكثر بل الأكمل إيماناً به وعبادة له، كما قال عليه الصلاة

والسلام:".. أما إني والله لأخشاكم لله وأتقاكم له..".

ومن هنا اتجهت النية وانعقد العزم على الكتابة في سيرته لمحاولة العيش في ظلال سيرته، وليس من أجل زيادة عدد الكتب في السيرة فهي كثيرة جداً. ولذلك أعلنت عن منهجي الإشعاعي في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وهو منهج يقوم على ضرورة الجمع بين القرآن الكريم والسنة الشريفة والسيرة العطرة لصياغة حياة الرسول ﷺ، على غير الطريقة المعهودة، وكان الجزء الأول من هذه التجربة "شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي". ولم تمكني ظروف العمل وانشغالات الدعوة والعمل العام من استكمال المشروع . أما وقد زادتني التجربة نضجاً وانحسرت دائرة الانشغال بالعمل العام فها أنذا أعيد طباعة الكتاب طبعة مزيدة ومنقحة ومصححة، على أمل أن أكمل المشروع في كتب قادمة؛ وفق تصور مختلف عن المألوف في التأليف في السيرة راجياً من الله عز وجل العون على ذلك، وأن يرزقني الإمكانات الكافية، والقدرات اللازمة والتوفيق والسداد إن كان في الأمر خير؛ فهو الأعلم بذلك والقادر عليه والمقدِّر لما يريد.

هذه الطبعة:

وأما هذه الطبعة فقد استدركت فيها بعض ما فاتني من بعض المباحث ، وقد أفدتها وربما اقتبست كثيراً من معلومات مباحثها مما أعجبني من بعض المراجع المتأخرة عن زمن التأليف لهذا الكتاب، ولا ضير.

كما كنت أشعر منذ أول قراءة لكتاب فقه السيرة للغزالي ضرورة أن تمحص روايات السيرة مما هي موضع التحليل والدراسة والاستنتاج، حتى نقول بصدق أن هذا الذي نقوله ونحلله وندرسه قد حصل. وهذا أمر يحتاج إلى العناية بالدراسة الحديثية الموثقة لروايات السيرة. وقد أعجبت بقبول الغزالي لتخريج المرحوم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني لكثير من روايات كتابه في السيرة رغم اتفاقه معه

في كثير ومخالفته له في منهجه في الاستدلال في بعض الروايات. ولّما ألّفتُ كتابي الشعاع في طبعته الأولى حرَصت على صحة الروايات وعلى المقبول منها من روايات حسنة، وعلى ما صرح ابن إسحق بسماعه؛ لأنه إذا صرح بالسماع قُبلت روايته وصحت، وإذا عنعن دلّس، ومع هذا كله كنت أشعر بضرورة إخراج سيرة لرسولنا بروايات صحيحة ومقبولة ليبنى عليها التحليل والدراسة والاستنتاج. وكثيراً ما كنت أطلب من أخي وتلميذي المرحوم الشيخ إبراهيم العلي أن ينظر في كتابي الشعاع لاستدراك ما يجب استدراكه من تخريج رواياته بحثاً عن الصحة، ولكنه رحمه الله أسدى لي ولغيري من قراء السيرة معروفاً كبيراً،- جعله الله في سجل حسناته- فأخرج كتابه صحيح السيرة النبوية ، كتاباً منسقاً بحسب أحداث السيرة النبوية ، جمع فيه رواياتها وخرجها من مظانّها مبيناً آراء العلماء في مدى صحتها وقبولها، فكان كتاباً رائداً في هذا الباب.

كما حقق هذا الحلم أيضاً كذلك عالم من جهابذة علماء الحديث في زماننا وهو الشيخ الأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري حفظه الله ورعاه، حيث صنف كتاباً في السيرة التحليلية قائماً على صحة ما ثبت عنه ﷺ من سيرته، سماه" السيرة النبوية الصحيحة" في مجلدين. وإنني لأعترف أنني مدين لهذين الأخوين فيما قدّما من منهجية ضرورية في بناء السيرة على روايات مدروسة بعناية منهج المحدثين في النقد للروايات وأسانيدها ومتونها؛ من أجل بناء السيرة على حقائق، وليس على خرافات وموضوعات من الروايات، مما يزيد وعي الأمة برسولها.

ولقد أفدت من هذين الكتابين صحيح السيرة النبوية، والسيرة النبوية الصحيحة من حيث الإفادة من تخريج روايات كتابي الشعاع، وموثقاً ذلك في كتابي معترفاً بالفضل لأهل الفضل، حسب أصول البحث العلمي، داعياً الله عز وجل أن يجزي الأخوين الكريمين الدكتور أكرم ضياء العمري والمرحوم الشيخ إبراهيم العلي خير الجزاء عني وعن الأمة المسلمة.

كما حرصت في هذه الطبعة طباعة الآيات الكريمة من المصحف برسمه تجنباً لوقوع أخطاء طباعية كانت في الطبعة السابقة.

وقد أدخلت بعض العناوين والزيادات التي رأيتها تكمل بهاء هذا الكتاب، مما جعله ضعف حجمه السابق.

وأنوه أن الله تعالى قد أكرمني بحب رسوله وبركات هذا الحب بأن جعل الله لهذا الكتاب قبولاً عبر ربع قرن وعشرات الألوف من النسخ التي نفدت من سنة كاملة، ومما جعل كثيراً من إخواني وأحبابي وبعض دور النشر الاقتراح علي بإعادة طباعته، سيما وأن هذا الكتاب طلبت منه نسخ كثيرة وزعت رداً على الحملة الصليبية المسمومة في أزمة الإساءة للإسلام عبر الإساءة بالصور والرسوم للرسول ﷺ، فكان الرد أن يقرأ المسلمون سيرة الحبيب ليعززوا حبّه في قلوبهم؛ إذ هو الرد العملي على أصحاب الشبهات والحاقدين على الإسلام، كما وهو الرد العملي والعلمي والثابت والأطول والأعمق من الانفعالات الجماهيرية المؤقتة. وهذا ما دعاني للعناية بهذا الكتاب تنقيحاً وزيادة وتمحيصاً لرواياته وإضافات لبعض مباحثه، موقناً أن الفترة المكية في حياته ﷺ وأحداثها تتجاوب مع أوضاع الأمة من اضطهاد لها ولنبيها ولعلمائها، وهجمة شرسة على دينها وعلى رسولها ﷺ، في ظروف استقواء الطغيان العالمي على ظروف الضعف العالمي للعرب والمسلمين.

وقد أخذ مني العمل على إعادة طباعته والنظر في زيادته والحرص على صحة مروياته وتوثيقها ما أمكن عاماً كاملاً، أجدني الآن مرتاحاً ولله الحمد بإخراج هذا الكتاب بما أشعر به بالرضا عنه، داعياً الله سبحانه وتعالى أن يعينني على استكمال بقية أجزاء المشروع تحت عنوان رسولنا في حياتنا، لنتناول حياته وسيرته جميعها في أجزاء قادمة وفق منهج الشعاع إن شاء الله تعالى.

وكان من بركة الحب لرسوله ﷺ أن فاز هذا الكتاب بطبعته السابقة بجائزة المرحوم الرئيس الباكستاني ضياء الحق لأحسن كتاب في السيرة النبوية عام ١٩٨٦م.

والله من وراء القصد،،،

وصلِّ اللهم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم

وكتبه
د.راجح عبد الحميد كردي
أستاذ العقيدة والدعوة والفلسفة
كلية الشريعة – الجامعة الأردنية
٥رمضان ١٤٣٠ هـ
٢٦/ ٨/ ٢٠٠٩م



حکومتِ پاکستان

وزارتِ مذہبی امُور

اسلام آباد

نمبری: ۲(۲)/ د دس/ آر اینڈ آر/۸۷   تاریخ: ۱۰ر جولائی ۱۹۸۸ء

سندِ امتیاز

نہایت مسرت سے تصدیق کی جاتی ہے کہ جناب دکتور راجح عبدالحمید الکردی کی تالیف کردہ کتاب شعاع من السیرۃ النبویۃ فی العہد المکی بزبان عربی کتُب سیرت النبیؐ کے مقابلہ برائے سال ۱۹۸۷ء میں خصوصی انعام کی مستحق قرار پائی اور مولف موصُوف کو حکومتِ پاکستان کی طرف سے مبلغ -/۲۰۰۰ ڈالر / روپے بطورِ انعام دیتے گئے۔

سیکرٹری

وزارتِ مذہبی امُور، حکومتِ پاکستان

اسلام آباد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونصلي ونسلِّم على محمد، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه، وجاهد جهاده وبعد:

فإن كلَّ مظهر من مظاهر الإصلاح في تاريخ البشرية ، وكلَّ نور أشعَّ على فضيلة من الفضائل، إنما هو بفضل الله تعالى، فيما أنزله على رسله وأنبيائه، وبما قام به هؤلاء الأنبياء والرسل من السلوك الطيب، الداعي إلى الله، في سيرة حسنة، وطريقة سديدة.

ولقد عبثت يد الأيام بكل مخلفات دعاة الإصلاح البشري المقطوع عن أصل الرسالات السماوية، وبتعبير أدق الإلهية، كما عبثت أهواء البشر بالديانات السماوية قبل الإسلام، فختم الله تعالى أمر النبوات والرسالات برسالة الإسلام، وأرسل بها محمداً عليه الصلاة والسلام نبياً خاتماً ورسولاً رحمة للعالمين. وجعل سيرته ﷺ مؤدية الغرض الإيماني والعبادي العملي، من دعوة الناس في الأرض كلها إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى قيام الساعة. وضمن الله سبحانه لسيرة محمد ﷺ من الخصائص والميزات ما لم يضمنه لسير أنبيائه ورسله من قبل، بسبب اختلاف طبيعة دعوته العامة الخالدة الخاتمة، عن رسالاتهم الخاصة في الزمان والمكان والمدعوّين.

ومن ثم لم يُتَح البقاء والدوام إلا لسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ إذ امتازت سيرته بالعموم، والخلود، والواقعية في أحداثها، والشمول والتكامل في فقراتها؛ بحيث جمعت كل ما يكون في حياة الإنسان، وبما يجعلها صالحة للاقتداء، بحيث ترسم للمسلم منهج الحياة بحذافيرها.

وقد وجهنا الله سبحانه لأن تكون عبادته من خلال السيرة العبادية العملية لحياة رسوله ﷺ، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١)، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب٢١)، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الحشر: ٧).

ولقد قدّر أصحاب رسول الله ﷺ سيرة رسولهم، فنقلوها إلى من بعدهم، وجاء التابعون فتلقَّوها ونقلوها إلى تابعيهم..، وهكذا أصبحت تنقل سيرته عليه الصلاة والسلام، وتُروى على أنها أحداث الدين، بكل ما فيها من أقوال، وأعمال، وهدي وسلوك، وجهاد وقتال، حتى كان الفصل لأقواله وأفعاله وتقريراته في كتب الحديث عن سيرته الشخصية وغزواته، حينما بدأ تدوين كتب السنة، وبقيت بعد ذلك روايات السيرة بمفهومها العلمي الذي عرف بالسيرة النبوية أو المغازي والسير.

ولا بد أن نعيد إلى الأذهان أن السيرة بمفهومها العام قبل التقسيمات العلمية لها- سنة وسيرة- أو مغازي وسير- تشمل كتب السنة وكتب السير. ولهذا تتسم بالكمال والتكامل والشمول والحيوية.

وكان الداعي إلى مثل هذا الفصل هو حاجة المسلمين لروايات الحديث في نطاق الأحكام والاستدلال الفقهي حين طلب من ابن شهاب الزهري، ثم من الإمام مالك تدوين ما يحفظان من الحديث النبوي الشريف، ثم فتح الباب لتدوين السنة النبوية في كتب السنة من موطآت وصحاح وسنن ومسانيد ومعاجم وأحاديث أحكام، وعدّوا ما بقي بعد ذلك-مما سمي بالسيرة- أموراً شخصية أو عامة، أو غزوات يرجع إليها المسلم بصدد إنماء العلاقة بين المسلمين وبين رسولهم ﷺ؛ لمعرفة شخصيته، وإذكاء حُبّه في نفوس المسلمين، وتربية أجيالهم على الاقتداء به في بناء شخصيات الأمة على الجهاد الذي يحيي الأمة المسلمة، ويصنع شبابها على الرجولة وحماية الأمة والدين والأوطان، ونشر كلمة لا اله إلا الله في الأرض. وأبرزوا فيها ما سبق ولادته عليه الصلاة والسلام من الأحداث، وما تلاها، ثم بعثته إلى الناس، ودعوته لقومه وصبره على أذاهم، ثم هجرته وما تلاها من تركيز

على غزواته وجهاده..إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

ولقد كانت طريقتهم في هذا سردية تاريخية. ولا تعني كلمة السردية أو التاريخية أنها منهج تاريخي لا يقترب من التحليل؛ ذلك أن سرد حادثة دون أخرى أو التركيز في السرد على أمور معينة دون أمور أخرى تجد فيه رائحة المنهج التحليلي. وعلى سبيل المثال؛ إذا دخلت العهد المدني، لا تكاد تجد في السيرة إلا الغزوات، غزوة تلو أخرى، مع أن الحياة المدنية، حياة التشريع، واكتمال النضج للأمة والمنهج، والتربية للأمة في ظل دولة ذات دستور وفلسفة واضحة، وأجهزة للحكم والتوجيه والإعلام، والسياسة والاقتصاد والاجتماع، فما معنى التركيز إذن على الغزوات ينقلها الجيل بعد الجيل في ظل دولة مسلمة؟ إنه وضوح فلسفة الجهاد، ومنهجٍ بعث روح الجهاد، ذروة سنام الدعوة في نفوس الأجيال، ومن ثم كان السلف يُحفِّظون أولادهم المغازي والسير كما يحفظونهم السورة من القرآن الكريم. وهذا منهج تحليلي دون أن يعلن عن نفسه.

وإذا أقبلنا على عصرنا وجدنا روح المنهج التحليلي قد أصبحت ضرورة في زمننا، حيث اتجه هذا المنهج ليحلل سيرة المصطفى ﷺ، بأخذ أحداث منها، وشرحها وتحليلها وفق معطيات العصر وحاجاته، بطريقة غير سردية تاريخية، وهذا ما فعله كثير من كتاب السيرة في زماننا هذا.

ولقد عايشتُ هذه السيرة العطرة دراسة وتدريساً منذ أكثر من خمسة عشر عاماً[1]، مما دفعني لأن أبحث عن روح المنهج، الذي يمكن أن نتعامل فيه مع هذه السيرة العطرة.

والباحث الذي يعيش أوضاع أمته ويرى أن حياة الرسول ﷺ بهذا الدين مصدر التوجيه، والشفاء لها، مضطر لأن ينظر في جدوى طرق تناول هذه السيرة، ووجدت أن الذي يعرض للكتابة في السيرة بحاجة إلى أن يعي مجموعة من الحقائق ويضعها نصب عينيه وهو يعايش الأحداث بقراءتها ليخرج بشعاع الأمل فيما يصلح واقعنا ويسهم في تشكيل شخصية الأمة المسلمة، ويرسم هويتها ويحدد مسارها، ليعيدها إلى ما أخرجها ربها إليه من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف

---

(1) هذه المدة عند تأليف هذا الكتاب، وأما الآن فقد مضى ما يقارب الأربعين عاماً ولله الحمد والمنة والفضل.

والنهي عن المنكر، لتكون خير أمة أخرجت للناس، ولتكون الشاهدة عليهم وهـذه الحقائق هي:

١- العودة إلى السيرة بمفهومها العام الشامل قبل منهج الفصل بين السنة والسيرة؛ وذلك لتعود له نظرته الشمولية في التحليل، ولتنبض كتب السـنة بالحيـاة مـن خلال وعاء الأقوال والأحداث في كتب السيرة.

٢- أن يضيف جهداً في التحليل واضعاً نصب عينيه أن المقصـود لـيس تفريـغ مـا كتب المحللون والمؤلفون في كتاب جديـد، بمقـدار مـا هـو محاولـة الإضـافة أو التوجيه في التحليل والتزام أسسه.

٣- الإحساس بحاجة العصر الماسة إلى السيرة، مـن خـلال الإحسـاس بالأوضـاع التي يعيشها المسلمون، في ظل غياب الأمة المسلمة التي تحمل دعوة الله للنـاس أجمعين، وما السيرة النبوية إلا هذه الصورة الناضجة النابضـة لـدعوة الله مـن خلال رسول الله قائد الأمة ، تحمل منهج الله ودعوتـه؛ والأمـة مكلفـة بعـده بحمل هذه الرسالة، فهي الشهيدة على الخلق والرسول شهيد عليها.

وفي محاولة للكتابة في السيرة بمنهج تحليلي، أحببت أن أخوض هذه التجربة الـتي أسـأل الله تعالى أن ينفعني بها وينفع المسلمين بها، والتي أقل ما تجنيه أنها تمكـنني مـن أن أعـيش في رحاب سيرة الرسول ﷺ ساعات تعد زاداً لإيماني، وتزويـداً عاطفيـاً لهـذا الإيمـان، ومحاولـة جادة لتعميق حبه عليه الصلاة والسلام في قلبي وقلب كـل مـؤمن، وللتأسـي بـه والاقتـداء بهديه في كل صغيرة وكبيرة في حياتنا.

ولتحقيق هذه التجربة أبدأ بهذا الكتاب المتواضـع، الـذي نهجـت فيـه طريقـة الشعاع، وليست طريقة التأليف المدرسـي ولا طريقـة التـأليف التـاريخي، فتجـدني أجمع فيه بـين الحـدث والتحليـل، والفكـرة والحـدث، في توزيـع منـتظم، لا يفقـد الأحداث التاريخية تسلسلها، ولا يجعل التحليل متعسفاً بعيداً عن الحقـائق، محـاولاً -ما أمكن- الاستهداء بالنصوص في السنة والسيرة، وما يمكن أن تقدم من تحليـل، وما تشع من نور، دون تكليفها بما لا تطيق، أو تحميلها مـا لا تتحمـل، نبتعـد عـن الإسقاطات النفسية في التحليل، التي تلوي الأحداث والنصـوص لصـالح الفكـرة بإسقاط الأحداث المعاصرة على النصوص السابقة في محاولة اسـتجداء بـل اعتـداء على النصوص، فهذا الإسقاط بالنسـبة لنصـوص السـنة وأحـداث السـيرة معيـب كثيراً، لأننا ينبغي أن نستهدي بالسيرة، إذ هي الإشعاع والأمـل، وأن لا نسـيء إلى

النصوص والأحداث بليّ أعناقها من خلال تثبيت الإسقاطات النفسية لنا ولواقعنا الهزيل وتحليلنا الجاهلي المريض، على تلك النصوص والأحداث التي تبني واقعاً معافىً للأمة، وتشع نوراً لحياتها.

وقد أحببت أن أسمي هذه المحاولة كما راق لبعض إخواني وأصدقائي وطلبتي أن يسموها ويصنفوها بعد سماعها مني (شعاعاً من السيرة) أو(المنهج التحليلي الشعاعي).

وقد جعلت المشروع يحمل عنوان (رسولنا في حياتنا) وليكون هذا الجزء الأول الذي تم منه وهو(شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي) على أمل أن تتبعه تتمة المحاولة لإكمال المشروع بإذن الله تعالى.

وقد وقع هذا الجزء في سبعة فصول على النحو الآتي:

الفصل الأول: مدخل إلى السيرة النبوية. وقد اشتمل على ثمانية مباحث ضرورية لدراسة السيرة، من معنى السيرة والاهتمام بها وأهميتها ومزاياها ومصادرها، وحكمة اختيار محمد ﷺ نبياً ورسولاً.

الفصل الثاني: السيرة الشخصية للرسول ﷺ، من ولادته إلى بعثته، وقد اشتمل على سبعة مباحث: مولده ونشأته ونسبه ورضاعته وحادثة شق صدره، ودلائل نبوته، ويتمه، ومشاركاته في الحياة ولقائه بحيرى، وصدقه وزواجه من خديجة رضي الله عنها ، وأوصافه الخَلقية.

الفصل الثالث: السيرة النبوية في المرحلة السرية، وقد اشتمل على أربعة مباحث وهي نزول الوحي وفتور الوحي، وأول أسرة في الإسلام، والدعوة الفردية التي تضم أوائل من أسلم من أهل مكة، وإسلام كل من أبي بكر وعثمان وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود وأوائل من أسلمن من النساء.

الفصل الرابع: المرحلة الجهرية الأولى: وهي الممتدة من دعوته ﷺ لعشيرته الأقربين إلى عام الحزن. وقد اشتمل هذا الفصل على ثلاثة عشر مبحثاً.

الفصل الخامس: المرحلة الجهرية الثانية، وهي تعالج دعوة النبي ﷺ وسيرته من عام الحزن إلى الهجرة العامة إلى المدينة، وقد اشتمل هذا الفصل على ستة مباحث؛ دعوة الإسلام تتحرك خارج مكة وإسلام الطفيل الدوسي، وعام الحزن، والمؤمنون من غير

أهل مكة، ودعوته ﷺ لأهل الطائف، والإسراء والمعراج.

الفصل السادس: الهجرة العامة :مقدماتها وهجرة بعض أصحاب رسول الله ﷺ، ويشتمل على ستة مباحث؛ دخول الإسلام المدينة، وبيعتا العقبة الأولى والثانية، وفاتح المدينة مصعب بن عمير، وأمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة، وهجرة أبي سلمة، وهجرة عمر وعياش.

أما هجرة الرسول ﷺ، فقد أجلنا الحديث فيها إلى ﷺ العهد المدني.

الفصل السابع: هو الفصل الختامي لهذا الكتاب، وهو بعنوان وقفات مع العهد المكي ويشتمل على مبحثين؛ القرآن والعهد المكي، وطبيعة الجهاد في **العهد المكي.**

د.راجح عبد الحميد كردي

صويلح

١٦ شعبان ١٤٠٥هـ

٦ أيار١٩٨٥م



مدخل إلى السيرة النبوية



المبحث الأول
معنى السيرة النبوية وعناية المسلمين بها

معنى السيرة النبوية:

السيرة في اللغة: السنة والطريقة والهيئة[٢] . وفي الاصطلاح العام تعني ترجمة حياة شخص ما أو تاريخ حياته.وإذا أطلق لفظ السيرة إنما يراد بها ترجمة حياة النبي ﷺ، بحيث أصبحت عَلَماً على علم قائم بذاته هو علم السيرة النبوية. وقد كان يطلق عليه المؤرخون المسلمون في فترة أسبق"علم المغازي والسير". ويبين ذلك ما ورد في مقدمة كتاب السيرة النبوية لابن هشام فيقول: " لفظتا المغازي والسير إذا أطلقتا فالمراد بهما عند مؤرخي المسلمين تلك الصفحة الأولى من تاريخ الأمة العربية صفحة الجهاد في إقامة صرح الإسلام، وجمع كلمة العرب تحت لواء الرسول ﷺ، وما يضاف إلى ذلك من نشاط النبي ﷺ، وذكر آبائه وما سبق حياته من أحداث لها صلة بشأنه، وحياة أصحابه الذين أبلْوا معه في إقامة الدين"[٣]

عناية المسلمين بالسيرة النبوية:

والحديث عن الغاية من دراسة سيرة النبي ﷺ، لا بد أن يرتبط ارتباطاً تاماً بأهمية هذه السيرة، والمنهج الذي ينطلق منه الدارس لسيرته ﷺ، ويبحث فيها. لأننا وجدنا أنه منذ أن كانت سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام كانت عناية بهذه السيرة، بل لم تنقطع هذه العناية إلى عصرنا هذا، سواء أكان ذلك في مجال البحث والتأليف أم في إحياء ذكريات وقائع هذه السيرة في مواسم معينة للمسلمين، وسواء أكان التأليف من مؤمن بهذا الدين؛ نهج نهجاً تاريخياً في تأليفه، أو نهجاً تحليلياً بأسلوب أدبي أو علمي أو فني، أم كان التأليف صادراً عن غير مسلم.

---

(٢) انظر ابن منظور:لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، المؤسسة العامة للنشر القاهرة، ج٦ص٥٦. والفيروز آبادي: القاموس المحيط، ط٢، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٧١هـ =١٩٥٢م–ج٢ص٥٦.

(٣) ابن هشام:السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، المقدمة.

المبحث الثاني
المستشرقون ودراسات السيرة النبوية

ومـن هنـا كانـت دراسـات استشـــراقية وتبشـيرية تخـدم أهـداف التبشـير والاستشراق، وأصبحت عوناً للاستعمار، وأخذت هذه الجهود تنقب عـن وقـائع السيرة وكتبها في محاولاتهم لإحياء التراث الإسـلامي. ولكننـا لا بـد أن نـدرك أن هذه المدارس للسيرة اتخذت في الغالب طابع العداء، والدس، وعمل الموازنات التي لا تصل بالدارس إلا إلى مزيد من الغموض والتشـكيك وبـث الشـبهات في حيـاة الرسول ﷺ، وفي تاريخ جيل مشرق تربى على يديه. والأدلة على ذلك كثيرة؛ لأنـه لا بد أن نتهم تلك المدارس الاستشراقية التي ادعت العلمية والموضـوعية في إحيـاء تراثنا وتحقيقه، لا بد أن نتهمها وألا نعتمدها في دراساتنا ولا في الدراسات المنصـفة عموماً لأكثر من سبب:

أولاً: لماذا اتجهت هذه الجهود إلى علوم معينة في تراثنا العلمـي الإسـلامي، ولم تتجه لإبراز كثير من المخطوطات والمؤلفات الإسلامية في علوم أخرى؟ نجـد مـثلاً الاهتمام الكبير في إحياء علم الكلام والعقائد وكتب المتكلمين والفلاسفة، وما دار من جدال ومحاورات كلامية ليس إلا لإبراز هذا الجو القاتم مـن علـم تـأثر بأقيسـة المناطقة وأسلوب الفلاسفة الذي لم يُسلم عن طريق هذا العلم علـى هـذه الصـورة شخص واحد في تاريخ علم الكلام. كما نجدهم تناولوا التاريخ الإسـلامي لإبـراز صورة الصراع والتنافس والحروب فيما بين المسلمين على السلطة في فترات يكـون فيها الصـراع مزعوماً، وفي أخرى من فترات ضعف المسـلمين، بينمـا لا نجـد مثـل هذا الاهتمام أو قريباً منه في مجال علم التفسير والحـديث وغيرهمـا ممـا لـه علاقـة وثيقة بفائدة المسلمين، وما يمكن أن يدفع هممهـم للعمـل، أو مـا يـرتبط وجـدانياً بتفكيرهم والبحث في إقامة كيانهم. فاهتمامهم بالتاريخ الإسلامي والسيرة النبوية، لم يقف عند حدود اهتمامهم بالتاريخ، وعند إرواء ظمئهم العلمي بالتحقيق وإبراز المخطوطات فحسب، بـل تعـداه إلى الوضـع والتلفيـق في الروايـة، وتـأليف كتـب

لتحليل هذا التاريخ، حتى بلغ ما صنف من كتب السيرة النبوية وحدها، بمختلف اللغات الأوروبية حتى مطلع هذا القرن الهجري ما يقارب ألفاً وثلاثمائة كتاب.

ولعل أشد هؤلاء الكتاب تحاملاً هو "مرجليوث" الذي كان أستاذاً للغة العربية في جامعة أكسفورد، حيث أصدر كتابه سنة ١٩٠٥م "محمد" وجعله حلقة في سلسلة عظماء الأمم. وهو لم يكتب كتابه هذا ليثني فيه على الرسول ﷺ، بل لعله لم يؤلف كاتب بالإنجليزية كتاباً أشد تحاملاً على النبي ﷺ مما جاء في هذا الكتاب. وقد حاول مرجليوث أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة الشريفة، وأن يشكك في أسانيدها، ولم يأل جهداً في نقض ما أبرمه التاريخ ومعارضة ما حققه المحققون من المنصفين، لكنه مع هذا لم يتمالك من الاعتراف في مقدمة كتابه بأن الذين كتبوا في سيرة محمد ﷺ لا ينتهي ذكر أسمائهم، وأنهم يرون أنه من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوئه مكانة بين الذين كتبوا في السيرة المحمدية."[٤]

ثانياً: إن بعض هؤلاء ممن يمكن أن يظنهم بعض الدارسين بأنهم منصفون في تحليلهم لبعض الوقائع في سيرة الرسول ﷺ، واعترافهم ببعض الحقائق، لا يعدو هذا التحليل والاعتراف أن يكون نقطة في بحر من اللجاج والتمويه والتشكيك؛ لأنهم لو صدقوا في بحثهم العلمي وموضوعيتهم لصدقوا في النظر إلى سائر الوقائع، ولأوصلهم ذلك الاعتراف والإنصاف لأن يكونوا منصفين مع أنفسهم في الإيمان بحقيقة هذا النبي الذي يدرسون سيرته، والالتزام بهذه الحقيقة، مع العلم أنه لا ينقصهم العلم بصحة ما توصلوا إليه من أدوات التحقيق وطرائق البحث، لتفاصيل حياته ﷺ وللتاريخ الإسلامي كله، بل لم يصل كبارهم إلى مرحلة دس السم في الدسم إلا بعد أن تعدى مرحلة التعرف على كافة جوانب هذه السيرة. لذا نجد "جون ديو بورث" يكتب كتاباً باللغة الإنجليزية سنة (١٨٧٠) عنوانه اعتذار من محمد والقرآن، والذي يقرأه يخيل إليه أنه كتبه بنزعة الإخلاص والإنصاف، ويقول

---

(٤) سليمان الندوي، الرسالة المحمدية، ط٢، مكتبة دار الفتح، دمشق١٩٦٢م، ص٩٧-٩٨.

في مقدمته: "لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين والمشرعين والذين سنّوا السنن من يعرف الناس حياته وأحواله بأكثر تفصيل وأشمل بيان مما يعرفون من سيرة محمد ﷺ وأحواله"[٥].

بينما نجد "ريورند باسورث سميث" عضو كلية التثليث في أكسفورد سنة(١٨٧٤)، يلقي محاضرات عن "محمد والمحمدية" في الجمعية الملكية لبريطانيا العظمى، طبعت فيما بعد كتاباً. وبعد أن فند الجهل في ديانات بوذا وكونفوشيوس وزاردشت، والغموض في حياة المسيح عليه السلام وأصحابه وحوارييه وفي تدرج رسالته الروحية في الظهور، وقلة ما يمكن العلم به عن موسى عليه السلام، من خلال سيرهم بين أيدي معتنقي دياناتهم يأتي للإسلام فيقول: "أما الإسلام فأمره واضح كله، ليس فيه سر مكتوم عند أحد، ولا غمة يَنْبَهم أمرها على التاريخ، ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح، وهم يعلمون من أمر محمد ﷺ كالذي يعلمونه من أمر لوثر وجلفن، وإنك لا تجد فيما كتبه المؤرخون الأولون، أساطير ولا أوهاماً ولا مستحيلات، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة، فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره. والأمر كله واضح وضوح النهار، كأنه الشمس رأد الضحى يتبين تحت أشعة نورها كل شيء"[٦].

ثالثاً: وأما السبب الثالث الذي لا يجعلنا نركن إلى مثل هذه الدراسات والتحليلات؛ فلأنها تصدر عمن يحملون عقيدة غير عقيدتنا، وتصوراً غير تصورنا؛ فنحن نملك تصوراً شاملاً كاملاً متزناً للحياة والكون والإنسان، وهم لا يتفقون معنا في مثل هذا التصور لتحليل تاريخنا ووقائع سيرة نبينا ﷺ؛ فلا يمكن للباحث والمحلل لسيرة نبينا ﷺ أن يكون صادقاً إلا إذا كان يؤمن بنبوة هذا النبي، ويعتنق عقيدته وتصوره. ولا نكون بهذا الرفض لتحليلات المستشرقين مخالفين للقاعدة

---

(٥) المرجع السابق ص٩٨.

(٦) سليمان الندوي الرسالة المحمدية ص ١٠٠

الإسلامية المشهورة المبينة: "الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها"؛ لأن الحكمة هي ما تتفق ولا تتناقض مع عقيدة المسلم وتصوره وتحليله وفهمه للأمور المنبثقة من هذه العقيدة وهذا التصور.

بهذا الموجز تظهر غاية الاستشراق والتبشير من البحث العلمي المغرض في دراسة التاريخ الإسلامي بصفة عامة، والسيرة النبوية بصفة خاصة.

المبحث الثالث
أهمية السيرة النبوية

والأهم من ذلك هو التعرف على واقع السيرة النبوية في أوضاع المسلمين اليوم، وعلى صعيد دراساتهم لنتعرف غايات دراسة السيرة التي تستند إلى أهمية هذه السيرة في الواقع المعاصر، وكيف ينبغي لهذه الغايات أن توجه إلى الغاية الأساسية التي لا بد من التوجه إليها على ضوء الأهمية الحقيقية لهذه السيرة واستناداً إلى ميزات هذه السيرة العطرة ورجوعاً إلى الواقع الإسلامي الصحيح الذي فهم هذه السيرة، وعاش أحداثها ثمرات لواقع مسلم حي ينمو ويتصاعد، يعتقد بيقين، ويعمل بإخلاص للخلاص بواقع المسلمين المنحدر الذي بات يعيش في عزلة وجدانية عن سيرة رسول الله ﷺ.

إن فهم سيرة رسول الله ﷺ في الحقيقة جزء لا يتجزأ من فهم الإسلام؛ لأنها هي الشاهد العملي الحي الناطق بثمرات الإيمان واليقين بهذا الدين متمثلة في قائد دعوة الله عز وجل رسول الله ﷺ نموذجاً عملياً ومثلاً أعلى، وفي حياة الرعيل الأول الذي تربى على يدي الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

إذن حينما ندرس السيرة النبوية ينبغي ألا تكون في نفوسنا هذه الصورة الشائهة التي وقعت في نفوس المسلمين اليوم، وتراكم عليها المفهوم الناقص والفهم المبتور، الذي تمثل في أن يحتفل ببعض وقائع هذه السيرة في مواسم خاصة في كل عام، المواسم مكرورة والكلام مكرور، والعظات مكرورة، والخطباء مكرورون، وواقع الأمة الذي لا يصعد إلا لانحدار مكرور، ثم يثبت بالتالي اليأس في نفوس الناشئة بعد أن تراكم في نفوس الآباء والأجداد أن هذا هو الدين وهذه سيرة الرسول ﷺ. وانطلاقاً من هذا الفهم الجزئي لهذا الدين والثبات عند هذا الفهم، قد يختلف المسلمون حتى في كيفيات هذه الاحتفالات وأساليبها. فبين منظم للندوات النظرية التجريدية، وبين رافع العذر إلى الله في دروس وعظات مستشهداً بقوله

تعالى: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف١٦٤)، وبين ثالث هائم المشاعر مترقب فرصة إحياء المولد، ليترنح رأسه بتناغيم وأراجيز وقصائد منظومة ومجالس حلوى. ورابع أكثر وعياً من سابقيه بالاقتراحات النظرية التي لا تدعمها تجربة وليست خلاصة حركة.

فوقائع سيرة رسول الله ﷺ وما دار فيها من أحداث الدعوة ومراحلها وجهادها وتربية جيل هذه الفترة تربية صادقة إنما ذلك كله واقع حي، وثمار ناطقة؛ كان هذا الواقع وهذه الثمار حصيلة مجاهدة هوى النفس ومجاهدة طاغوت الجاهلية وانتصار العقيدة على الفتنة، وثمرة تغلب الإرادة القوية والعزيمة الصادقة على كل معوقات الارتفاع بالنفس المؤمنة والجماعة المستعلية بإيمانها على سائر النفوس الضالة، والكيانات الهابطة بجاهليتها. ولذا؛ فإنه لا أصدق منهجاً ولا أجدى تعاملاً مع هذه السيرة أكثر من الوفاء بالعهد مع الله ومع رسوله ﷺ بأن يكون المسلم وأن تكون الجماعة المؤمنة على مستوى هذه الأحداث والوقائع في واقعها وتخطيطها لا لتعود تفهم هذه الوقائع مجرد ذكريات وأقاصيص؛ وإنما لنتعامل معها على أنها أشعة أمل وضاءة تحتاج إليها الجماعة التي تتصاعد في تربيتها، لأنه بالحاجة إلى الشيء يعرف هذا الشيء ويعظم قدره، وترتفع قيمته.

ومن هنا نجد أن من أهم حكمة لنزول القرآن منجماً، إنما كان ليثبت للأمة المسلمة واقعية منهجها في التشريع، وأن هذا التشريع ليس قانوناً يفرض قبل أن تكون النفس قد تهيأت له، وأصبح قناعة مختمرة وحاجة مُلحّة تريد حكم الله في هذا الواقع حتى أن الهدى - وهو أهم ما يطلبه المسلم وتبتغيه الأمة المؤمنة- إنما هو ثمرة المجاهدة حيث يقول الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (العنكبوت٦٩). فهذه الأحداث إذن حية بحاجة إلى أحياء أو

إلى من عزموا صادقين على أحياء أنفسهم وإحياء أمتهم من جديد بها وبأنوارها وبالإفادة من دروسها وعبرها.

المبحث الرابع
الأهداف والغايات من دراسة السيرة النبوية

ويمكننا أن نجمل أهم أهداف دراسة السيرة وغاياتها فيما يلي:

أولاً: الغاية التعبدية من دراسة السيرة النبوية:

ما من شك أن هذا الدين بعقيدته قائم على القرار بالألوهية لله عز وجل، والتي من أخص خصائصها حاكميته وتدبيره وتنظيمه لهذا الكون بكل ما فيه ومن فيه، وعلى الإقرار برسول الله ﷺ قائداً ومثلاً حياً أقر بهذا المبدأ وأيقن به وطبقه، فخلص نفسه من كل عبودية إلا عبوديته لله عز وجل، وربى جماعته التي آمنت على هذه العبودية لله عز وجل، حتى أصبحت شعار فهم، ونظام تطبيق للمسلمين، ينطق بها جندي من جنودهم هو ربعي بن عامر حينما اتهمه رستم قائد الفرس وأغراه بخيرات الأرض والذهب ومتاع الدنيا، إذ قال: أنتم قوم جياع خرجتم للسلب والنهب فإن أردتم أعطيناكم من الذهب ، فيرد عليه الجندي الواعي ليقول وبكل صراحة وقوة: "كنا كذلك ولكننا اليوم قوم ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة". إذن وقائع هذه السيرة من خلال شخصياتها الذين آمنوا بهذا الدين والتزموه فعبدوا الله عز وجل، يمكن للأمة أن ترى الشاهد الصادق، وأن تستفيد من التجربة الناجحة والخطط المحكمة في إعادة البشر من دنس العبودية والذل لطواغيت البشر والحجر والأنظمة والشهوات إلى عز العبودية لله عز وجل، فإن قمة التحرر البشري إنما هي في منتهى العبودية لله عز وجل.

ثانياً: انتزاع النفس وتحررها:

تلك العبودية تعني أنه لا بد أن يخضع المسلم في كل ما يخضع لله عز وجل سواء أكان ذلك في تقديم الشعائر التعبدية أم كان في تلقي الشرائع المنظمة لمسالك البشر، أفراداً وجماعات، أي هي مشاعر، وشعائر، وشرائع، وقيم، وأوضاع، وعادات، وأنظمة تخضع كلها له عز وجل. ومن هنا فلا بد للمسلم من أن يصارح نفسه، ويصارح مجتمعه على ضوء سيرة رسول الله ﷺ: هل هو مع الله أو مع غيره؟ هل هو في هذا العمل مسلم أم جاهلي، وهكذا.

ولهذا فإننا حينما ندرس سيرة النبي ﷺ، بهذه النفسية وعلى هذا النهج نكون بعملنا هذا إنما نعبد الله عز وجل الذي جعل عبوديته غاية وجودنا إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات٥٦).

وبالتالي يمكن للأمة أفراداً وجماعات- تخطيطاً وتنفيذاً- أن تنتزع نفسها وواقعها من كل تبعية ومن كل ضنك في العلاقة بالجاهلية وأنظمة الكفر لتعود تنعم في ظل التبعية لله سبحانه، مشمولة برعاية الله، ومستشعرة عزتها بحرية الإرادة في دائرة شمول الرقابة من الله عز وجل؛ فتأخذ قوتها من الله سبحانه وتعالى ذي القوة المتين، الذي تضعف بل تهون كل قوة غير قوته، ويفشل كل تدبير سوى تدبيره قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (الأنفال٣٠).

هذا الانتزاع للنفس والواقع يحتاج إلى الجرأة التي تقضي على العزلة الوجدانية التي يعانيها المسلمون من سيرة رسول الله ﷺ.

ومثل هذا الانتزاع يحتاج إلى المعرفة والشعور بشكل واضح، بالجاهلية على أنها ليست فترة زمنية قضت ومضت في التاريخ البشري، أو أنها التي تقابل العلم، إنما هي وكما يعرفها الأستاذ محمد قطب في كتابه جاهلية القرن العشرين: "حالة نفسية

ترفض الاهتداء بهدي الله، ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزل الله"[7] فالجاهلية ليست نظريات وإنما هي عادات وقيم وأوضاع وأنظمة ومقاييس وموازين تنأى كلها بالمسلم عن أن يكون عبداً لله عز وجل في كل شيء.

وعلى هذا فالتزام سيرة النبي ﷺ إنما هي وسيلة من وسائل التحرر الوجداني الذي لا بد أن يسبق كل تحرر يتبعه؛ سياسي أو اقتصادي أو عسكري.

وما أحوج أمتنا في هذه الأيام إلى مثل هذا التحرر، الذي يخلصنا من قبضة أعدائنا. هذا التحرر الذي اشتاق لأصحابه شوق الأرض المجدبة للماء العميم. وتعجبني عبارة نقلها الأستاذ أبو الحسن الندوي عن مفكر الإسلام الكبير إقبال حيث يقول: "إن هذا المنبر والمحراب يتشوق إلى تلك السجدات التي عرفها من السلف، تلك السجدات التي ينتزع فيها الإنسان نفسه، ويخلصها من ركام الأرض، وركام الشهوات والأنظمة والمبادئ ليرتفع بها إلى السماء".

ثالثاً: السيرة تسجيل لحدث النبوة:

هذا الحدث الذي يعتبر ثورة جذرية وتغييراً شاملاً، وحركة تجديد عالمية، لكافة مناحي الحياة العقدية والفكرية والوجدانية والسياسية والاجتماعية، والاقتصادية والعسكرية... في أعماق النفس وواقع المجتمع. فحين ندرس هذه السيرة إنما ندرس هذه الفترة النابضة بالحياة، ومدى تأثيرها في الواقع المحلي الذي أنزلت فيه الرسالة، وفي الواقع العالمي الذي هو هدفها وميدانها، لنجد أن هذه الدعوة بالتزام رجالها بقيادة رسول الله ﷺ، قدمت البديل الوحيد الصالح، الذي يهدم الباطل عقائد وكيانات ونظماً، وأنها قدمت حضارة إنسانية ، حضارة العقيدة والقيم التي لم تقف على مائدة الحضارات كحضارة مماثلة إنما أخذت دور القيادة الصالحة والبديل

---

(٧) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٤.

النافع والعلاج الشافي.

رابعاً: السيرة هي المعيار الصحيح:

سيرة رسول الله ﷺ دراسة وتعمقاً وتحليلاً إنما هي المعيار الصحيح، والميزان العادل الذي يقيس مدى صحة انتساب الأمة إلى الإسلام، وصدق ادعائها بأنها تترسم خطى رسول الله ﷺ، وخطى صحابته رضوان الله عليهم. وعلى ضوء هذه الدراسة والتحليل يمكن للعزائم الصادقة أن تعيد النظر في رصيد النفس، وواقع المجتمع، لإعادة إبراز الوجود الإسلامي العالمي، والكيان الإسلامي الصحيح، الذي يخطط في عصره الحديث وهو يشعر بأصالة المنهج الرباني الذي يحمله، وعراقة المثال العملي الحي لواقع السيرة الحية التي هي في مجمل أحداثها ثمرات الالتزام بهذا المنهج.

خامساً: بالسيرة نتخلص من مرض الازدواجية والتناقض:

إن دراسة السيرة النبوية، دراسة صادقة، إيجابية كفيلة بتخليص الأمة من مرض الازدواجية القاتل، ازدواجية العقيدة والفكر، ازدواجية التخطيط والتنفيذ. ولعل القرآن الكريم لم يشنع على مرض للنفس وداء للأمة أكثر من تشنيعه على الازدواجية والتناقض بين القول والعمل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ (الصف٢-٣)، وكلمة المقت في القرآن الكريم جاءت في مواضع تهديد ووعيد للكافرين في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾ (فاطر٣٩)، وأقلها بشاعة أن يتزوج الرجل امرأة أبيه وهي عليه محرمة على التأبيد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ (النساء٢٢)، وهذا كله يبين خطورة هذا الداء وفحشه.

سادساً: ضرورة دراسة السيرة لتفسير القرآن الكريم وفهمه:

تشغل دراسة السيرة جانباً أساسياً في تفسير القرآن الكريم، فالقرآن الكريم أصدق مسجل لأحداث السيرة ووقائعها، وما دار فيها من غزوات وأحداث وأسباب نزول، وأساليب دعوة وأصولها، وأسس التشريع والتوجيه الذي بينه رسول الله ﷺ وطبقه تطبيقاً عملياً مجسداً في حياته وواقع المجتمع المسلم. وقد سجلت آيات القرآن موقف الداعية من قومه، ومواقف المشركين ومواقف المنافقين وأساليبهم وصبر الجماعة المسلمة وثباتها وجهادها في مواجهة الباطل، هذه المواقف التي لا بد لكل داعية إلى الله أن يمر بها ويواجهها، ولا بد لكل أمة سارت على نفس الخط من الالتزام أن تواجهها.

فالسيرة إذن فيها بيان للقرآن وتفسير له، ودراستها دراسة للتفسير من هذه الوجهة.

من هذا نتبين أن فهم الإسلام مرتبط بفهم السيرة النبوية الشريفة، فهي التي بينت لنا الأحكام الشرعية لا في قوالبها، وإنما سجلت لنا حرارة الالتزام بالأحكام الشرعية، وكيفية تربية مشاعر الحلال والحرام في نفوس الجيل الذي تربى على يدي رسول الله ﷺ.

سابعاً: معرفة السيرة طريق إلى الاقتداء والتأسي:

مما تقدم يظهر لنا أن دراسة سيرة الحبيب المصطفى عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، لا بد أن تكون دراسة إيجابية صحيحة، ولا تتحقق صحتها وإيجابيتها إلا بشرطين أساسيين.

أولهما: أن تكون الدراسة صادرة عن أسباب حقيقية، لفهم محقق، معتمد على الحوادث التاريخية الصحيحة والمحققة، وبتحليل من شخصية مؤمنة موثوقة، متفهمة، غرضها الفهم الصحيح لهذه الفترة الذهبية اللامعة في تاريخ دعوة الله عز وجل ورسالة الإسلام، لتحقيق قوله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف١٠٨).

ثانيهما: أن تكون غاية هذه الدراسة الواعية؛ الحث على الالتزام بدين الله، والاقتداء برسول الله ﷺ في كل جوانب الاقتداء داعياً إلى الله، وقائداً مربياً، ومخططاً حكيماً، ومنفذاً حازماً، أباً وزوجاً وصديقاً...وفي كل جانب من جوانب الحياة، وذلك لتعطينا القدرة على حل مشكلاتنا في شتى مسارب الحياة، لتحقيق قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب٢١).

المبحث الخامس
مزايا سيرة محمد ﷺ

بعث الله محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وجعل رسالته وارثة لرسالات التوحيد منذ آدم عليه السلام، وكانت الرسالات الإلهية السابقة خاصة بشعوب وأقوام وزمان ومكان، ولذلك كانت سير الأنبياء والسابقين فيما بقي عند أقوامهم لا تنتقل، ولم يكتب لها من المزايا والخصائص التي كتبت لسيرة النبي الخاتم ﷺ، والرسول الرحمة للعالمين في كل زمان ومكان. ولهذا انعكست طبيعة الرسالة على سيرة النبي لكل رسالة، ولذا فقد انسحبت خصائص رسالة الإسلام العالمية ومزاياها على سيرة نبيها، ويمكننا أن نلخص هذه المزايا وتلك الخصائص فيما يأتي:

١ -عمق تاريخيتها وصحة توثيقها:

فهي سيرة صحيحة في أحداثها من حيث وقوعها، لأنها حياته عليه الصلاة والسلام بما فيها من أحداث ووقائع وأقوال وأفعال، ومبادئ ومناهج، وأنظمة وسلوك، وعلاقات وارتباطات، تمثل سيرة نظرية وعملية للدين، فمحمد ﷺ موقعه في الإيمان أن الشهادة بأن محمداً رسول الله قرين الشهادة بأن لا إله إلا الله. وموقعه في الدين أنه قدوة في كل شأن من شؤون الحياة، فهو الذي يدلنا على معرفة الله، وهو الأسوة في عبادتنا لله.

ولهذا جعل الله سيرته واقعية معاشة، وكفل لها من التوثيق ودقة النقل فيما ورد فيها من مقاطع في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية ما يجعلها سيرة حقيقية وواقعية، بعيدة عن كل الخرافات والأوهام والأساطير التي نسجها أصحاب الأديان الأخرى حول أنبيائهم، وأصحاب الفلسفات البشرية عن شخصياتهم وفلاسفتهم.

ولقد وصلت سيرته عليه الصلاة والسلام إلى العالم مسلمين وغير مسلمين تاريخاً صحيحاً موثقاً لا مجال فيه لخرافة. ورغم تعدد مصادرها في كتب الحديث

النبوي إلا أنها مروية عن طريق السند، وهو ميزة الأمة المسلمة في نظرية تعلمها وتعليمها، ورواياتها خاضعة لمنهج النقد التاريخي، ووفق أصول النقد لدى المحدثين سنداً ومتناً. ورغم تفاوت درجات أسانيدها، فإن كثيراً من أحداثها مروية بأعلى أنواع الأسانيد صحة وفي أوثق المصادر الحديثية وأصحها، في صحيح البخاري ومسلم، وفي الدرجة الثانية في السنن مما يحوي الصحيح والحسن والضعيف من الروايات، ومما يمكن فرز تلك الروايات وفق أسس القبول والرد، وما جاء بعد ذلك في بقية كتب السير والتاريخ العام، مما يمكن التعامل معه وفق ما مر من الروايات في الصحاح والسنن وفيما وردت مقاطع من أحداثها في القرآن الكريم.

وبالتالي فلا مجال للتشكيك في السيرة النبوية، وإن ورد الشك في روايات في تفاصيلها فبإخضاعها لأصول التصحيح والتضعيف يمكن قبولها أو ردّها.

وعلى هذا فإن سيرته عليه الصلاة والسلام محفوظة، وللمسلمين بها اهتمام منذ أن عاش أصحاب النبي ﷺ معه ونقلوها وعلّموها لأتباعهم، وهي منقولة إلى عصرنا هذا وإلى قيام الساعة سنداً ومتناً، ولها رعاية من المسلمين نقلاً ودراسة وتحقيقاً وتحليلاً. حتى قال من سبقنا من العلماء: كان السلف الصالح يحفظوننا المغازي والسير كما يحفظوننا السورة من القرآن. ولقد أعجبني بالإضافة للمصادر القديمة في السيرة ما فعله الدكتور أكرم العمري في توجيه طلابه لدراسة الروايات في السيرة من أجل الخروج بصحيح السيرة النبوية وكما فعل المرحوم إبراهيم العلي في كتابه صحيح السيرة النبوية.

٢ - كمالها وشمولها ووضوحها:

فسيرته عليه الصلاة والسلام كاملة، فلا تجد شيئاً في حياة إنسان، رجل أو امرأة، في أي مكان وأي زمان، وفي أي مرفق من مرافق الحياة، ولا معاملة من معاملاتها إلا وتجد فيها هدياً من سيرة رسول الله ﷺ، فإذا ما قرأتها وجدت في نصوصها وأحداثها جلاء ووضوحاً ومواقف ودقة وحيوية كأنك ترى رسول الله

ﷺ رأي العين، وتسمعه بأم الأذن، وتعيش معه بأوضح ما يكون، وأحسن معايشة، وإذا ما أردت أن تقول شيئاً أو تفعل شيئاً من مأكل أو مشرب أو ملبس أو حرب أو سلم أو معاملة زوج أو ابن أو أب أو أخ أو صديق أو تجارة أو في فرح أو حزن، أو أي شيء في أمور حياتك فإنك تجد في حياة رسول الله ﷺ وسيرته ما يسعفك لتهتدي به، وقدوة لتقتدي بها.

وهذا لا تجده في سير الأنبياء والرسل مما نقل إلينا، لأن الله لم يعدّهم لأن يكونوا رحمة للعالمين، وأسوة للناس كافة، ولا أنبياء خاتمين إلى قيام الساعة مثلما أعدّ محمداً النبي الخاتم، مما انعكس ذلك على كمال سيرته وشمولها لكل شيء ووضوحها في كل أمر.

ولقد أعجبني تصنيف بعض العلماء لهذه السيرة وتبويبها على فقرات الحياة كما في كتاب الشمائل النبوية للترمذي، وكما فعل ابن القيم في كتابه زاد المعاد في هدي خير العباد إذ جمع فيه فصولاً دقيقة وتفصيلية وبأسانيدها في تفاصيل حياة النبي ﷺ وفي أدق تفاصيلها. هذا في موضوع السيرة فكيف بالجهود العظيمة والحثيثة التي كانت للحديث النبوي ونقله وكتبه ودراساته الحديثية وهي تنقل حياة النبي بكامل حياته سنة وسيرة أي سيرته بالمفهوم العام. فأي حياة لنبي غير رسول الله ﷺ وأي دين غير الإسلام نقل أصحابه كل كلمة وكل فعل في حياة نبيه ورسوله[٨] .

إن أعظم الناس وأجلهم، إذا انقلب إلى بيته كان فيه رجلاً من الرجال وواحداً كآحاد الناس، ولقد صدق فولتير في كلمته المشهورة: إن الرجل لا يكون عظيماً في داخل بيته، ولا بطلاً في أسرته، يريد أن عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس إليه، لإطلاعه على دخيلته في مباذله. وهذا الحكم يشذ عن الرسول صلوات

---

(٨) ويمكن للدارس أن يفيد تفصيلياً من معرفة كتب علوم الحديث وقد عقد سليمان الندوي المحاضرة الثالثة في كتابه الرسالة المحمدية في الجهود المبذولة في نقل سيرة النبي ﷺ ص٧٠-١١٠، والمحاضرة الرابعة بعنوان في السيرة المحمدية من ناحية كمالها وتمامها وإحاطتها لشؤون الحياة البشرية ص١٠٢.

الله وسلامه عليه، فيقول باسورث سمث إن ما قيل عن العظماء في مباذلهم لا يصح -على الأقل- في محمد رسول الإسلام، واستشهد بقول كبن: لم يمتحن رسول من الرسل أصحابه كما امتحن محمد ﷺ أصحابه، إنه قبل أن يتقدم إلى الناس جميعاً، تقدم إلى الذين عرفوه إنساناً المعرفة الكاملة فطلب من زوجته وغلامه وأقرب أصدقائه إليه وأحب خلانه أن يؤمنوا به نبياً مرسلاً. فكل منهم صدّق دعواه وآمن بنبوته. وإن حليلة المرء أكثر الناس علماً بباطن أمره ودخيلة نفسه وألصقهم به، فلا يوجد من هو أعرف منها بهناته ونقائصه، أليس أن أول من آمن بمحمد رسول الله زوجه الكريمة التي عاشرته خمسة عشر عاماً، واطلعت على دخائله في جميع أموره وأحاطت به علماً ومعرفة، فلما ادعى النبوة كانت أول من صدقه في نبوته.

إن أعظم الناس لا يأذن لزوجه وإن كانت له زوج واحدة بأن تحدث الناس عن جميع ما تراه من حليلها، وأن تعلن كل ما شاهدته من أحواله. لكن رسول الله ﷺ كانت له في وقت واحد تسع زوجات، وكان لكلٍّ منهن في إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كل ما تراه منه في خلواته، وهن في حل من أن يخبرن الناس في وضح النهار كل ما رأين منه في ظلمة الليل، وأن يتحدثن في الساحات والجامع بما يشاهدن منه في الحجرات. فهل عرفت الدنيا رجلاً كهذا الرجل يثق بنفسه كل هذه الثقة ويعتمد عليها إلى هذا الحد ولا يخاف قالة السوء عنه من أحد؟ لا؛ لأنه أبعد الناس عن السوء. هذا ما يتعلق بذات الرسول، وأما ما تحلت به نفسه من دماثة الخلق ورجاحة العقل وحصافة الرأي وكرم النفس وعلو الهمة ورحابة الصدر فإن كتب الحديث ملأى بتفاصيله. وأحسن كتاب في ذلك كتاب(الشفا) للقاضي عياض الأندلسي. وقد قال لي يوماً وأنا في فرنسا مستشرق اسمه ماسنيون: يكفي لتعرف أوروبا محاسن رسول الله محمد ﷺ ومحامده أن ينقل كتاب

الشفا للقاضي عياض إلى إحدى اللغات الأوروبية[9].

ثم إن وضوح سيرة محمد ﷺ لم يكن بعد نبوته فحسب ، بل إن الله تعالى جعلها جلية واضحة، معروفة قبل مبعثه، فأربعون سنة من حياته قبل بعثته جلية واضحة، لا خفاء في فقرة من فقراتها من زواج لأبيه عبد الله بأمه آمنة بنت وهب إلى يتمه إلى رضاعته، إلى طفولته وشبابه، إلى زواجه، إلى رعيه للغنم وتجارته، إلى صدقه، مما جعل أعداءه المشركين يصارح بعضهم بعضاً بصدقه وأنه أكرم شاب فيهم وأنه الصادق الأمين، مما جعلهم يستهزئون بأنفسهم ويكذبون أنفسهم فيما يلفقون له من تهم بعد مبعثه، "إن قريشاً أنفقوا أموالهم وبذلوا نفوسهم في عداوة الرسول ﷺ، وضحوا بفلذات أكبادهم في قتاله حتى قتل منهم وجرح كثيرون، لكنهم لم يستطيعوا أن يدنسوا ذيله الطاهر، ولا أن يصموه **بشيء** في عظيم أخلاقه، وكانت أحوال الرسول وشؤونه وهديه ظاهرة لجميع الناس معلومة لهم، استوى في ذلك أحبابه وأعداؤه، ولم يخف عليهم شيء من أمره"[10] .

وما كانت شهادة أبي سفيان عند هرقل حين سأله عنه مع الوفد من التجار معه، كما ثبت في صحيح البخاري وقصة هرقل مع أبي سفيان وركبه شاهدة على ذلك. فقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب قال: "إن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسباً. فقال: ادنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبتُ عنه.

---

(٩) انظر سليمان الندوي، الرسالة المحمدية، ص ١٠٦-١٠٧.

(١٠) سليمان الندوي الرسالة المحمدية ص ١١٦

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت هو فينا ذو نسب. قال فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت لا، قال فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت:لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم. فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو

كنت عنده لغسلت عن قدمه"[11] .

أما مـن آمـن بـه عليـه الصـلاة والسـلام فكـانوا أعـرف النـاس بـه، وأقـرب الأشخاص إليه، ولقد كانت عظمة شخصيته دافعاً لحبهم له حباً جعلـهم يـدافعون عنه، ويقاتلون دونه، ويفدونه بأنفسهم وأموالهم وكل عزيـز في حيـاتهم، وجعلـهم يلتزمون بهديه في كل شيء في حياتهم، وجعلوا حبه طريقاً لحب ربهم عز وجل لما وجههـم الله إلى ذلـك بقولـه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران٣١).

ولشدة التزامهم بهديه، عرّض يهودي بالإسـلام فقـال لصـحابي:"إن رسـولكم يعلمكم كل شيء حتى بعض الأمور الحقيرة، فأجابه الصحابي وهـو مغتـبط: نعـم إن رسولنا يعلمنا كل شيء حتى آداب الخروج إلى الخلاء"[12].

وأعجبتني قصة واعظ مسلم في الهند مع رجل دين برهمي كبير ذكرتها مجلة نور الإسلام ، ذكر ذلك البرهمي أنه يرى محمداً ﷺ أعظم رجال العالم وأكملهم فسأله: وبماذا كان محمد عندك كذلك فأجاب:" لأني أجد في رسول الإسلام خـلالاً مختلفـة وأخلاقاً جمة، وخصالاً كثيرة، لم أرها اجتمعت في تاريخ العالم لإنسان واحـد في آن واحد؛ فقد كان ملكاً دانت له أوطانه كلها، يتصرف بالأمر فيها كما يشاء وهو مـع ذلك متواضع في نفسه يرى أنه لا يملك من الأمر شـيئاً، وأن الأمـر كلـه بيـد ربـه. وتراه في غنى عظيم تأتيه الإبل موقرة بالخزائن إلى عاصمته، ويبقى مع ذلك محتاجـاً ولا توقد في بيته نار لطعام في الأيام الطوال وكثيراً مـا يطـوي علـى الجـوع. ونـراه قائداً عظيماً يقود الجند القليل العدد الضعيف العدد فيقاتل بهـم ألوفـاً مـن الجنـد المدججين بالأسلحة الكاملة ثم يهزمهم شر هزيمة. ونجده محباً للسلام مؤثراً للصلح

---

(11) البخـاري، صـحيح البخـاري، بشـرح فـتح الباري، كتاب بدء الوحي ١/ ٣١-٣٢

(12) سليمان الندوي، الرسالة المحمدية ص ١٢٨

ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن وجأش هادئ ومعه ألوف من أصحابه كل منهم شجاع باسل وصاحب حماسة وحمية تملأ جوانحه، ونشاهده بطلاً شجاعاً يصمد وحده لآلاف من أعدائه غير مكترث بكثرتهم، وهو مع ذلك رقيق القلب رحيم رؤوف متعفف عن سفك قطرة دم. وتراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلها، بينما هو لا يفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده، ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم وصدوا عنه فيحرص على إصلاحهم. وبالجملة إنه إنسان يهمه أمر العالم كله، وهو مع ذلك متبتل إلى الله، منقطع عن الدنيا، فهو في الدنيا وليس فيها، لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضي الله. لم ينتقم من أحد قط لذات نفسه، وكان يدعو لعدوه بالخير، ويريد لهم الخير، لكنه لا يعفو عن أعداء الله، ولا يتركهم، ولا يزال ينذر الذين قد صدّوا عن سبيل الله ويوعدهم عذاب جهنم. تراه زاهداً في الدنيا عابداً، يقوم الليل لذكر الله ومناجاته. كما تتصور من شمائله أنه الجندي الباسل المقاتل بالسيف. وتراه رسولاً حصيفاً ونبياً معصوماً في الساعة التي تتصوره فيها فاتحاً للبلاد ظافراً بالأمم. وإنه ليضطجع على حصير له من خوص ويتكئ على وسادة حشوها من ليف حينما يخطر على بالنا أن ندعوه بسلطان العرب وننادي به ملكاً على بلاد العرب. ويكون أهل بيته في فاقة وشدة عقب استقباله الأموال العظيمة آتية إليه من أنحاء الجزيرة العربية فتكون في فناء مسجده أكواماً، وتأتيه بنته وفلذة كبده فاطمة تشكو إليه ما تكابده من حمل القربة والطحن بالرحى حتى مُجّت يداها وأثرت القربة في جسمها، والرسول يومئذ يقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب وإمائها، فلا تنال بنته من ذلك إلا دعاءه لها بكلمات يعلمها كيف تدعو بها ربها. وجاءه ذات يوم صاحبه عمر، فأجال بصره في الحجرة فلم يجد إلا حصيراً من خوص قد اضطجع الرسول عليه وأثر في جنبه، وكل ما في البيت صاع من شعير في وعاء وعلى مقربة منه شنّ معلق على وتد. هذا كل ما يملك رسول الله ﷺ يوم دان له نصف العرب. فلما رأى عمر ذلك لم يتمالك نفسه من دموع تذرفها

عيناه، فسأله رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: ومالي لا أبكي، إن قيصر وكسرى يتمتعان بالدنيا، وينعمان بنعيمها، وإن رسول الله ﷺ لا يملك من الدنيا إلا ما أرى. فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى يا عمر أن يكون ذلك نصيب كسرى وقيصر من نعيم الدنيا، وتكون لنا الآخرة خالصة من دون الناس؟! . وعندما أحدق النبي ﷺ بجيوشه ليفتح مكة قام أبو سفيان إلى جانب العباس عم الرسول ﷺ ينظران إلى المجاهدين من المسلمين تتقدمهم الأعلام الكثيرة، وكان أبو سفيان لا يزال على ما كان عليه من المخالفة للإسلام، فراعه ما رأى من كثرة جموع المسلمين ومن انضوى إليهم من القبائل المسلمة وأنهم يزحفون على بطحاء مكة كالسيل الجارف لا يصده صاد ولا يمنعه شيء، فقال لصاحبه: يا عباس إن ابن أخيك أصبح ملكاً عظيماً. فأجابه العباس وهو يرى غير الذي يراه أبو سفيان: ليس هذا من الملك في شيء يا أبا سفيان، هذه نبوة ورسالة[(١٣)]

٣ - عصمتها مع إنسانيتها وواقعيتها:

فسيرة رسول الله ﷺ فيما وصلت إلينا في هديه في كتب السنة والسيرة ليست تجريدية، ولا مثالية فلسفية. فهي سيرة نبي معصوم لأنه قدوة، ولا يجري عليه القول الذي يتعارض مع موقعه في أنه أعرف الناس بالله وأعلمهم بدينه، ولا يجري عليه عمل المعصية لأن موقعه طريق تشريعي ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، فلا يصح بمنطق موقعه أن يقع فيما يتعارض مع تبليغه للدين والشريعة، وفيما يتعارض مع كونه الأسوة والقدوة لطاعة الله وعبادته، وتقوى الله وخشيته، ومع عصمة ومثالية إيمانه وشريعته، وقوله وفعله، وسنته وسيرته إلا أن سيرته مملوءة بكل فكر واقعي في صياغة الحياة والاعتراف بواقع النفس، والارتفاع بها وبالواقع إلى أعلى درجات الكمال، وهي عملية وليست مجرد تنظير لا يقبل التطبيق في واقع الحياة. وهي مع عصمة نبيها أحداث تتجلى فيها إنسانية

---

(١٣) المرجع السابق ص١٣٧-١٤٠

البشر الكامل، الذي لم تخرجه النبوة عن الإنسانية، ولا يوجد في تفاعل أصحاب النبي في حياتهم معه وحبهم له ما يخرج النبي عن إنسانيته، ولا حتى بزعم الحب الإيماني له. وبالتالي فما نقله أصحاب النبي من سيرته مع حبهم له كان في منتهى تجلي الواقعية الإنسانية. وكان بعيداً عن كل وهم أو خرافة أو قول أو فعل غير مفهوم، فليس في سيرته ألغاز تحتاج إلى حل، ولا رموز تحتاج إلى تفسير. فأحداث سيرته بيّنة ظاهرة لحياة بني الإنسان قدوة للناس في كل شيء فضلاً عن أنها بالتالي تصلح لأن تكون قدوة لكل إنسان على وجه الأرض، وهي مفهومة لكل بشر وإلى قيام الساعة(١٤) . وحتى ما فيها من المعجزات فهي مفهومة عقلاً، وإن كانت خوارق للعادات، ولكنها ليست مستحيلة في فهمها على العقل الإنساني.

وحتى ما فيها من خصوصيات أحواله عليه الصلاة والسلام كانت مفهومة للعقل الإنساني مع وجه اختصاص النبي ﷺ بها.

نعم لقد كانت سيرته عليه الصلاة والسلام إنسانية في أجلى صورها لأنها للناس كافة، فهي سيرة خير البشر وقدوتهم الذي يعيش كما يعيش البشر، يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، ويألم كما يألمون، ويفرح كما يفرحون ، ويعتريه المرض، كما ينعم بالصحة. فالعبادة في هذه السيرة شاملة للشعائر والشرائع، وجامعة بين الأخلاق والسلوك والإيمان والتصور.

ولذلك فإن العبادة لم تعد قيداً أو أثقالاً ترسف تحتها الفطرة، وتنوء بها الطاقة ولم تعد الغاية تعذيب البدن، وإزهاق الروح؛ ولم يعد الحرمان والزهد الأعجمي يدلان على القرب بين العبد ومولاه. وعندما جاء النفر الثلاثة إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته فكأنهم تقالّوها، وقالوا إنه نبي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ثم تعاهدوا فيما بينهم فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبدا، وقال الثالث : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء

---

(١٤) انظر القصة السابقة للبرهمي الذي يرى رسول الإسلام أعظم رجال التاريخ

رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الـذين قلـتم كـذا وكـذا، أمـا والله ، إنـي لأخشـاكم لله، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمـن رغـب عـن سنتي فليس مني".

ففي هذا الحديث بيان لمنهج السيرة في الحياة، وأنهـا تلـبي مطالـب الحيـاة الـتي خلقها الله تعالى، ولا تخرج بالإنسان مـن دائـرة إنسـانيته إلى دائـرة ملائكيـة، وقـد كلفت العقائـد الأخـرى أتباعهـا تكـاليف شـاقة وصـلت بهـم إلى قتـل أنفسـهم، استرضاء للآلهة المزعومة وميزت بين ما هو دين بزعمها ، وما هـو دنيـا؛ وجعلـت الدين شيئاً والدنيا شيئاً آخر.

المبحث السادس
مصادر دراسة السيرة النبوية ومناهج التأليف فيها

شخصية رسول الله ﷺ وأحداث حياته، وأحداث بعثته ودعوته وجهاده، وتربية أمته، وتبليغ دين الله ، وما دار من علاقات بسبب بعثته ورسالته بينه وبين المدعوين من قومه وأهله في مكة وفي غيرها من الناس في الجزيرة العربية، والناس خارج الجزيرة، كل هذا يمثل سيرته عليه الصلاة والسلام وكل النصوص والأدبيات التي كانت في تلك الفترة الزمنية لحياته تعد مصادر لدراسة سيرته عليه الصلاة والسلام، ويمكننا تفصيل تلك المصادر فيما يلي:

١ - المصدر الأول: القرآن الكريم:

وهو مصدر أساسي للسيرة النبوية؛ فهو كتاب الله الذي أنزله على رسوله ﷺ وأوحى إليه به. وفي القرآن الكريم مقاطع من أحداث سيرته عليه الصلاة والسلام، لأنه نزل عليه خلال ثلاثة وعشرين عاماً، وفيه من الآيات ما صوَّر دعوته وجهاده، وثباته ومعجزاته ومواقف القوم منه. وفيه من الآيات التي تصور شخصيته عليه الصلاة والسلام وأخلاقه، وصنوف الأذى له، والاتهامات التي زعمها الكفار، وفيها من الردود على شبهات خصومه، وفيها من أخبار عن غزواته مثل بدر وأحد والأحزاب والحديبية وتبوك وفتح مكة وحنين وصراعه مع يهود. وإذا أردنا التفصيل في هذه المسألة فهو كثير جداً. بل لقد صنف فيها الأستاذ محمد عزة دروزة رحمه الله سفراً من مجلدين كبيرين بعنوان "سيرة الرسول- صورة مقتبسة من القرآن الكريم"[١٥].

نعم القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً، وليس كتاب سيرة، فهو كتاب الله تعالى، كتاب الهداية والإعجاز والشفاء، يحمل الإيمان والاعتقاد والهداية والتشريع، والأخلاق والقيم، وكل هذه القضايا هي محتويات دعوة رسول الله ﷺ، إليها يدعو،

---

[١٥] انظر دروزة/ محمد عزة، سيرة الرسول- صورة مقتبسة من القرآن الكريم، مجلدان طبعة المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، محرم الدوحة ، قطر ١٤٠٧هـ.

وبها يعمل، ومن أجلها يجاهد، وهي تقوم كلها على شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله، ولهذا شغلت بنبوته عليه الصلاة والسلام آيات الكتاب وأخذت شخصيته عليه الصلاة والسلام وأحداث سيرته آيات من القرآن الكريم، إذ لا انفصال بين الدعوة إلى الإسلام وبين حركة رسول هذه الدعوة بالإسلام. قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب٤٠).

وإذا كان القرآن مصدراً مهماً للسيرة النبوية، وبالتالي فلا مناص من الرجوع إلى كتب التفسير وعلى وجه الخصوص؛ كتب التفسير بالمأثور كتفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، ولكتب أسباب النزول مثل؛ أسباب النزول للواحدي، وكتاب النقول للسيوطي، والعجاب في الأسباب لابن حجر.

وفي هذه التفاسير والكتب من الروايات ذات العلاقة بالآيات وأسباب نزولها ما يساعدنا في فهم السيرة النبوية، مع إخضاع هذه الروايات للدراسة النقدية الحديثية.

ومن الجدير بالذكر"أن صحيح البخاري" من أوسع كتب السنة التي استقصت روايات أسباب النزول، إضافة إلى أنها في أعلى درجات الصحة.

كما وأن أوسع الصحابة رواية لأسباب النزول هو ابن عباس.

ويلي صحيح البخاري في كثرة العناية بأسباب النزول مستدرك الحاكم. ومعظم ما أورده الحاكم من حديث ابن عباس تسع وعشرون رواية، ويليه حديث عائشة، ففيه عنها سبع روايات، وأما أوسع كتب السنة لأسباب النزول فهو مسند أحمد، ففيه ثمان وعشرون رواية معظمها صحيح، وقليل منها ضعيف حيث أورد معظم ما أورده البخاري وزاد عليه"[16].

---

(16) العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، ط٥، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ١/ ٢٢ ونقل عن عصام عبد المحسن، أسباب النزول، ص٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ٩٨.

٢ -المصدر الثاني: السنة النبوية أو مصنفات الحديث النبوي:

ضمّت المصادر الحديثية السنة النبوية، وكل ما دار في حياته عليه الصلاة والسلام من الأقوال والأفعال والتقريرات والأوصاف. والسنة تأتي في المرتبة الثانية للوحي بعد القرآن الكريم، وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، وفيها الحياة العملية للإسلام متمثلة في شخصية رسول الله ﷺ، ولذلك سجلت مصادر الأحاديث النبوية من الصحاح والسنن والموطآت كل ما في حياة الرسول ﷺ، وفيها أبواب واضحة معنونة بالمغازي والسير، كما فيها الأبواب من أقواله عليه الصلاة والسلام وأفعاله في تفاصيل الحياة التشريعية.

وإذا أخذنا السيرة بالمفهوم العام والشامل لمفهوم السيرة النبوية كعلم خاص بالحياة الشخصية للنبي ﷺ ولغزواته ومغازيه، ولكل ما قاله وفعله وشرعه، وبينه فعلاً وقولاً وتقريراً ووصفاً أي ما عبر عنه بالسنة؛ فإننا نجد مصنفات الحديث النبوي محتوية للسيرة النبوية بالمفهوم العام، وللسيرة بالمفهوم الخاص لعلم السيرة.

ويمكن الإشارة إلى أهم المصادر الحديثية في السنة النبوية باعتبارها مصدراً أساسياً ثانياً للسيرة النبوية: وهي صحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم، ويأتي بعدهما في الأهمية الصحاح الأخرى، وموطأ الإمام مالك، وكتب السنن؛ كسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، وسنن الدارمي وسنن الترمذي، ومسند الإمام أحمد، وغيرها من مصنفات الحديث النبوي.

وفي هذه المصنفات أبواب محددة في أحداث السيرة النبوية، وبعض الأحداث مبحوثة كقضايا في أبواب أخرى لما فيها من أحكام تشريعية.

وتتراوح الأحاديث في السيرة النبوية في مصنفات الحديث بين الصحيح المجمع على صحته؛ كأحاديث البخاري ومسلم ، والأحاديث الحسنة والضعيفة والموضوعة في غيرها. وهذا الأمر يقتضي اختيار الأحاديث المقبولة في الاستدلال عند التأليف في السيرة النبوية، حتى نصنع سيرة صحيحة ومقبولة وصادقة من حياته عليه الصلاة والسلام، ونبتعد عن الروايات الموضوعة والمتهالكة؛ لأنها لا

تدل على سيرة حقيقية، ولأن فيها من الخرافات والأوهام ما فيها.

ومن الجدير بالقول بأن الاعتماد على كتب السنة النبوية في صياغة السيرة أولى من الاعتماد على غيرها من كتب التاريخ والمغازي والسير، لأن كتب الحديث تحتوي على مادة السيرة الموثقة حسب منهج المحدثين[١٧].

وقد وضع إبراهيم العلي قاعدة طيبة في بيان هذه الدعوى فقال رحمه الله" ما جاء في كتب الحديث الصحيح من روايات للسيرة مقدمٌ على ما جاءَ في كتب المغازي: إن المطلوب هو اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها في بناء الصورة الناصعة لسيرة النبي ﷺ، ثم الروايات الحسنة، ثم ما يعضدها من الضعيف، وعند التعارض يقدم الأقوى دائماً، أما الروايات الضعيفة فيمكن الاعتماد عليها في إثبات حوادث تاريخية لا ينبني عليها أي حكم شرعي أو أمر في جانب العقيدة، لأن الأحكام الشرعية والأمور العقدية لا تثبت إلاّ بالأحاديث الصحيحة.

إن السيرة النبوية مليئة بالأحكام الشرعية والتي يستفاد منها في كثير من جوانب الحياة، ولذا فيجب أن تكون ثابتة بالأحاديث الصحيحة حتى يعتمد عليها، وكتب الحديث تحتوي على مادة السيرة الموثقة حسب منهج المحدثين، فلذلك يجب الاعتماد عليها وتقديمها على روايات كتب المغازي والسير والتواريخ العامة، وخاصة إذا أوردتها كتب الحديث الصحيحة، لأنها ثمرة جهود جبارة قدمها المحدثون عند تمحيص الحديث ونقده سنداً ومتناً، هذا النقد والتدقيق الذي حظي به الحديث لم تحظ به الكتب التاريخية، والمعلوم أن للمحدثين مناهج وطرقاً في نقد الأحاديث ومعرفة الصحيح من الضعيف من حيث التدقيق في عدالة الرواة الذين رووا الأحاديث أو أي حادثة من الحوادث التي يعتمدونها، ويشترطون في الرواة شروطاً محددة لا بد من توفرها حتى تثبت عدالة الرواة فتصح روايتهم.

وهذه الشروط لا تتوفر في مناهج المؤرخين في رواياتهم التاريخية فهم يتساهلون

---

(١٧) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص١١-١٤.

في تعاملهم مع الروايات التاريخية، ولذلك نجدهم يروون عن رواة لم تثبت عدالتهم عند المحدثين من أمثال الكلبي، وسيف بن عمر التميمي والواقدي وغيرهم من الضعفاء عند المحدثين"[١٨].

٣ -المصدر الثالث: كتب المغازي والسير:

وهي كتب مصنفة في سيرة الرسول ﷺ ومغازيه وجهاده، ألفها أصحابها لتدور أحداثها حول رسول الله ﷺ كجزء من التاريخ العام، باعتبارها تأريخاً خاصاً برسول الله ﷺ، أو ما عرف بعد ذلك بعلم السيرة النبوية.

ومن أهم هذه الكتب[١٩]: كتاب عيون الأثر في فنون المغازي والسير لابن سيد الناس (ت(٧٣٤هـ)، وهو محدث ثقة؛ وثقه الذهبي وابن كثير. وقد أكثر فيه النقل عن كتب الحديث إلى جانب كتب المغازي التي سبقته، وقد ذكر مصادره في مقدمة كتابه.

ومنها كتاب زاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، وهو من أعلام العلماء في عصره وكتابه نفيس في الشمائل والآداب، والفقه والمغازي، فهو مزيج من ذلك كله.

ومنها السيرة النبوية للحافظ الذهبي(ت٧٤٨هـ)، وهو مؤلف ثقة يمتلك عقلية ناقدة جيدة وبخاصة في استخدام قواعد المحدثين والذي يُعدّ من أهل الاستقراء التام فيها. وقد اقتصر على نقد بعض الروايات في كتابه هذا.

ومنها البداية والنهاية للحافظ ابن كثير(ت٧٧٤هـ): وهو تاريخ عام خصص قسماً منه للسيرة. وابن كثير من الأئمة الثقات المحققين وثّقه الذهبي والعسقلاني وابن العماد الحنبلي.

ومنها إمتاع الأسماع للمقريزي، وهو ثقة، وقصد الاختصار وتخلى عن ذكر

---

(١٨) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص١١-١٢.

(١٩) انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة ١/٦٨-٦٩ بتصرف

الإسناد ، وقال السخاوي عن الإمتاع:" فيه الكثير مما ينتقد"[٢٠].

ومنهـا المواهـب اللدنيـة بـالمنح المحمديـة، لأحمـد بـن محمـد القسـطلاني (ت٩٢٣ هـ).

ومنها شرح المواهب اللدنية، لمحمد بن عبـد البـاقي الزرقـاني (ت١١٢٢هــ). والمواهب وشرحه من الكتب الجامعة في الشمائل والسيرة.

ومنها السيرة الحلبية لبرهان الدين الحنبلي (ت٨٤١هــ) فيـه حشـو وقصـص إسرائيلي[٢١]. وقد حذف أسانيد الروايات واكتفى بذكر راوي الخبر، وشرح بعض الغريب وأضاف تعليقات أخرى.

ومنها سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العبـاد، لمحمـد بـن يوسـف الدمشـقي الشامي(ت٩٤٢هـ).

٤ - المصدر الرابع: كتب التاريخ الإسلامي:

وتحتل السيرة النبوية جزءاً من كتب التاريخ الإسـلامي، وفيهـا روايـات كـثيرة تحتاج إلى إخضاع لمنطق الدراسة النقدية الحديثيـة؛ لأن الروايـات التاريخيـة ليسـت ممحصة وفق أصول النقد للروايات؛ ففيها الصحيح؛ والضعيف؛ والموضوع، وما لا أصل له، ومنها روايات متناقضة أحياناً؛ لأن المؤرخ كان يسجل ويروي كما يسـمع مفرغاً ذمته بعدم إنكار ما سمعه أو ما وصل إليه من رواية. وكانت هذه بالنسبة له تمثـل الأمانـة العلميـة، أمـا تمحـيص الروايـات فلـيس مـن شـأن الـراوي أو الناقل.

ومن هذه الكتب[٢٢]: الطبقات الكبرى لابن سعد (ت٢٣٠هـ) حيث خصص المجلدين الأولين من كتابه للسيرة، وابن سعد ثقة يتحرى في كثير مـن رواياتـه كمـا يقول الخطيب البغدادي والعسقلاني، لكنه ينقل عن الضعفاء مثل الواقـدي الـذي

---

(٢٠) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، ملحق علم التاريخ عند المسلمين، لروزنتال ص٣٠

(٢١) جواد على تاريخ العرب قبل الإسلام، السيرة النبوية ص١٠

(٢٢) العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٦٦-٦٨

أكثر من النقل عنه حتى اتهمه ابن النديم بسرقة مصنفاته، لكـن التـدقيق يثبـت أن ابن سعد مؤلف له منهجه، وأنه يكثر النقل عن الواقـدي، كمـا يكثـر عـن شـيوخ آخرين يبرز بينهم عفان بـن مسـلم، وعبيـد الله بـن موسـى، والفضـل بـن دكـين، والثلاثة من ثقات المحدثين[٢٣]. وقد ذكر الحافظ الذهبي:"ويقولون إن مـا رواه عنـه- أي الواقدي- كاتبه في الطبقات هو أمثل قليلاً في رواية الغير عنه"[٢٤].

ومنها تاريخ خليفة بن خياط المتوفى ٢٤٠هـ، وهـو محـدث ثقـة مـن شـيوخ الإمام البخاري في الصحيح، وكتابه مصنف تـاريخ عـام تنـاول في بدايتـه أحـداث السيرة باقتضاب معتمداً على ابن إسحق بالدرجة الأولى[٢٥].

ومنها أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر الـبلاذري(ت٢٧٩هـ)، وهـو تاريخ عام مرتب على النسب، وقد خصص البلاذري القسـم الأول منـه للسـيرة. وينظر المحدثون إلى البلاذري نظرة تضعيف، فقد أورد العسـقلاني ترجمتـه في كتابـه عن الضعفاء في كتابه لسان الميزان.

ومنها تاريخ الرسـل والملـوك لمحمـد بـن جريـر الطـبري(ت٣١٠هـ)، حيـث خصص قسماً من تاريخه للسيرة النبوية. والطبري ثقـة واعتمـد علـى ابـن إسـحق بالدرجة الأولى. ومنهج الطبري أنه لا يهتم بنقد الروايات التي يوردهـا مـن حيـث الصحة والضعف، بل يسوقها بأسانيدها تاركاً للقارئ مهمة التحقيق والترجيح[٢٦].

ومنها الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر القـرطبي (ت٤٦٣هـ)، وهو من أعلام المحدثين في عصره، وقد اعتمد على سيرة ابن إسحق وسيرة موسـى بن عقبة، وتاريخ ابن أبي خيثمة إضافة إلى كتب الحديث[٢٧]، ولم يصرح بالنقل عن

---

(٢٣) أكرم العمري، بحوث في تاريخ السنة المشرقة ص٥٦-٥٧

(٢٤) سير أعلام النبلاء، ٩/ ٤٦٤.

(٢٥) أكرم العمري، مقدمة في تاريخ خليفة بن خياط ص٢٦-٢٧.

(٢٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك(ت أبي الفضل إبراهيم) ١/ ٨.

(٢٧) شوقي ضيف، مقدمة كتاب الدرر ص٨.

الواقدي إلا في موضع واحد[٢٨]، لكنه أشار إلى روايته لمغازيه[٢٩]. وقد صرح بمتابعة ابن إسحق في البناء العام لكتابه[٣٠]، ولم يتقيد بذكر الإسناد كثيراً.

ومنها جوامع السيرة لابن حزم الظاهري(ت٤٥٦)، وقد تخلى عن طريقة ذكر الأسانيد، ولم يشر إلى مصادره[٣١]، ورجح بين الروايات وأثبت في كتابه ما اختاره وحقق في تواريخ الأحداث[٣٢]، وغلبت عليه طريقة التلخيص فجرد السيرة من الأشعار والقصص[٣٣] .

وقد كانت كتب التاريخ الإسلامي مروية عن الأمة المسلمة بالإسناد وهذه ميزة من مزايا الأمة المسلمة، والإسناد ضروري في نقل الدين وأحداث حياة رسول الله ﷺ، وقد بين المرحوم إبراهيم العلي فيما نقل عن الأئمة الأعلام في تشدّد سلفنا الصالح على ضرورة الإسناد وأنه مطلوب مهم من مطالب الإسلام وأنه من خصائص الأمة المسلمة ومن النقول التي أثبت بها هذا الإدعاء وقواه ما يأتي: "أخرج مسلم في مقدمة صحيحه"١/ ٨٧" عن عبد الله ابن المبارك قوله: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

وعن ابن المبارك أيضاً قال: مثل الذي يطلب أمر دينه بلا إسناد كمثل الذي يرتقي السطح بلا سلم. ذكره الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية ص٣٩٣. ولهذا وصف الإمام الشافعي الذي يطلب الحديث بلا إسناد كمثل حاطب الليل يقول رحمه الله: (مثل الذي يطلب الحديث بلا إسناد كمثل حاطب الليل) جاء هذا في

---

(٢٨) ابن عبد البر، الدرر ص٣٩.
(٢٩) المصدر السابق ص٢٧٦.
(٣٠) المصدر السابق ص٢٩ وانظر شوقي ضيف، مقدمته لدرر ص١٢.
(٣١) لكنه صرح بالنقل عن خليفة بن خياط في ثلاثة مواضع، وعن تاريخ أبي حسان الزيادي في ثلاثة مواضع أيضاً، وعن الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر في موضع واحد، ورأى محققو كتابه أنه نقل عن الدرر كثيراً بتصرف وقطع بذلك شوقي ضيف (راجع جوامع السيرة، المقدمة ص٨ والدرر، المقدمة ص١٥.
(٣٢) جوامع السيرة، مقدمة ص١٠.
(٣٣) المصدر نفسه ص ١٣.

شرح المواهب اللدنية ٥/ ٤٥٣.

وحاطب الليل لا يعمل على بصيرة من أمره، وإنما يسير على غير هدى ، فلا يدري ما الذي يجمعه، وهذا الأمر كان موجوداً في رواة الأمم السابقة الذين كانوا يفتقدون الأمانة في النقل، وينقلون الأحداث بلا إسناد، وإذا كان هذا الأمر مقبولاً عند الأمم السابقة، فإنه لا يقبل في تاريخ أمتنا التي ميزها الله عز وجل بميزة نقل الثقات عن الثقات، حتى الوصول إلى تاريخ الحدث والذين شاهدوه مشاهدة عيانية.

جاء في خلاصة الطيبي"ص٥٥": "الإسناد خصيصة هذه الأمة، وسنة من السنن البالغة، وطلب العلو فيه سنة أيضاً ولذلك استحبت فيه الرحلة".

ولو قايسنا تاريخ أمة الإسلام بتاريخ الأمم الأخرى مثل اليهود والنصارى في النقل عن أنبيائهم لوجدنا فرقاً واضحاً وجلياً، يقول ابن حزم الظاهري في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" "٢/ ٨١-٨٢":

"نقل الثقة عن الثقة يبلغ به النبي ﷺ مع الاتصال، خص الله به المسلمين دون سائر الملل، وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد في كثير من اليهود، ولكن لا يقربون فيه من موسى قربنا من محمد ﷺ، بل يقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصراً، وإنما يبلغون إلى شمعون ونحوه" ثم يقول: "وأما أقوال الصحابة والتابعين فلا يمكن أن يبلغ اليهود إلى صاحب نبي أصلاً، ولا إلى تابع له، ولا يمكن النصارى أن يصلوا إلى أعلى من شمعون وبولص".

فإذا كان هذا الأمر مقبولاً عند الأمم السابقة في نقلهم للأحداث التاريخية دون ذكر أسانيدها، أو مجرد التأكد من صحة الحدث أو كذبه، فإن هذا الأمر لا يقبل البتة في أمة الإسلام، وإن الإنسان أو الكاتب الذي يقبل الأحداث التاريخية دون التأكد من وجود أسانيد لها يدخل عن المحدثين في طائفة الزمنى"المرضى" على حد تعبير عبد الله بن طاهر.

جاء عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال: "كان عبد الله بن طاهر إذا سألني

عن حديث فذكرته له بلا إسناد، سألني عن إسناده وقال: رواية الحديث بلا إسناد من عمل الزمنى، فإن إسناد الحديث كرامة من الله تعالى لأمة محمد ﷺ" شرح المواهب اللدنية للزرقاني "٥/ ٤٥٣".

والإسناد فرض من فروض الكفاية التي لا بد منها كما يقول الشيخ علي القاري في شرحه على شرح النخبة"١٩٤": "أصل الإسناد خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسنة بالغة من السنن المؤكدة، بل من فروض الكفاية وطلب العلو فيه أمر مطلوب وشأن مرغوب".

وقد اهتمت كتب ومصنفات الحديث عظيم الاهتمام بالأسانيد واتصالها وعدالة رجالها، وجاءت مادة السيرة من مضمون هذه الكتب والمصنفات الحديثية بنفس الطرق والأسانيد الموثقة التي جاءت بها الأحكام الشرعية في الفقه والعبادات والمعاملات وغيرها من محتوى كتب الحديث.

إن أهمية الإسناد في نقل الروايات التاريخية وخاصة السيرة النبوية عظيمة، لا ينكرها إلا غر جاهل، فلولاه لما تميز الصادق المستقيم عن الأفّاك الأثيم، وإذا كان الإسناد مجموعة من الرجال، والرجال يعتريهم الخطأ والنسيان والغلط، وأحياناً تعمد الكذب والاختلاق والتزوير والافتراء، فإن علم الجرح والتعديل قد عرض لك ما يخطر في البال من هذه الأمور التي تتعلق بأحوال الرواة، والتي يمكن أن تقدح في صحة الرواية أو الإسناد، وكما وضع علماء الجرح والتعديل شروطاً لصحة وعدالة الرواة في أسانيدهم، فقد وضعوا شروطاً يسبرون من خلالها صحة المتون وعدم شذوذها، فقد يصح الإسناد إلا أن المتن يكون ضعيفاً، فلا تعتبر الرواية، فنشأ من كل هذه الأمور ومجموعها ما يسمى بنقد المتن.

إن الإسناد الصحيح وموازينه الدقيقة يعتبر من المرتكزات الأساسية لتصحيح الخبر والرواية التاريخية، وليس هناك خبر جاء بإسناد صحيح غير معلول، لا يقبله أو يرفضه الواقع، اللهم إلا عقول أولئك الذين أغلقوها ووضعوا مفاتيحها في

صناديق يملكها آخرون[٣٤].

٥ - المصدر الخامس: كتب الدلائل والشمائل النبوية:

وهي الكتب التي تحتوي على روايات حديثية وتاريخية في معجزات رسول الله ﷺ، ودلائل نبوته من المعجزات الحسية، وغرائب العادات مما جرى بين يدي مولده ﷺ من بشارات، وما جرى في حياته من إرهاصات قبل بعثته، وما جرى في حياته من معجزات، وما تحدث به من إخبارات بالغيب حصلت في حياته وستحصل بعد وفاته، ومن علامات للساعة وأخبار بالملاحم والفتن.

وكذلك كتب الشمائل للنبي ﷺ بما فيها من أوصاف له خَلْقية، وما تناولت من مكارم خُلقية في حياته وشخصيته، وما في تلك الكتب من ذكر لزوجاته، وأهل بيته، وخدمه، وناقته، ودوابه، وملابسه، وبيوت أزواجه، وكثير من تفاصيل عاداته وحياته.

ومن أهم كتب الدلائل والخصائص والشمائل مصادر للسيرة النبوية الكتب الآتية[٣٥]:

دلائل النبوة للفريابي(ت٢١٢هـ) وآيات النبي لعلي بن محمد المدائني(ت٢٢٥هـ) وكتاب أعلام النبوة لداوود بن علي الأصبهاني. وأعلام رسول الله ﷺ لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، وأعلام النبوة لابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)، وكتاب خصائص أفضل المخلوقين لعمر بن علي الملقن (ت٤٠٨هـ) ، وكتاب الخصائص الكبرى لجلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)، وكتاب صفة النبي لأبي البختري وهب بن وهب الأسدي (ت٢٠٠هـ)، وكتاب صفة النبي لعلي بن محمد المدائني، وكتاب صفة أخلاق النبي لداوود بن علي الأصبهاني(ت٢٧٠هـ)، وكتاب الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية للترمذي، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض(ت٥٤٤هـ)، وشرحه لعلي القاري(ت١٠١٤هـ)، وكتاب شمائل

---

(٣٤) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص١٢-١٤.
(٣٥) انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٥١-٥٢

الرسول للحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ).

٦ - **المصدر السادس: كتب الأشعار والآداب والبلدان التي تصور بعضاً من فقرات السيرة ووصف رسول الله ﷺ:**

وهي مصادر تكميلية بعد المصادر الأساسية من القرآن والسنة والمغازي والسير والتاريخ الإسلامي [٣٦] مثل:

شعر حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكتب الصحابة. والتعريف بأسانيد كتب السيرة، وكتب الجغرافية التاريخية التي تتحدث عن وصف تضاريس جغرافية لمناطق في الجزيرة العربية ذات علاقة بسيرة الرسول ﷺ وغزواته ورسائله إلى الملوك فيها، وبيان عشائرها وسكانها وعلاقتهم بالدعوة الإسلامية إيجاباً أو سلباً. وكتب معاجم البلدان لما فيها من بعض معلومات عن المناطق والمدن التي للسيرة النبوية بها علاقة.

ومن هذه الكتب للبلدان: أخبار مكة للأزرقي(ت٢٢٣هـ) ، وكتاب أخبار مكة للفاكهي ت(٢٧٢٠٠هـ)، وأخبار المدينة لعمر بن شبة(ت٢٦٨هـ)، وأخبار المدينة لابن زبالة(ت٢٠٠هـ)، وإتحاف الورى بأخبار أم القرى لابن فهد (ت٢٠٠هـ)، والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لابن مجير الدين الحنبلي(ت٩٢٨هـ)، ومعجم البلدان لياقوت الحموي.

٧ - **المصدر السابع: السيرة والدراسات المعاصرة:**

الكتب المعاصرة إنما تستقي كلها من المصادر السابقة إما:

نقلاً تاريخياً مع حذف الأسانيد واختصار الروايات، ذلك أن المصادر الحديثية والتاريخية والمغازي والسير وكتب السيرة القديمة ونهجت بعض الكتب المعاصرة منهجاً تاريخياً يعتمد الرواية وكان نهجها نهجاً تاريخياً سردياً للأحداث دون ذكر الروايات والأسانيد؛ ككتاب نور اليقين للخضري، وحياة محمد لمحمد حسين هيكل

---

[٣٦] انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٧١

وغيرها.

وأما سائر الكتب الأخرى المعاصرة فقد نهجت منهجاً تحليلياً باقتطاف الأحداث من كتب السيرة السابقة وإخضاعها للشرح والتحليل، وأخذ الدروس والعبر المستفادة منها، إما على شكل كتب سيرة نبوية منسقة الأحداث وحسب الزمن من ولادته عليه الصلاة والسلام إلى وفاته مروراً بمبعثه ودعوته في مكة إلى هجرته وغزواته؛ من هذه الكتب: كتاب فقه السيرة لمحمد الغزالي، والرحيق المختوم للمباركفوري، وفقه السيرة لمحمد سعيد رمضان البوطي، وكتاب النبيين للشيخ محمد أبو زهرة، وفي ظلال السيرة النبوية لمحمد أبو فارس، ودراسة في السيرة النبوية لعماد الدين خليل، ولا تكاد جامعة تدرس الشريعة الإسلامية إلا ويؤلف بعض أساتذتها كتباً في السيرة التحليلية وهذا الكتاب الذي بين أيدينا شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي هو من هذا النوع من الكتابات.

وإما بكتابة أدبية فنية مثل كتاب على هامش السيرة لطه حسين وكتاب نظمي لوقا

.

المبحث السابع
الرسالة الخالدة والرسول القدوة

لكل أمة من الأمم شخصية أو شخصيات قومية تعتز بها، وتفخر بأمجادها، وإذا ما رجعنا إلى هذه البشرية، فإننا نجدها تنتمي جميعها إلى أب واحد، هو آدم عليه السلام، ثم توالت شخصيات من بنيه في أقوامهم، وكانت مفاخر هذه الشخصيات تتوزع بين نوعين من البشر:

أولهما: أنبياء ورسل؛ يختارهم الله تعالى ويصطفيهم، لتوجيه البشر إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وثانيهما: زعماء مصلحون؛ إما على طريق الأنبياء، وإما باجتهاداتهم الشخصية، كلما بعدوا عن زمان النبوات ونور الرسالات.

وقد شاءت حكمة الله سبحانه أن يقوم الإنسان في هذه الأرض بدور الخلافة فيها، وحمل الأمانة؛ أمانة الهداية لأهلها، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب٧٢).

ولإتمام هذه الغاية من الوجود الإنساني على وجه الأرض، فقد تكفلت رحمة الله سبحانه أن يبعث للأقوام أنبياء ورسلاً، يبلغونهم دين الله عز وجل، ويبشرونهم، وينذرونهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر٢٤). وكانت تبرز في شخصية كلٍّ من أولئك الأنبياء والرسل جوانب القدوة لاتباعهم، في عبادتهم لله عز وجل، بل هي واقعية العقيدة والإيمان، إذ بدونها تبقى قضايا الإيمان مجرد نظريات.

وقد كان هؤلاء الأنبياء جميعاً -عليهم السلام- على خلق عظيم، كما أوتوا من حميد الخصال، ومحاسن الصفات ما لم يؤت غيرهم مثله. وقد شاءت حكمة الله سبحانه أن تكون دعواتهم الخاصة لأقوامهم، وأن يختم أمر الديانات جميعا في دين

عام خالد، ودعوة خاتمة تستغرق في بعدها الأفقي قطاع الإنسان، في الأرض كلـها، وتتجاوز في بعدها الزمني حدود جيل الرسـول، ليسـتغرق كـل الأجيـال عـبر كـل الأزمنة إلى قيام الساعة، وهذا الدين هو الإسلام.

أثر طبيعة الرسالة على شخصية الرسول:

ومما لا شك فيه ، بل إن من الحكمة أن تنعكس طبيعة كل دين علـى شخصـية الرسول الداعية لهذا الدين؛ فالـديانات السـابقة للإسـلام كانـت ديانـات خاصـة، لأقوام مخصوصين، وانعكست هذه الخصوصية علـى شخصـيات رسـلها وأنبيائهـا عليهم الصلاة والسلام؛ فلم تبرز في شخصياتهم كل جوانب الاقتداء، فضـلاً عـن أن الله سبحانه لم يكتب العموم والخلود لسـيرهم الشخصـية. ولـيس هـذا عيبـاً في شخصياتهم، إذ اقتصرت مهمـتهم علـى أجيـالهم وأتبـاعهم ولم تحفـظ سـيرهم ولم نعرف فيها كل تفاصيل حياتهم، وإن عرف شيء من تلـك التفاصـيل فقـد عرفـت أبرز ملامح شخصية رسول عن آخر، فلم يسجل لنا التاريخ كل شيء عن حيـاتهم وإن سجل لنا القرآن شيئاً عنهم فإنما اقتصر علـى إبـراز جوانـب معينـة قصـد بهـا العبرة والعظمة.

فقد برز مثلاً في شخصية إبراهيم عليه الصلاة والسلام جانب العناية بالتوحيـد والتضحية، وعرف عن نوح عليه السلام الحماسة في تبليـغ ديـن الله، وعـرف عـن إسماعيل عليه السلام الإيثار، وعن موسى عليه السلام الجهاد، وعن يـونس عليـه السلام الإنابة، وعن يعقوب عليه السلام التسليم والرضا بقضاء الله. ولقـد كـانوا جميعاً عليهم الصلاة والسلام شهداء ودعاة ومبشرين ومنـذرين، وإن غلبـت صـفة على أخرى في شخصية أحدهم دون الآخر[٣٧].

والرسالة العامة الخالدة، لا بـد وأن تـنعكس طبيعتهـا كـذلك، علـى شخصـية

---

[٣٧] انظر هذه المعاني في سليمان الندوي، الرسالة المحمدية، ص ٣٥-٣٦

رسولها محمد ﷺ. وفعلاً لقد هيأ الله عز وجل هذه الشخصية ورعاها بحيث توافرت فيها كل مقومات القدوة. ولقد عاش رسول الله ﷺ حياة مليئة بالأحداث، بل بكل حدث تتصل به حياة أي إنسان على وجه الأرض إلى قيام الساعة، لتتوافر القدوة في كل أمر من أمور الحياة، وفي العبادة لكل عابد لله سبحانه.

وعلى هذا فإنه لا يخطر ببال إنسان على وجه الأرض عمل إلا وجد له في حياة الرسول ﷺ وأقواله موقفاً وحكماً وهدياً؛ فقد عاش عليه الصلاة والسلام حياة مليئة بالمواقف الفكرية والعلمية الشاملة، قدوة رائعة لكل إنسان.

فقد مارس القيادة الرائدة الناصحة الراعية لأمته، رئيس دولة، وقائداً عسكرياً في الميدان، ورئيس مجلس شورى، ومجاهداً مقاتلاً في سبيل الله.

كما مارس دور الزوج الصالح والأب الحاني، والأخ الوفي، والمربي الفاضل، والتلميذ المؤدب بين يدي الوحي، إلى غير ذلك مما تزخر به سيرته عليه الصلاة والسلام.

وبهذا فقد اجتمعت في شخصيته عليه الصلاة والسلام كل ميزات الأنبياء والمرسلين في أوضح صورها، دون أن تغلب صورة على أخرى، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ (الأحزاب ٤٥-٤٦).

موقع محمد ﷺ في ديننا:

وبهذا يظهر أن شخصية محمد ﷺ، ليست شخصية قومية، ولا مِلك مجموعة محدودة من البشر، ولا مِلك جيل من الأجيال، وإنما هي شخصية عامة للبشرية كلها، ربانية الخَلْق والخُلق، إنسانية الهدف، ربانية الاصطفاء والاجتباء، إنسانية القدوة والتوجيه. وهي بالنسبة للمؤمنين بالله وبرسالته عليه الصلاة والسلام؛ الإيمان بها شطر الركن الأول من أركان الإيمان والإسلام، لا تقبل شهادة أن لا إله إلا الله من أحد إلا إذا اقترنت بها شهادة أن محمداً رسول الله.

أما وقد تبينا موقع شخصية محمد ﷺ في نطاقها الإنساني العام وفي نطاقها الإيماني، المتمثل في علاقة المسلم بها، وجب علينا أن ندرس ونتفهم أبعاد سيرته عليه الصلاة والسلام، ونتفحص تفاصيل حياته كلها. فإنها دين بل هي التطبيق النموذجي لهذا الدين، وهي نَفَس الحياة، ونبض الإيمان، وروح الوجود لهذه الأمة، مما يدفعنا لأن ندرس هذه السيرة العطرة لا في صورة تاريخية سردية ، ولا في صورة فقهية تعرض قوالب نظرية من الأحكام الفقهية. وإنما لتدرس في صورة حركة داعية، نابضة بالحياة تستغرق أعماق النفس وشعابها، مما يحقق الإيمان أولاً بالله سبحانه وتوحيده علماً وعملاً، وبما يحقق الولاء لله والطاعة لله ولرسوله، وبما يحقق الانتماء للأمة المسلمة لتعود لهذه الأمة شخصيتها يوم أن تستجلي شخصية رسولها في حياتها وتخطيطها، فترسم دورها الإنساني من دوره عليه الصلاة والسلام كما في قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة١٤٣). وكما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج٧٧-٧٨).

المبحث الثامن
حكمة الاختيار: الله أعلم حيث يجعل رسالته

نعم، الله أعلم حيث يجعل رسالته زماناً، والله أعلم حيث يجعل رسالته مكاناً، والله أعلم حيث يجعل رسالته شعباً ولغة، والله أعلم حيث يجعل رسالته شخصاً، في محمد ﷺ نقاءً وطهراً وسلامة فطرة وشرف نسب.

لقد كانت الأوضاع العالمية، قبيل مبعثه عليه الصلاة والسلام، في غاية السوء الفكري والعقدي، والسياسي والاجتماعي ، والاقتصادي والخلقي، وكان قد مضى على المسيح عليه الصلاة والسلام ما يقارب ستة قرون. بحيث ضاع التوحيد، وأساء بنو إسرائيل إلى الحق ، وخانوا عهدهم مع الله عز وجل، مما مهد أن يُحوّل الله سبحانه القيادة الدينية من نسل إسحق بن إبراهيم عليهما السلام، إلى العرب نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. ولهذا شاءت حكمته سبحانه أن يختم الديانات جميعاً بأن يختار محمداً ﷺ من العرب، كما اختار الله مكة مهبطاً للوحدانية إذ أن أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله كان في مكة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران٩٦)، وإن آخر نبي أرسل لدعوة الناس جميعاً لعبادة الله وحده كان من مكة.

نعم، لقد اختار الله مكة البلد الحرام وسط العالم، وكان لهذه المدينة الحية في أعماق الصحراء وبين الجبال مكانة دينية وتجارية وأدبية مرموقة؛ فهي محط رحال التجار، وملتقى الأدباء، ومنتدى الفكر، كما أنها مهبط الأفئدة للعرب جميعاً منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام. وكل هذه الظروف مناسبة لأن تتفجر منها دعوة الله عز وجل دعوة تحرر البشرية كلها ابتداء من العرب من عبادة غير الله، ومن طغيان الطواغيت وشهوات البشر وظلمات الجاهلية لتخرجهم إلى نور الفطرة، وحرية الإنسان في اختيار عقيدته، لتلتقي أنوار التوحيد مع أنوار الفطرة، حيث يعود هذا لربه سبحانه يؤمن به وحده لا شريك له كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف٥٤). وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم٣٠).

ولا شك أن مثل هذا الملتقى التجاري والفكري والأدبي الهادئ، يساعد كثيراً على تناقل أخبار هذه الدعوة وانتشارها، سيما إذا ارتبط في أذهان القادمين عليها- حجّاجا وعُماراً-أن هذه الدعوة الجديدة إنما هي دعوة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما أجداد العرب، وأنها تجديد لدعوتها، وخاتمة لكل دعوات التوحيد.

ولقد شاءت حكمته سبحانه أن يساعد هذا الموقع الهام لمكة على شبه توحيد للغات العرب ولهجاتهم في أفصح لهجة للعرب، لهجة قريش التي نزل بها القرآن الكريم. نعم؛ ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام١٢٤).

أما زمان مبعث هذه الدعوة فلقد جاءت على فترة وانقطاع من الرسل، وكانت البشرية متعطشة إلى دعوة منقذة؛ نظراً لما كانت تتقاذفها أهواء البشر وتسلط المتاجرين باسم الدين. ولا أصدق في تصوير هذا الوضع الديني آنذاك من قوله ﷺ:"...وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب"[٣٨].

لقد كانت البشرية تعيش بين ظلم الدولتين العُظميين الروم والفرس، وكانت الحروب بينهما تطحن مصائر الرجال، ومصالح الناس، وسائر البلاد والقبائل تحافظ على مصالحها بالانتماء لأحد هذين المعسكرين، إلا ما كان من قلب الجزيرة العربية؛ إذ كان الشعب فيها غفلاً من التبعية لأحد، وإنما كانت تربطهم أواصر العشيرة والقبيلة والمواضعات الاجتماعية على سلوك عام ومروءة وشهامة وكرم وحفظ جوار، وإن كانت بعض هذه الخصال الطيبة تصل إلى حد الإسراف، إسرافاً

---

(٣٨) من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه.انظر صحيح مسلم بشرح النووي المطبعة المصرية القاهرة ج١٧ ص١٩٧.

يخرجها إلى ضدها. وعلى العموم لقد كانت هذه المنطقة تتميز بالصفاء الفكري، وسلامة الذوق الفطري دونما تعقيد فلسفي؛ خلافا لكل الشعوب الأخرى الرومانية والفارسية التي كانت قد أصيبت بالالتواءات الفكرية والعقدية بسبب الفلسفات اليونانية، وتحكم الوثنية العقلية في حياتهم، فهيأ الله هذه المنطقة وأهلها لتلقي العقيدة الصافية، وليكون صفاؤها الذهني وبعدها عن التعقيد الفلسفي والخلافات الدينية طريقاً لقبول الرسالة الجديدة، نعم؛ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام١٢٤).

ثم لو أن هذه الدعوات ظهرت في بلاد فارس لحاربها الرومان على أنها دين فارسي، ولو ظهرت في بلاد الروم لحاربها الفرس على أنها دين روماني، أو لقضي عليها في المهد؛ لأن سياسة الحرب لا تسمح بإثارة فكر بديل عن الواقع السياسي الذي تعيشه كلتا الدولتين؛ بل وتحاربان من أجله. بينما تمتعت هذه الدعوة في فترة الحضانة الأولى ومراحل التكوين الضرورية بنوع من الهدوء والبعد عن الصراع الدموي مع النظم قبل أن تتمكن من قلوب حامليها ودعاتها؛ فشاءت حكمة الله عز وجل أن يحتضن قلب الجزيرة العربية هذه الدعوة-رغم اضطهاد المشركين لها- في ظل أجواء عالمية كانت تمهد لإنهاك الدولتين الكبيرتين فيأتي البديل العقيدي الصالح، والبديل السياسي والنظامي الصحيح، بل وتأتي الدعوة الإسلامية برسالتها العالمية وبدولتها المباركة وحضارتها الربانية الموحدة بديلاً عن حضارتين وثنيتين- حضارتي فارس والروم- تشع أنوار الهداية في الكون نعم؛ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام١٢٤).

والله أعلم حيث يجعل رسالته شخصاً، في محمد بن عبد الله ﷺ، الذي هو في الذروة العليا من أصلاب عالية في مستواها، حتى يصل إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، والرسول ﷺ يشير إلى هذه الحكمة في الاصطفاء لشخصه من هذا

المحتد النبيل حيث يقول: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم"[٣٩].كما صح عنه قوله عليه الصلاة والسلام:"بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه"[٤٠].

---

(٣٩) صحيح مسلم بشرح النووي٥/١٦

(٤٠) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٦/٥٦٦





الفصل الثاني

السيرة الشخصية من الولادة إلى البعثة

المبحث الأول
مولده عليه الصلاة والسلام ونسبه ونشأته

أولاً: مولده ﷺ:

ولد محمد بن عبد الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل سنة ٥٧٠-٥٧١ ميلادية لأبوين قرشيين عريقي النسب[٤١]. وخرج إبراهيم العلي أحاديث مولده عليه الصلاة والسلام[٤٢] كما يأتي:

قال خليفة بن خياط: والمجمع عليه أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل[٤٣]؛ من حديث قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رضي الله عنه قال:"ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل، فنحن لِدّان، ولدنا مولداً واحداً"[٤٤].

ومن حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه عن صوم يوم الاثنين قال رسول الله ﷺ: "ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت أو أنزل عليّ فيه"[٤٥].

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: " ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين"[٤٦].

---

(٤١) ابن هشام، السيرة النبوية (مطبوعة مع كتاب الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية للسهيلي)، تعليق طه عبد الرؤوف سعد طبعة الحاج عبد السلام شقرون، القاهرة سنة ١٩٧٢.ج١ص١٨١.

(٤٢) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٣٦-٣٧

(٤٣) السيرة النبوية لابن كثير ، ١/ ٢٠٣

(٤٤) أحمد، ٤/ ٢١٥، والترمذي في المناقب ، باب ما جاء في ميلاد النبي ﷺ بزيادة، ٣٦١٩ وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحق، وقد صرح بالتحديث، فانتفت الشبهة في التدليس، قلت: وبذلك يصح الحديث.

(٤٥) مسلم، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، ١١٦٢ وأبو داود في الصيام، باب في صوم الدهر تطوعاً رقم، ٢٤٢٦.

(٤٦) أخرجه أحمد، ١/ ٢٧٧، والطبراني في الكبير، ١٢٩٨٤ من طريق ابن لهيعة، عن خالد بن أبي

ومن حديث ابن عباس وجابر رضي الله عنهم أنهما قالا: " ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، وفيه عرج به إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات". وهذا المشهور عند الجمهور والله أعلم[٤٧].

ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: " ولد رسول الله ﷺ عام الفيل"[٤٨].

ثانياً: نسبه عليه الصلاة والسلام:

ونسبه عليه الصلاة والسلام كان في ذروة الأنساب، عبر تاريخ حياة الإنسان، ونسبه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: اتفق على صحته وثبوته المحدثون وعلماء السير والأنساب، وهو الثابت في صحيح البخاري في قوله رحمه الله: **" هو أبو القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان"**[٤٩].

وعلق ابن القيم فقال: "إلى هنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا

عمران، عن حنش الصنعاني به، ومن الرواة عن ابن لهيعة عمرو بن خالد عند الطبراني، وقد سمع من ابن لهيعة قبل اختلاطه، فالحديث بهذا حسن، وله شواهد، انظر ما بعده، ٢٠. وقال الهيثمي في المجمع، ١/ ١٩٦، وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات من أهل الصحيح.

[٤٧] ابن أبي شيبة في مصنفه، وإسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح، انظر السيرة النبوية لابن كثير، ١/ ١٩٩.

[٤٨] رواه الطبراني في الكبير، ١٢٤٣٢، والبيهقي في دلائل النبوة، ١/ ١٠، والبزار كما في كشف الأستار، ١/ ١٢١، حديث ، ٢٢٦ عن طريق يونس بن أبي إسحق، عن أبيه، عن سعيد بن جبير به. وقال الهيثمي في المجمع، ١/ ١٩٦، رواه البزار والطبراني في الكبير ورجاله موثوقون.

[٤٩] البخاري في كتابه مناقب الأنصار، باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧/ ١٦٢.

خلاف فيه ألبتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل الذبيح"[٥٠]. وقال البغوي في شرح السنة : "ولا يصح النسب فوق عدنان، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام"[٥١].

وهذا هو القسم الثاني من بعد عدنان إلى إسماعيل، وهو الوارد بتفاصيله في رواية الكلبي في ابن سعد[٥٢].

والقسم الثالث من إبراهيم عليه السلام إلى آدم عليه السلام فالروايات فيه كثيرة ومختلفة ولا يمكن اعتماد شيء منها[٥٣].

وقد خرج إبراهيم العلي أحاديث نسبه ﷺ على النحو التالي[٥٤]:

قال الإمام البخاري رحمه الله: " هو أبو القاسم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان"[٥٥]، وقال البغوي في شرح السنة بعد ذكر النسب إلى عدنان: "ولا يصح النسب فوق عدنان"[٥٦]. وقال ابن القيم: بعد ذكر النسب إلى عدنان أيضاً: " إلى ها هنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف البتة،

---

(٥٠) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق عرفان العشا، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨ ، ١/ ٣٢

(٥١) البغوي، شرح السنة، ١٣/ ١٩٣.

(٥٢) يقول المباركفوري: إن هذا الجزء من النسب جمعه العلامة محمد سليمان المنصور بعد تحقيق دقيق في كتابه رحمة للعالمين٢/ ١٤-١٧ وفيه اختلاف بين المصادر.انظر الرحيق المختوم ص٥٥.

(٥٣) انظر المرجع السابق ص ٥٦

(٥٤) توثيق إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ط١، دار النفائس، عمان، ١٩٩٥، ص٢٠-٢١

(٥٥) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ فتح الباري، ٧/ ١٦٢، رقم٣٨٥١، شرح السنة، ١٣/ ١٩٣، الذهبي في السيرة النبوية، ص١

(٥٦) شرح السنة، ١٣/ ١٩٣

وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أنّ عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام"[٥٧]. وقد جاء عن ابن سعد في طبقاته: "الأمر عندنا الإمساك عما وراء عدنان إلى إسماعيل"[٥٨]، وعن عروة بن الزبير أنه قال: "ما وجدنا من يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصاً"[٥٩]، قال الذهبي رحمه الله في كتابه السيرة النبوية: "وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بإجماع الناس، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء"[٦٠].

وهكذا فإن نسبه ﷺ قد كان في خير العرب قبيلة، وأشرفهم أرومة، كما جاء في الصحيح من حديثه عليه الصلاة والسلام؛ فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: "إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[٦١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه"[٦٢].

وعن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قال: أتى أناس من

---

(٥٧) زاد المعاد، ١/ ٧١

(٥٨) ابن سعد، ١/ ٥٨.

(٥٩) ابن سعد، ١/ ٥٨.

(٦٠) الذهبي في السيرة النبوية، ص١.

(٦١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٧٧٦، شرح السنة، ١٣/ ٣٦، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ، رقم ٣٦٠٦ وقال حسن صحيح، انظر الفتح الرباني، ٢٠/ ١٧٩، وانظر أحمد في المسند، ٤/ ١٠٧، والخطيب في تاريخ بغداد، ١٣/ ٦٤.

(٦٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم رقم، ٣٥٥٧، وأحمد في المسند، ٥/ ٣٧٣، ٤١٧ وابن سعد، ١/ ٢٥

الأنصار إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا لنسمع من قومك حتى يقول القائل منهم إنما مثل محمد مثل نخلة نبتت في كباء[٦٣] ، فقال رسول الله ﷺ: "أيها الناس من أنا؟ قالوا أنت رسول الله ﷺ. قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب- قال فما سمعناه، قط ينتمي قبلها – إلا أن الله عز وجل خلق خلقه، فجعلني من خير خلقه، ثم فرقهم فرقتين، فجعلني من خير الفرقتين، ثم جعلهم قبائل، فجعلني من خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً، فجعلني من خيرهم بيتاً، وأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً"[٦٤].

وعن الأشعث بن قيس رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في وفد، ولا يروني إلا أفضلهم، فقلت: يا رسول الله! ألستم منا؟ فقال: "نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفوا أمّنا، ولا ننتفي من أبينا" فكان الأشعث يقول: لا أوتى برجل نفى قريشاً من النضر بن كنانة إلا جلدته الحد[٦٥] .

ومن حديث أبي سفيان رضي الله عنه حين سأله هرقل وقال له: كيف نسبه فيكم، قلت: هو فينا ذو نسب. وقول هرقل: وسألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم

---

(٦٣) الكباء: الكناسة.

(٦٤) أخرجه الترمذي في أبواب المناقب، باب ما جاء في فضل النبي رقم ٣٦٠٧-٣٦٠٨ ، وأحمد في المسند، ٤/ ١٦٦، من طريق عبد الله بن الحارث بن نوفل به، وقال الهيثمي في المجمع، ٨/ ٢١٥-٢١٦، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. والحديث صحيح.

(٦٥) أخرجه ابن ماجه في الحدود، باب من نفى رجلاً من قبيلة، ٢٦١٢، وأحمد في المسند، ٥/ ٢١١-٢١٢ من طريق حماد بن سلمة، عن عقيل بن طلحة السلمي، عن مسلم بن هيضم، عن الأشعث ابن قيس به، وقال البوصيري في الزوائد، إسناد صحيح، رجاله ثقات، لأن عقيل بن طلحة وثقه ابن معين والنسائي، وذكره ابن حبان في الثقات، وباقي رجال السند على شرط مسلم. قلت ، وفي السند قوله، (لا يرون أني أفضلهم) من غير إلا وفيه تصحيف، والعبارة الصحيحة ما أثبتناه. لا نقفوا أمنا : أي لا نتهمها ، ولا نقذفها..

ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها[٦٦].

وأما أمّه فهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فهي أقرب نسباً إلى كلاب من زوجها عبد الله برجل واحد[٦٧].

وتوفي أبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وهو جنين في بطن أمه آمنة بنت وهب. وتذكر الروايات التاريخية الصحيحة أن عبد الله هذا كان أصغر أولاد عبد المطلب، وكان قد سبق لعبد المطلب أن نذر أنه إذا عاش له عشرة من الذكور ليذبحن أحدهم قربة لله تعالى-كما في اعتقاده الجاهلي- ، وجاء يوفي نذره فعمل قرعة فخرج السهم على عبد الله أصغر أولاده وأحبهم إلى قلبه، فقرر أن يذبحه، وحال دون ذلك أولاده وأقاربه وعموم أهل مكة وانتهوا إلى فديته بمائة من الإبل[٦٨]. ونجد في هذا سراً عجيباً ، وهو أن الله سبحانه قد أنقذ عبد الله هذا من الذبح ليُخرج من صلبه محمداً ﷺ.

وما إن ولدت آمنة طفلها حتى دعت جده عبد المطلب، فسُرَّ لولادته وسماه محمداً على غير عادة العرب في الأسماء.

---

(٦٦) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، حديث رقم٧.

(٦٧) انظر الذهبي، السيرة النبوية ص ٥

(٦٨) انظر القصة في ابن كثير ، البداية والنهاية ط٢ مكتبة المعارف بيروت سنة ١٩٧٧، ج٢، ص٢٤٨-٢٤٩.كما روى القصة الطبري في التاريخ ص٢٣٩-٢٤٠ بإسناد صحيح رجاله ثقات وابن أبي شيبة عن ابن عباس رضي الله عنه في المصنف٤/ ١/ ٥٥ بإسناد صحيح ومالك في الموطأ ٢/ ٤٧٦ عن ابن عباس، انظر التوثيق للروايات في السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري ١/ ٩٢-٩٣

ثالثاً: رضاعته ﷺ:

ثم جاءت نساء من البادية إلى مكة في طلب إرضاع أولاد المدن في البادية نظير العطاء، ومرت حليمة السعدية على آمنة، فلما عرفت وزميلاتها أنه طفل يتيم، وأن لا مغنم من إرضاعه زهدن في رضاعته. وشاء الله تعالى أن لا ينتهي يوم حليمة ذاك بطفل ترضعه، مما اضطرها لأن تأخذ محمداً ليكون رضيعها. ولقد شهدت حليمة وزوجها بركة إرضاع هذا الطفل في ماشيتها وضرعها بعد جفاف، مما زاد تمسكها به وطلبت بإلحاح من أمه بعد مرور سنتين من إرضاعه أن تعيده معها إلى البادية زيادة في تربيته وتنشئته على الفصاحة.

وفي الحديث الصحيح، أنه وهو في سن الثالثة من عمره حصلت له في ديار حليمة حادثة شق الصدر، كما يروى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ: "أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه- يعني ظئره(أي مرضعته)- فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون"[٦٩]. فروعت هذه القصة حليمة وزوجها فأعاداه إلى أمه.ومن الجدير بالذكر أن من أمهات النبي ﷺ بالرضاعة ثويبة- مولاة أبي لهب- وأنها أرضعت أيضاً عمه حمزة[٧٠]. ولذلك كان عمه حمزة رضي الله عنه أخاً رضاعياً له عليه الصلاة والسلام.

---

[٦٩] صحيح مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ رقم ٢٦١ وانظر تفاصيل قصة رضاعته من حديث عبد الله بن جعفر في ابن حبان والطبراني في الكبير والبيهقي في الدلائل وغيرها وانظر صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي ص ٣٨-٣٩.

[٧٠] صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ٩/ ١٤٠٢ ، ١٤٣٠ وانظر صحيح مسلم بشرح النووي، ١٠/ ٢٣ ، ٢٤

تحليل:

هذه فترة من حياته ﷺ، في السنوات الأولى من عمره. وهو كما نرى ينتمي إلى نسب شريف، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يهيئ رسوله ﷺ لحمل أشرف رسالة على وجه الأرض. ورسالة هذه طبيعتها ومهمتها يناسبها أن يحملها من لا مقالة في نسبه، ذلك أن هذا المجتمع القبلي الذي يتفاخر بالأنساب لو كان رسول هذه الدعوة من قبيلة مغمورة، ومن نسب وضيع لكان ذلك عائقاً في طريق دعوته.

كما أن هذا النسب الشريف كان ضرورياً؛ ذلك أن رسول الله ﷺ يحمل دعوة رافضة لكل العقائد الزائفة، والأوضاع الجاهلية المستفيدة من التحكم في الناس، فلو كان من نسب وضيع لآذاه أصحاب الجاه والمال والسلطان ، ولكن عراقة النسب وشرف المحتد، وقوة السند الاجتماعي حالت دون تصفيته، ومنعت من أن تتطاول إليه أيدي البغي والعدوان. ولقد سبق أن تمنى لوط عليه السلام مثل هذا الوضع الاجتماعي القوي حينما آذاه قومه فقال كما في الآية: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود٨٠).

ولقد أشار النبي ﷺ إلى تمني لوط لهذه القوة فقال عليه الصلاة والسلام:"يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد"[٧١]، ولقد بين رسول الله ﷺ قيمة هذا النسب، وأنه ابن نكاح وليس ابن سفاح[٧٢]،وأنه من أسرة زكية المعدن، شريفة النسب ، فقد ثبت في صحيح مسلم قوله ﷺ:"إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم"[٧٣].

---

(٧١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢ ص١٨٣.

(٧٢) ذكر ابن كثير مجموعة طرق وشواهد لحديث"خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح"بعضها ضعيف وبعضها مرسل جيد وبعضها موصوله" انظر البدايةج٢ ص ٢٥٥-٢٥٦..

(٧٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ ص٣٦ وانظر الترمذي ، الجامع الصحيح، تحقيق إبراهيم

ومن الموافقات الجميلة لأقدار الله كذلك أن يلهم عبد المطلب تسميته محمداً إذ لما سئل عن هذه التسمية ولم رغب عن أسماء آبائه قال:"أردت أن يحمده الله في السماء وأن يحمده الخلق في الأرض"(٧٤).

أما تدفق الخير والبركة على بيت حليمة وزوجها، بعد أيام الجفاف والضر والعسر، فيوحي أن مجاعة العالم كله وجفاف الروح الإنسانية إنما كانت تنتظر مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه كلما اشتدت أزمات الأمة واستحكم فيها الجفاف الروحي ببعدها عن الله فهي بحاجة إلى منهج رسول الله ﷺ وبركة سيرته.

رابعاً: حادثة شق الصدر:

أما حادثة الشق لصدره ﷺ، فكانت إرهاصاً ومقدمة من مقدمات النبوة. وهي وإن كانت لا تخضع لمنطق التجريب ولا تدخل في ميادين التشريح(٧٥)، وعلم النفس، فإنما تخضع لمنطق الإيمان الذي يتعامل مع قدرة الله على كل شيء. وهي ذات ارتباط- والله أعلم- بعملية الإعداد الخاص لتلقي الوحي، وتحمل نزول القرآن وإجراء المعجزات على يديه مما ليس في مقدور سائر البشر، إذ قد تكررت هذه الحادثة مرة أخرى والرسول ﷺ في سن الخمسين. فقد ثبت في صحيح البخاري ومسلم من حديث مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ حدثهم ليلة أسري به قال: "بينما أنا في الحطيم- وربما قال في الحجر-، في مضطجع بين النائم واليقظان أتاني آت فشق ما بين هذه إلى هذه، قال فاستخرج قلبي ثم أوتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد"(٧٦).

عطوة عوض.ط١ مصطفى الحلبي القاهرة سنة ١٩٦٥ج٥ رقم ٣٦٠٥ ص ٥٨٣.

(٧٤) السهيلي، الروض الأنف.ج١ ص١٨٢

(٧٥) د.عماد الدين خليل، دراسة في السيرة النبوية، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٤ ص٥٢.

(٧٦) أخرجه البخاري في صحيحه، انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٠هـ ج٧، رقم٣٨٨٧، ص٢٠١، وانظر نفس المعنى في صحيح مسلم

المبحث الثاني
من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام بين يدي مولده:

وثمة بعض الروايات تذكر أنه ليلة ميلاده عليه الصلاة والسلام حصلت مفاجآت في الكون، إذ ظهر نور في السماء لم يعرف الناس سببه، وانطفأت نار المجوس التي كانوا يعبدونها، وانهدم إيوان كسرى، ،ففي الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه قال:" قلت يا نبي الله ما كان أو بدء أمرك؟" قال:"دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي نوراً أضاءت منه قصور الشام"[٧٧]. وفي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم"[٧٨].

بشرح النووي ج٢ ص٢١٧.

(٧٧) أخرجه أحمد في المسند:٥/ ٢٦٢. والطبراني في المعجم الكبير، ٧٧٢٩.والبيهقي في دلائل النبوة، ١/ ٨٤ وابن سعد في الطبقات، ١/ ١٠٢ من طريق فرج بن فضالة، عن لقمان بن عامر، عن أبي أمامة. وقال الهيثمي في المجمع، ٨/ ٢٢٢ وإسناد أحمد حسن، وله شواهد تقويه. قلت ومن هذه الشواهد الحديث الذي يليه عن العرباض بن ساريه رقم، ١٢، وحديث عتبة بن عبد السلمي برقم، ٢٤ ومن حديث خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ، فذكر شبيهاً بهذا بزيادة، أخرجه الحاكم، ٢/ ٦٠٠، والبيهقي في الدلائل، ١/ ٨٤، وقال الحاكم، صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في البداية، ٢/ ٢٥٦ صرح ابن اسحاق بالتحديث فيها، وهذا إسناد جيد قوي. قلت، فالحديث حسن لشواهده "كما يرى إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص ٢٥".

(٧٨) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٧ ، ١٢٨، والطبراني في الكبير ١٨/ ٢٥٢ والبيهقي في الدلائل، ١/ ٨٠، والبزار كما في كشف الأستار، ٣/ ١١٢-١١٣. حديث ٢٣٦٥ من طريق سعيد بن سويد، عن عبد الأعلى بن هلال، عن العرباض به. وأخرجه الحاكم، ٢/ ٦٠٠ من طريق سعيد بن سويد وعند رجل ضعيف هو ابن أبي مريم. وقال الهيثمي في المجمع، ٨/ ٢٢٣ رواه أحمد، والطبراني نحوه، والبزار وأحد إسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد ، ووثقه ابن حبان.

وقد خرج إبراهيم العلي أحاديث البشارة بالرسول ﷺ على النحو الآتي:[79]:

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقلت:" أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً"[80].

ومن حديث كعب الأحبار قال:" إني أجد في التوراة مكتوباً: محمد رسول الله ، لا فظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون، يحمدون الله في كل منزلة، ويكبرونه على كل نجد، يأتزرون إلى أنصافهم، ويوضئون أطرافهم، صفّهم في الصلاة، وصفهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جو السماء، لهم في جوف الليل دويّ كدويّ النحل، مولده بمكة، ومهاجره بطابة، وملكه بالشام"[81].

وللحديث شواهد انظرها في الحديث الذي قبله ، ومن حديث ميسرة، أخرجه أحمد، ٥/ ٩٥ والحاكم٢/ ٦٠٨-٦٠٩ والبيهقي في الدلائل، ١/ ٨٤-٨٥، انظر توثيق ابراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص ٢٥

[79] إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص٢٢-٢٥

[80] أخرجه البخاري في كتاب البيوع في الأسواق، ٢١٢٥، وفي التفسير حديث ، ٤٨٣٨، وأخرجه أيضاً في كتاب الأدب المفرد حديث ، ٢٤٦، ٢٤٧، والبيهقي في دلائل النبوة ، ١/ ٣٧٤-٣٧٥، من طريق هلال بن علي، عن عطاء بن يسار.

حرزاً للأميين: حافظاً لهم، والصخاب: رفع الصوت بالخصام. حتى يقيم به الملة العوجاء: ملة إبراهيم التي غيرتها العرب عن استقامتها.

[81] أخرجه الدرامي في المقدمة:١/ ٤-٥ من طريق الأعمش عن أبي صالح قال: قال كعب: ورجاله ثقات، وجاء في دلائل النبوة للبيهقي، ١/ ٣٧٧، عن أم الدرداء قالت، قلت لكعب الأحبار-

ومن حديث سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه، وكان من أصحاب بدر قال:"كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير، فوقف على مجلس عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً، عليّ بردة مضطجعاً فيها بفناء أهلي، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت. فقالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائناً أنّ الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، ويجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يحلف به، ولَوَدَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه، ثم يدخلونه إياه، فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك، وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إليّ- وأنا من أحدثهم سناً- فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار، حتى بعث الله تعالى رسوله ﷺ وهو حيّ بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر به بغياً وحسداً، فقلنا: ويلك يا فلان، ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال :بلى: وليس به"[82].

وذكر شبيهاً بهذا البيهقي وقد جاء عند الدارمي، ١/ ٦، من طريق معاوية بن صالح عن أبي فروة، عن ابن عباس ، أنه سأل كعب الأحبار

[82] أخرجه ابن هشام في السيرة، ١/ ٢١٢ من طريق ابن إسحق، قال :حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد، عن سلمه به، فصرح ابن إسحق بالتحديث فانتفت سبهة التدليس. ومن طرق ابن إسحق أخرجه أحمد في المسند، ٣/ ٤٦٧، والطبراني في الكبير حديث، ٦٣٢٧، والبخاري في التاريخ الكبير، ٢/ ٢/ ٦٨-٦٩، وأبو نعيم في الدلائل، ١٩١، والحاكم في المستدرك، ٣/ ٤١٧-٤١٨، والبيهقي في الدلائل، ٢/ ٧٨-٧٩ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع، ٨/ ٢٣٠. رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحق، وقد صرح بالسماع. فالحديث صحيح.

يأسها من بعد انكاسها: يأسها من الاستماع في السماع، أو استراق السمع بعد بعد أن كانت قد الفته، فانقلبت عن الاستراق، وقد يئست من السماع. القلاص: جمع قلوص: وهي الفتية من

وثمة بشارات أخرى ذكرتها كتب السنة تبشر بمبعثه عليه الصلاة والسلام منها:

حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:" ما سمعت عمر بشيء قط يقول: إني لأظنه كذا، إلا كان كما يظنّ. بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل، فقال عمر: لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، عليّ الرجل، فدعي له، فقال له ذلك. فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم. قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني. قال كنت كاهنهم في الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني أعرف منها الفزع، فقالت:

ألم تر الجن وإبلاسها ويأسها من بعد إنكاسها

ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال: صدق. بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه يقول: يا جليح ، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله، فوثب القوم. قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح ، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول لا إله إلا الله. فقمت، فما نشبنا أن قيل : هذا نبي"[83].

وأيضاً فقد ورد من حديث جابر رضي الله عنه قال: " إن أول خبر علينا عن رسول الله ﷺ أن امرأة كان لها تابع قال: فأتاها في صورة طير، فوقع على جذع لهم، قال فقالت: ألا تنزل فنخبرك وتخبرنا، قال: إنه قد خرج رجل بمكة حرم علينا

النياق. جليح: الوقح المكافح بالعداوة

(83) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب إسلام عمر، 3653، ومناقب الأنصار، 3866 والبهقي في الدلائل، 2/248.وابن أبي خثيمة في تاريخه، والروياني في مسنده، كما عزاه إليهما ابن حجر في الإصابة، 2/95 ، وانظر توثيق إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص 24.

الزنا ، ومنع منا القرار"[84]

ومن تبشير النبيين به أيضاً حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال:" قلت يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال:" دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي نوراً أضاءت منه قصور الشام"[85]، وحديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإنّ آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم،وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم"[86].

---

(84) أخرجه أحمد في المسند، ٣/ ٣٥٦، عن طريق إبراهيم بن أبي العباس أبو المليح، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل به، وأبو نعيم في الدلائل، ١/ ١٠٧ حديث، ٥٦، وابن سعد في الطبقات، ١/ ١٨٩، وقال الهيثمي في المجمع، ٨/ ٢٤٣، رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجاله وثقوا. انظر إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص ٢٤.

(85) أخرج أحمد في المسند ، ٥/ ٢٦٢. والطبراني في المعجم الكبير، ٧٧٢٩، والبهقي في الدلائل، ١/ ٨٤ وابن سعد في الطبقات، ١/ ١٠٢ من طريق فرج بن فضالة، عن لقمان بن عامر، عن أبي أمامة وقال الهيثمي في المجمع:٨/ ٢٢٢ وإسناد أحمد حسن، وله شواهد تقويه. قلت: ومن هذه الشواهد الحديث الذي يليه عن العرباض بن ساريه رقم، ١٢ وحديث عتبه بن عبد السلمي برقم، ٢٤ ومن حديث خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر شبيهاً بهذا بزيادة، أخرجه الحاكم، ٢/ ٦٠٠، والبيهقي في الدلائل، ١/ ٨٤ وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير في البداية، ٢/ ٢٥٦ صرح ابن إسحاق بالتحديث فيها وهذا إسناد جيد قوي. قال الشيخ إبراهيم العلي قلت: فالحديث حسن لشواهده.انظر صحيح السيرة النبوية ص٢٥.

(86) أخرجه أحمد، ٤/ ١٢٧، ١٢٨ ، والطبراني في الكبير ١٨/ ٢٥٢، والبيهقي في الدلائل: ١/ ٨٠، والبزار كما في كشف الأستار، ٣/ ١١٢-١١٣. حديث ، ٢٣٦٥ من طريق سعيد بن سويد، عن عبد الأعلى بن هلال، عن العرباض به. وأخرجه الحاكم ، ٢/ ٦٠٠ من طريق سعيد بن سويد، وعنده رجل ضعيف هو أبن أبي مريم وقال الهيثمي في المجمع، ٨/ ٢٢٣ رواه أحمد، والطبراني نحوه، والبزار وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد، ووثقه ابن حبان وللحديث شواهد انظرها في الحديث الذي قبله ومن حديث ميسرة، أخرجه أحمد، ٥/ ٥٩ والحاكم،

قصة زيد بن عمرو بن نفيل وقصة سلمان الفارسي: ومن بشارات الكتب السماوية السابقة في التبشير بنبوته فيما خرج إبراهيم العلي من الأحاديث الواردة في ذلك قصة زيد بن عمرو وسلمان الفارسي التالية[٨٧]:

حديث ابن عمر رضي الله عنهما:" أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه[٨٨]، فلقي عالماً فسأله عن دينهم فقال: إني لعليّ أن أدين دينكم فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً، وأنّى أستطيعه؛ فهل تدلني على غيره؟ فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً، وأنّى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه الصلاة والسلام خرج، فلما برز رفع يديه، فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم"[٨٩]

وحديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت:" رأيت زيد بن عمرو ابن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول ، يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموؤودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك،

٢/٦٠٨-٦٠٩، والبيهقي في الدلائل، ١/ ٨٤-٨٥. انظر صحيح السيرة النبوية ص٢٥

(٨٧) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٢٨-٣٣

(٨٨) هكذا وردت وربما يقصد بها عن دين يتبعه

(٨٩) رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل، رقم ٣٨٢٧، فتح الباري، ٧/ ١٤٢.

وإن شئت كفيتك مؤونتها"[٩٠].

وحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: "إن النبي ﷺ لقي زيد ابن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقُدمت إلى النبي ﷺ سفرة، فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد، إني لست آكل ما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه. وإن زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله، إنكاراً لذلك وإعظاماً له"[٩١].

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: "كنت من أهل فارس من أهل أصبهان، من قرية يقال لها جَيّ، وكان أبي دِهقَان أرضه، وكان يحبني حباً شديداً لم يحبه شيئاً من ماله ولا ولده، فما زال به حبه إياي حتى حبسني في البيت كما تحبس الجارية. واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار(الذي يوقدها) ولا يتركها تخبو ساعة، فكنت كذلك لا أعلم من أمر الناس شيئاً إلا ما أنا فيه، حتى بنى أبي بنياناً له، وكانت له ضيعة فيها بعض العمل، فدعاني فقال: أي بني، إنه قد شغلني ما ترى من بنياني عن ضيعتي هذه، ولا بد لي من إطلاعها، فانطلق إليها، فأمرهم بكذا وكذا ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني شغلتني عن كل شيء. فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة النصارى، فسمعت أصواتهم فيها، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: هؤلاء النصارى يصلون. فدخلت أنظر فأعجبني ما رأيت من حالهم. فوالله ما زلت جالساً عندهم حتى غربت الشمس. وبعث أبي في طلبي في كل وجهة حتى جئته حين أمسيت ولم

---

(٩٠) رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل رقم ٣٨٢٨ فتح الباري، ٧/ ١٤٣ معلقاً، ووصله الحاكم في المستدرك، ٣/ ٤٤٠، وقال ، صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، بل أخرجاه كما سبق ذكره، وقال الحافظ: وصله جماعة ذكرهم في الفتن

(٩١) رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل، رقم ٣٨٢٦، فتح الباري، ٧/ ١٤٢.

أذهب إلى ضيعته، فقال أبي: أين كنت؟ ألم أكن قلت لك؟ فقلت: يا أبتاه مررت بناس يقال لهم النصارى، فأعجبني صلواتهم ودعاؤهم، فجلست أنظر كيف يفعلون. فقال: أي بني دينك ودين آبائك خير من دينهم. فقلت: لا والله ما هو بخير من دينهم، هؤلاء يعبدون الله ويدعونه ويصلون له، ونحن إنما نعبد ناراً نوقدها بأيدينا، إذا تركناها ماتت. فخافني، فجعل في رجليّ حديداً، وحبسني في بيت عنده، فبعثت إلى النصارى، فقلت لهم: أين أصلُ هذا الدين الذي أراكم عليه؟ فقالوا: بالشام. فقلت: فإذا قدم عليكم من هناك أناس فآذنوني، قالوا: نفعل. فقدم عليهم ناس في تجارتهم، فبعثوا إليّ أنّه قد قدم علينا تجار من تجارنا. فبعثت إليهم إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الخروج فآذنوني. فقالوا: نفعل. فلما قضوا حوائجهم وأرادوا الرحيل بعثوا إلي بذلك، فطرحت الحديد الذي في رجلي ولحقت بهم، فانطلقت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ فقالوا الأسقف صاحب الكنيسة. فجئته، فقلت له : أحببت أن أكون معك في كنيستك، وأعبد الله معك ، وأتعلم منك الخير. قال : فكن معي. قال: فكنت معه، وكان رجل سَوءٍ؛ كان يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوها إليه اكتنزها ولم يعطها المساكين. فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيت من حاله، فلم ينشب أن مات، فلما جاؤوا ليدفنوه قلت لهم: إن هذا رجل سَوء؛ كان يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، حتى إذا جمعتموها إليه اكتنزها ولم يعطها المساكين. فقالوا : وما علامة ذلك؟ فقلت: أنا أخرج لكم كنزه. فقالوا: فهاته. فأخرجت لهم سبع قلال مملوءة ذهباً وورقا. فلما رأوا ذلك قالوا: والله لا يدفن أبداً . فصلبوه على خشبة ورموه بالحِجارة، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه . فلا والله يا ابن عباس، ما رأيت رجلاً قط يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه وأشد اجتهاداً، ولا أزهد في الدنيا، ولا أدأب ليلاً ولا نهاراً منه. ما أعلمني أحببت شيئاً قط قبله حبّه. فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة. فقلت: يا فلان، قد حضرك ما ترى من أمر الله . وإني والله ما أحببت شيئاً قط حبّك فماذا تأمرني؟ إلى من توصيني؟ فقال: أي بني، والله ما

أعلمه إلا رجلاً بالموصل فائته، فإنك ستجده على حالي. فلما مات (وغيب) لحقت بالموصل، فأتيت صاحبها، فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهادة في الدنيا، فقلت له: إن فلاناً أوصاني إليك أن آتيك وأكون معك. قال: فأقم أي بني. فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه، حتى حضرته الوفاة. فقلت له، إن فلاناً أوصاني إليك وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصيني، فقال: والله ما أعلمه، أي بني، إلا رجل بنصيبين وهو على مثل ما نحن عليه، فالحق به. فلما دفناه لحقت بالآخر فقلت له: يا فلان ، إن فلاناً أوصاني إلى فلان، وفلان أوصاني إليك. قال: فأقم يا بني فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضرته الوفاة. فقلت له: يا فلان، إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى، وقد كان فلان أوصاني إلى فلان، وأوصاني فلان إلى فلان، وأوصاني فلان إليك، فإلى من توصيني؟ قال لي: أي بني، والله ما أعلم أحداً على مثل ما نحن عليه إلا رجل بعمورية من أرض الروم، فأته فإنك ستجده على مثل ما كنا عليه. فلما واريته، خرجت حتى قدمت على صاحب عمروية ، فوجدته على مثل حالهم فأقمت عنده، واكتسبت حتى كان لي غنيمة وبقرات. ثم حضرته الوفاة. فقلت : يا فلان، إن فلاناً كان أوصاني إلى فلان، وفلان إلى فلان، وفلان إليك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصيني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه. ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم، مهاجره بين حرّتين، إلى أرض سبخة ذات نخيل، وإن فيه علامات لا تخفى: بين كتفيه خاتم النبوة، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلك زمانه. فلما واريناه، أقمت حتى مر رجال من تجار العرب من كلب، فقلت لهم: تحملوني معكم حتى تقدموا بي أرض العرب، وأعطيكم غنيمتي هذه وبقراتي؟ قالوا: نعم. فأعطيتهم إياها، وحملوني حتى جاؤوا بي وادي القرى ظلموني فباعوني عبداً من رجل من يهود، بوادي القرى. فوالله لقد رأيت النخيل، وطمعت أن تكون البلد الذي نعت لي صاحبي وما حقّت عندي، حتى قدم رجل من بني

قريظة، من يهود وادي القرى، فابتاعني من صاحبي الذي كنت عنده، فخرج بي حتى قدم المدينة. فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفت نعته، فأقمت في رق صاحبي. وبعث الله رسوله ﷺ، بمكة لا يذكر لي شيئاً من أمره مع ما أنا فيه من الرق حتى قدم رسول الله ﷺ قباء، وأنا أعمل لصاحبي في نخلة له. فوالله إني لفيها إذ جاء ابن عم له، فقال: يا فلان قاتل الله بني قيلة، ووالله إنهم الآن لفي قباء مجتمعون على رجل من مكة، يزعمون أنه نبي، فوالله ما هو إلا أن سمعتها، فأخذني"العُرَوَاءُ" – يقول(الرِّعدة)- حتى ظننت لأسقطن على صاحبي. ونزلت أقول: ما هذا الخبر؟ ما هو؟ فرفع مولاي يده، فلكمني لكمة شديدة، وقال: مالك ولهذا؟ أقبل قِبل عملك. فقلت: لا شيء إنما سمعت خبراً فأحببت أن أعلمه. فلما أمسيت، وكان عندي شيء من طعام، فحملته وذهبت به إلى رسول الله ﷺ، وهو بقباء، فقلت: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحاباً غرباء، وقد كان عندي شيء للصدقة، فرأيتكم أحق من بهذه البلاد (به) فها هو ذا فكل منه. فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وقال لأصحابه: كلوا، ولم يأكل. فقلت في نفسي هذه خلة مما وصف لي صاحبي. ثم رجعت، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة فجمعت شيئاً كان عندي ثم جئته به، فقلت : إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية وكرامة ليست بالصدقة. فأكل رسول الله ﷺ، وأكل أصحابه. فقلت هذه خلتان. ثم جئت رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة وعليٌّ شملتان لي وهو في أصحابه، فاستدرت به لأنظر إلى الخاتم في ظهره، فلما رآني رسول الله ﷺ، استدبرته عرف أني أستثبت شيئاً قد وصف لي، فوضع رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه كما وصف لي صاحبي فأكببت عليه أقبله وأبكي. فقال:تحول يا سلمان هكذا. فتحولت فجلست بين يديه. وأحب أن يسمع أصحابه حديثي عنه. فحدثته يا ابن عباس كما حدثتك. فلما فرغت قال رسول الله ﷺ كاتب يا سلمان. فكاتبت صاحبي على

ثلاثمائة نخلة أحييها، وأربعين أوقية. وأعانني أصحاب رسول الله ﷺ، بالنخل: ثلاثين ودية[٩٢] . وعشرين ودية، وعشر، كل رجل منهم على قدر ما عنده. فقال لي رسول الله ﷺ: فقِّرْ لها[٩٣] فإذا فرغت فآذنّي حتى أكون الذي أضعها بيدي. ففقرتها وأعانني أصحابي- يقول حفرت لها حيث توضع- حتى فرغنا منها. ثم جئت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، قد فرغنا منها فخرج معي حتى جاءها، وكنا نحمل إليه الودي، ويضعه بيده، ويسوي عليها . فوالذي بعثه بالحق ما ماتت منها ودية واحدة. وبقيت عليّ الدراهم، فأتاه رجل من بعض المعادن بمثل البيضة من الذهب، فقال رسول الله ﷺ: أين الفارسي المسلم المكاتب؟ فدعيت له، فقال: خذ هذه يا سلمان، فأدها مما عليك. فقلت: يا رسول الله، وأين تقع هذه مما علي؟ قال: فإن الله تعالى سيؤدي بها عنك. فوالذي نفس سلمان بيده لوزنت منها أربعين أوقية، فأديتها إليهم وعتق سلمان. وكان الرق قد حبسني حتى فاتني مع رسول الله ﷺ بدر وأحد، ثم عتقت فشهدت الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد"[٩٤].

---

(٩٢) الودية: النخلة الصغيرة.

(٩٣) فقر لها: أي احفر.

(٩٤) أخرجه أحمد في المسند ، ٥/ ٤٤١-٤٤٤، وابن هشام في السيرة، ١/ ٢٢٨-٢٣٥، والبيهقي في الدلائل، ٢/ ٩٢-٩٧ والخطيب في التاريخ، ١/ ١٦٤-١٦٩، وأبو نعيم في دلائل النبوة، ١٩٩، وابن سعد في الطبقات، ٤/ ٧٥-٨٠، والطبراني في الكبير برقم، ٦٠٦٥، جميعاً من طريق ابن إسحق، حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن ابن عباس عن سلمان به. وقد صرح ابن إسحق بالتحديث فزالت شبهة التدليس والإسناد حسن كما يرى إبراهيم العلي في صحيح السيرة ص٣٢.

المبحث الثالث
يتم ورعاية للغنم ومشاركة في الخير

أولاً: يُتم عزيز:

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يبدأ يتم محمد صبياً من جهة الأب جنيناً، وهو حمل جنين في بطن أمه، حيث مات عبد الله في مرضه عند أخواله بني عدي ابن النجار في المدينة، وكان في تجارة لوالده، حيث قال الزهري ذكر الحاكم في المستدرك:"توفي أبوه وأمه حبلى به" وثمة رواية قريبة من هذا المعنى[٩٥] ومن جهة الأم وهو في السادسة من عمره ، ثم أفقده الله تعالى رعاية جده عبد المطلب وهو في الثامنة من عمره . وانتهى أمر رعايته إلى عمه أبي طالب[٩٦]. وكان أبو طالب هذا كثير العيال، فقير الحال.وإن اليتم ليقهر نفسيات الكثيرين، إلا أن يتم محمد ﷺ لم يكن كيتم سائر الناس، فلم يقهر هذا اليتم نفسه، وإن أحس بحاجة اليتامى وتعاطف معهم، ولم يشعره هذا اليتم بالذل يوماً، بل كان عزيزاً محبوباً لجده ولعمه، وكانت نفسيته الأبية تترفع عن سفاسف الأمور، حتى كان يظهر أدبه مع أبناء عمه أبي طالب وهو يشاركهم الطعام إذ كانوا ينتهبون الطعام وهو لا ينتهب، مما جعل عمه يلاحظ ذلك، ويخشى عليه أن يظلم مع أبنائه، فكان يخصه عنهم، بأن يفصل له طعامه عنهم لئلا يظلموه[٩٧].

ولقد كان لهذا اليتم حكمة أرادها الله سبحانه، إذ أنه يعد محمداً ﷺ ليكون رسوله المصطفى وقدوته للخلق كافة ، وفيهم هذا القطاع من الضعفاء والأيتام،

---

(٩٥) انظر المستدرك للحاكم ٥/ ٣١٧ والمصنف لعبد الرزاق ٥/ ٣١٧ بإسناد صحيح وهو مرسل كما في توثيق العمري في السيرة النبوية الصحيحة١/ ٩٥ وانظر ابن القيم زاد المعاد، ١/ ٣٦

(٩٦) أخرجه البخاري في صحيحه، انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٠هـ ج٧، رقم٣٨٨٧، ص٢٠١، وانظر نفس المعنى في صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٢١٧.

(٩٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة سنة ١٩٦٨، ج١ قسم ١ص٧٥

الذين فقدوا حنان الأم ورعاية الأب، فكيف يستطيع أن يشعر بشعورهم، من لا يعيش اليتم ولا يذوقه، ولهذا كانت وصيته ﷺ بعد مبعثه بالأيتام وصية بالغة، إذ بشر كافليهم بالجنة فقال: "أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما"[٩٨].

كما أن رسول الله ﷺ أعطى درساً للأيتام ذلك أنه إذا كان غيرهم ممن يجدون رعاية الأب والأم يعتمدون عليها، فإن اليتيم لا يصح له أن ييأس وأن يصبح ذليلاً وعالة على الناس فها هو ذا محمد اليتيم، يشعر مع عمه أبي طالب ويرق لظروفه المعيشية فينطلق إلى المجتمع عضواً فاعلاً نافعاً، يرعى الغنم، ويلح على عمه كي يخرجه معه في تجارته إلى الشام.

وهذه حلقة من حلقات الوضوح لسيرته عليه الصلاة والسلام، منذ مولده مما لم يتوافر لغيره، وضوح في السيرة لا في صغر ولا في كبر، فضلاً عن دقة التفاصيل، وما ذلك الا لأن الله سبحانه يرسل الأضواء الكاشفة على شخصية أعدها لإنقاذ البشرية.

ثانياً: رعاية وسياسة:

أما رعايته الغنم ، فهي بالإضافة إلى كونها طريقاً للكسب الحلال، ففيها أيضاً اتجاه إلى العمل الذي يستدعي تربية مشاعر الرفق والحنان والرقة والرحمة بالضعفاء، والتعرف إليهم؛ ضعفاء الإنسان من الرعاة،وضعفاء الحيوان من المواشي.

كما أن فيها درساً سياسياً، فالسياسة رعاية، ومداراة وتدبير للأمور وتوجيه. والرعاية تُعوِّد الراعي والسياسي على الصبر على الضعفاء، وعلى التعامل مع

---

(٩٨) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ج٩ كتاب الطلاق رقم ٥٣٠٤ ص٤٣٩ وورد مع اختلاف في اللفظ في صحيح مسلم بشرح النوويج ١٨ ص١١٣.

الأقوياء، واتباع سياسة اللين في غير ضعف، والشدة في غير عنف. فالسياسي حريص على أن يؤلف من حوله القلوب، وأن تسمع له الرعية. والراعي حريص على اتباع سياسة مع مواشيه، فيعزز قويها ويضبطه، ويرد شاردها ويؤدبه.

كما أن في الرعاية التقاء بالأصدقاء من ذوي المهنة، وفيها اختلاط بوسط اجتماعي له تجربته، وفيها تعرف إلى وسط اجتماعي ضعيف لم تسبق لمحمد به خبرة؛ ذلك أنه كان يعيش في قومه في ظل وسط اجتماعي قوي وشريف.

وهو ﷺ بهذا تسوقه العناية الربانية لأن يتعرف على مشاكل الناس واهتماماتهم، لما يكون لذلك من أثر واضح ليصبح قدوة لهم بعد مبعثه، وبحيث تكون لهذه الخبرة ولهذه التجربة فائدتها في سياسة كل أنماط الناس،وفهمهم، والاهتمام بمشاكلهم وحلها.

ولقد أدرك رسول الله ﷺ قيمة هذه التجربة في رعاية الغنم بعد مبعثه، إذ يقول فيما أخرج البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:"ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"[٩٩].

كما أن في الرعاية كذلك ، فرصة الخروج للفلاة، خارج حدود المدينة، وهي مكة التي تموج بالحركة والحجاج والعمار والتجار والأسواق الأدبية ، مما له أثره في توجيه النظر والفكر في صفاء الكون، وهو أدعى للتأمل في ملكوت الله، وأعون على استقامة الفطرة.

---

(٩٩) صحيح البخاري بشرح فتح الباري.ج٤ كتاب الإجارة رقم٢٢٦٢ ص٤٤١.وابن ماجه في سننه رقم ٢١٤٩، وابن هشام، السيرة النبوية(مطبوعة مع الروض النف للسهيلي)ج١ص١٩٢.ابن سعد، الطبقات الكبرى.ج١قسم١ص٨٠.

ثالثاً: عناية الله بأخلاقه في شبابه:

ومن اللطيف أن الله سبحانه قد حمى نبيه محمداً ﷺ في صغره من أن يقع في الخطايا والآثام التي كان يقترفها الشباب، إذ كانت الحياة مع الرعاة وانقضاء ساعات طوال خارج حدود المدينة لَتُعطي للنفس راحة وصفاء بعيداً عن صخب الجاهلية، ويعطيها متعة لطيفة، بعيدة عن الاستعلاء والمجاملة مع الشباب الطائشين؛ حتى أن رسول الله ﷺ لَيُدرك قيمة هذا بعد مبعثه، ويشير إلى هذه العناية الربانية به في شبابه، دون أن يعرف سرها آنذاك، فقد روى ابن الأثير: قال رسول الله ﷺ:"ما هممت بشيء مما كان الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته. فقلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة، لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب.فقال :أفعل. فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست اسمع، فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا حرُّ الشمس، فعدت إلى صاحبي، فسألني، فأخبرته. ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت مكة، فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بعده بسوء"[100].

---

(100) أخرجه الحاكم٤/ ٢٤٥ من طريق ابن إسحق وقال :حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٨/ ٢٢٦ رواه البزار ورجاله ثقات ورواه ابن حبان في صحيحه٨/ ٥٦ رقم٦٢٣٩، وفي المطالب العالية٤/ ١٧٨ رقم٤٢٥٩، وقال البوصيري:رواه إسحق بن راهويه بإسناد حسن وابن حبان في صحيحه وهكذا رواه ابن اسحق في السيرة وهكذا قال ابن حجر:هذه الطريق حسنة جليلة. هذا وهو حديث حسن متصل.انظر صحيح السيرة النبوية ، إبراهيم العلي، ص٤٣ ووردت له مجموعة طرق الألباني ذهب وانتهى إلى الحكم عليه بأنه ضعيف.انظر الغزالي، فقه السيرة، ط٤، دار الكتب الحديثة القاهرة، سنة ١٩٦٤ هامش ص٧٢، ٧٣.

رابعاً: فتوة وروح جماعية ومشاركة في الخير: حرب الفجار وحلف الفضول:

لم يعش رسول الله ﷺ منعزلاً ولا منفرداً في شبابه، فهو وإن كان يعيش مع الضعفاء إلا أنه كان يشارك الأقوياء حياتهم ، ويظهر هذا من اشتراكه بروح جماعية مع أعمامه في حرب الفجار[١٠١] التي كانت تتصل بإنكار القتال من قوم استباحوه في الأشهر الحرم، وهو هنا لا يقبل أن يختبئ في وقت يحتاجه فيه أهله، بل ويقف فيه معهم موقف الرجولة، ولم يكن وقتها قادراً على القتال، فأخذ ينبل على أعمامه، أي يناولهم النبل وهو بهذا السن الصغير كان يشعر برجولته القادمة، وشجاعته في الحرب، وإحساس فيه بمقاومة الظلم

أما روحه الجماعية نحو الخير، فلقد ظهرت أكثر ما يكون في شبابه، بما يدل على فطرته السليمة، أنه حضر وشارك في حلف جماعي للخير في دار عبد الله ابن جدعان، وكان عمره عشرين سنة وهو ما عرف بحلف الفضول أو حلف المطيبين[١٠٢] وقيل إن سبب هذا الحلف[١٠٣] أن رجلاً زبيدياً قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه بني عبد الدار ومخزوما وغيرهما فقام الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مُترَك، أي لا يصح أن يترك، فاجتمعت بطون بني هاشم وزهرة وتيم بن مرة وعقدوا حلفاً بينهم ألا يترك مظلوم من مكة منها ومن غيرها الا ويُنصف وترد له مظلمته. ويمدح الرسول ﷺ هذا الحلف بعد مبعثه ويقول في حديث صحيح:"لقد شهدت حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حُمُر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت"[١٠٤].

---

(١٠١) ابن هشام، السيرة النبوية (مطبوعة مع الروض النف للسهيلي)ج١، ص٢١١، ابن كثير ، البدايةج٢ص٢٨٩.

(١٠٢) انظر قاسم، حلف المطيبين وتوثيقه عند أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ١١١-١١٢

(١٠٣) أبو زهرة، خاتم النبيين، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة سنة٧٣ج١ص١٤٩-١٩٥ .ابن كثير البداية والنهاية ج٢ص٢٩١.

(١٠٤) ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)ج١ص١٥٥، أخرجه ابن إسحق بلفظ حدثني محمد بن

وهنا لا بد أن نقف وقفة طويلة يستفيد منها كل داعية خير، وكل مصلح، ما معنى أن يمتدح النبي ﷺ حلفاً للخير حصل في الجاهلية، يمتدحه بعد الإسلام، وبعد أن منّ الله على المسلمين بكل صنوف الخير، بل يقول: لو دعيت به في الإسلام لأجبت؟ ما ذلك – والله أعلم- إلا لأن الرسول ﷺ يريد أن يربينا على أن دعوة الخير ترى أن كل منبع من منابع الخير إنما هي أحق به، وأنه يصب في طريقها، وأن المسلم لا بد أن يكون إيجابياً- لا سلبيا-، يتعاطف مع كل بادرة للخير ويوجهها في طريقه، ولا يصح له أن يهمل أية عاطفة طيبة عند الناس، وأما الانكماش والانطواء والجمود والانزواء فليست طرقاً للخير ولا أساليب للدعوة إلى الله سبحانه، فالرسول ﷺ بفطرته قبل الإسلام الذي هو دين الفطرة يسر لإغاثة الملهوف، ويحضر الحلف الذي يمنع الظلم، ويعيد الحقوق إلى أصحابها، فكيف يكون الأمر بعد الإسلام الذي هو دين العدل ورفع الظلم عن الناس.

زيد المهاجر من قنفذ أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهيري يقول الحديث. وفي رواية الحميدي عن سفيان عن عبد الله عن محمد وعبد الرحمن ابني أبي بكر بلفظ مقارب ، انظر السهيلي: الروض ١٥٥-١٥٦.وأخرجه أحمد في المسند١٢/ ١٩٠ والبخاري في الأدب المفرد، طبعة الحوت، رقم ٥٦٧، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٢١٩-٢٢٠ وقال :هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه من المحدثين الألباني على حاشية فقه السيرة للغزالي ص ٧٥، وله شاهد حسن في موارد الظمآن ص٥٠٤ رقم ٢٠٦٣ ودلائل النبوة للبيهقي، ٢/ ٣٨.راجع الألباني، السلسلة الصحيحة٤/ ٥٢٤ وانظر تخريج الحديث في السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري ١/ ١١١

المبحث الرابع
لقاؤه بحيرى

حرص محمد ﷺ على الخروج مع عمه في التجارة:

حرص محمد ﷺ على أن يعيش حياة الكبار في صباه، وأن لا يبقى معتمداً على عمه أبي طالب، إذ لا بد أن يعد نفسه رجلاً يتحمل المسؤولية، فيصر على عمه أبي طالب أن يخرج معه في تجارته إلى الشام، وكانت التجارة مورداً رئيسياً للاقتصاد في هذه المنطقة والتجارة لها فوائد كثيرة على شخصيته وتعامله عليه الصلاة والسلام، فهو يريد أن يتدرب على مهنة التجارة منذ صغره، وأن يتعرف من خلالها على أنماط الناس والشعوب وأخلاقهم وتصرفاتهم، ويتدرب فيها على الأمانة وعدم الغش.

قصة بحيرى:

وهنا لا بد أن نقف وقفة قصيرة مع أول رحلة رحلها محمد ﷺ إلى الشام رافق فيها عمه، رغم حداثة سنه إذ كان في سن الثانية عشرة من عمره، وقد حصلت فيها حادثة من حوادث الإرهاص لنبوته-أي المقدمات-، تروي كتب السير(١٠٥) أن القافلة التجارية التي سار معها محمد ﷺ، حينما وصلت بصرى من بلاد الشام، خرج إليها راهب من صومعته، عرف ببحيرى، واسمه جرجس، ولم يكن هذا الراهب يخرج عادة ويلقى أحداً من الناس، إذ كان منعزلاً في صومعته، خرج إلى هذه القافلة، وأصر على دعوة من فيها إلى وليمة أقامها لهم وقال لهم:" إني صنعت

---

(١٠٥) ابن هشام، السيرة النبوية (مطبوعة مع الروض الأنف للسهيلي)ج١ص٢٠٥-٢٠٦. الطبري، تاريخ الملوك والرسل.تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.ط٢.دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٧ . ج ٢ ص٢٧٧-٢٧٨.كما ورد طرف من هذه القصة في الترمذي باسناد حسن غريب، انظر الجامع مع الصحيح ج٥ رقم٣٦٢٠ص٥٩٠-٥٩١ وانظر القصة بأكملها في ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢ص٢٨٣-٢٨٤، ص٢٨٦.

لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم كبيركم وصغيركم، وعبدكم وحركم،"فقال له رجال من قريش:"والله إن لك يا بحيرى لشأناً اليوم، ما كنت تصنع بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟ فقال بحيرى: صدقت، قد كان ما كان، ولكنكم ضيوف، وأحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً تأكلون منه كلكم، فاجتمع القوم إليه ولم يتخلف إلى محمد بن عبد الله ﷺ لحداثة سنه، وبقي تحت الشجرة يرعى إبلهم ويحرسها، فلما رآهم ولم يجد صاحب الصفة المنتظر في كتبهم فذكر لهم أنه طلب إليهم ألا يتخلف أحد منهم عن طعامه، فقالوا : يا بحيرى ما تخلف منا أحد إلا غلام هو أحدثنا سناً، تخلف في رحالنا. قال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام. فقال رجل من قريش: واللات والعزى إن كان للؤم منا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام بيننا، ونادوا محمداً ﷺ وحضر الوليمة. ولكن بحيرى اختص هذا الغلام بعناية خاصة، وأجلسه، وأخذ يلحظه لحظاً شديداً وكأنه يتفحصه، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم، وتفرقوا قال بحيرى للغلام: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك- وإنما قال بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما- فقال محمد ﷺ: لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما. فعدل بحيرى عن استقسامه بهما، وسأله بالله فقال محمد ﷺ: الآن سلني عمّا بدا لك. يقول ابن إسحق:جعل بحيرى يسأله عن رحلته وهيئته وأموره. فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، فتأكد من شخصيته، كما هي البشارات في الأناجيل. فلما فرغ أقبل بحيرى على عمه أبي طالب فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال ابني. فقال بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون أبوه حياً. فقال أبو طالب: هو ابن أخي. فقال فما فعل أبوه؟ قال مات وأمه حبلى به. قال صدقت. ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من يهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت

ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم"[١٠٦].

هذه قصة فيها بشارة من جملة بشارات كثيرة ذكرتها الأناجيل، بأن الرسالات ستختم بنبي يظهر من العرب، وقد كان يعرفها علماء أهل الكتاب ورهبانهم، حتى حينما سأل عمر بن الخطاب عبد الله بن سلام وكان حبراً يهودياً وأسلم[١٠٧]. يا أبا عبد الله هل كنتم تعرفون محمداً كما كنتم تعرفون أبناءكم ؟ ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام٢٠). قال ابن سلام: نعم يا ابن أخي فقد نزل أمين الله في السماء (أي جبريل عليه السلام) على أمين الله في الأرض(أي موسى عليه السلام)، فأخبرنا بنعته ووصفه. بل إننا لنعرفه أكثر من أبنائنا، فإني لا أدري ما كان من أم. أي أنه كما لا يشك في نسبة ابنه إليه لا يشك في مبعث محمد ﷺ وصدقه، فأي معرفة أكيدة آكد من هذه المعرفة؟ فهو عنده قابلية الشك في أن ابنه ليس ابنه الحقيقي وليس عنده قابلية الشك في أن محمداً ﷺ هو النبي المبشر به في كتبهم.

---

(١٠٦) ابن هشام، السيرة النبوية (مطبوعة مع الروض الأنف للسهيلي)ج٢ص٢٥٧. وأخرج القصة من حديث أبي موسى الأشعري

(١٠٧) أنظر الرازي، التفسير الكبير، ط١، المطبعة البهية المصرية١٩٣٨ ج١٢ ص١٧٩. أيضاً الترمذي في المناقب باب ما جاء في بدء النبوة وابن أبي شيبة في المصنف رقم ١٨٣٠، وأعلام النبوة للماوردي، ص١٥٥-١٥٦، وأبو نعيم في الدلائل٥١-٥٤ والطبري في تاريخه٢/ ٢٧٧-٢٧٩، والبيهقي في دلائل النبوة، ١/ ٣٠٧-٣١٢ والحاكم في المستدرك، ٢/ ٦١٥ والسيرة النبوية للذهبي ص٢٨ وقال الحاكم في مستدركه: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه لكن الذهبي ذهب إلى كونه موضوعاً والترمذي قال عنه: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقال ابن حجر في الإصابة: رجاله ثقات وصححه الألباني ونقل ذلك عن الجزري: انظر هامشس ص ٦٨ في فقه السيرة للغزالي وانتهى إبراهيم العلي إلى أن سنده صحيح ورجاله ثقات، انظر إبراهيم العلي ص ٤٤.

الرد على المستشرقين:

ولا بد من التنويه إلى ما يعلق عليه مَن في قلوبهم مرض من أعداء الإسلام والمستشرقين[108]، على قصة لقاء بحيرى بالرسول ﷺ وهو غلام لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، من اتهام له بالتلمذة على بحيرى ليطعنوا في الإسلام، ويدّعوا أنه صدى للنصرانية، وأنه هو الذي علمه الدين، ذلك أن لقاء على وليمة لا ينشئ هذه العلاقة العلمية، فضلاً على أن بعثته ﷺ كانت بعد هذا اللقاء القصير بثمان وعشرين سنة، ما عرف فيها أن محمداً صلى الله عليه وسلم تكلم كلمةً ذات علاقة بالوحي أو الدعوة لدين جديد، كما قرر ذلك سبحانه على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (يونس١٦). وقوله سبحانه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(الشورى٥٢). فضلاً عن أميّة محمد ﷺ، "فضلاً عن حاجز اللغة، إذ لم يكن قد وجد في ذلك الوقت توراة ولا إنجيل باللغة العربية"[109].

صفاء الفطرة ونقاؤها:

ثم لا بد أن نلتفت إلى أن رسول الله ﷺ كان منذ حداثته بفطرته الصافية منكراً عقائد قومه من عبادة الأوثان وتقديسها، إذ لم يقبل ولم يرض أن يستحلف بها، بل إنه صرّح لبحيرى عندما سأله بهما بأنه ما أبغض شيئاً أكثر من اللات والعزى.

لا غرابة في القصة:

أما أنه ليس في هذه القصة غرابة، فلأن هذه القصة وسائر القصص التي فيها

---

(١٠٨) انظر غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص١٠٢، ومونتغمري واط، محمد في مكة، ص٧٥، وأكرم العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١١٠.

(١٠٩) دراز، محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم ، نشر دار القلم ، الكوين، ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م ص ١٣٥.

إرهاصات نبوته عليه الصلاة والسلام، وإن لم تنتشر قبل بعثته، لم نعرف علاقتها بالنبي والنبوة إلا بعد البعثة، إذ ثمة إشارات كثيرة وبشارات جمة بقرب مبعثه عليه الصلاة والسلام. بل لقد كانت بعض الشخصيات النظيفة في سلوكها وعقائدها الحنيفية على دين إبراهيم عليه السلام، تنتظر أن تبعث، بل وتُعدُّ نفسها وتُمنّيها أن تكون هي التي ستبعث. فهذا قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو ابن نفيل وغيرهما، يجلسون في الحرم، ويعظون الناس بمواعظ ظنّاً منهم أن يكون هذا الأمر في أحدهم. فقد أخرج البخاري مثلا أن عمر حدّث عن رسول الله ﷺ:" أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح وذلك قبل أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة، فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم"[110]. وقد سمع منه الرسول ﷺ هذه الكلمة قبل بعثته، لأنه عليه الصلاة والسلام كان بفطرته السليمة لا يأكل مما ذبح على النصب، أعجبته هذه الكلمة، فحفظها للرجل وذكرها له بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام.

أما محمد ﷺ فكان على الفطرة ولم يكن يُعدّ هو نفسه لأمر النبوة أو يستشرف لها. بل كانت البشارات من حوله دالة عليه دون أن يعرف هو شيئاً من ذلك. وقد ورد على لسان بحيرى، فيما أخرج الترمذي شيء من هذه البشارات التي استدل بها على أن هذا الغلام هو من وافقت صفاته صفات النبي والرسول الخاتم من العرب المذكورة في الإنجيل، فقال عندما رأى محمداً ﷺ:"هذا سيد العالمين. هذا رسول رب العالمين. يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش:ما عِلمُك؟ قال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا وخر ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي. وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل

---

(110) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ط السلفية، ج7 ص142.

التفاحة"[111].

نعم هذا الخاتم بين كتفي النبي ﷺ وغيره من البشارات دفعت سلمان الفارسي الذي كان يبحث عن الحق ومر بتجربة مع اليهودية والنصرانية، حيث أسر له بعض الرهبان بأن الله سيبعث نبياً من العرب، وأنه يأكل من الهدية ولا يأكل من الصدقة، وأن خاتماً[112] للنبوة بين كتفيه، فلما سمع سلمان بمبعث الرسول ﷺ، جاءه وقدم إليه طعماً وقال: هذه صدقة أتصدق بها عليك، فأخذها النبي ﷺ وقدمها لأصحابه ولم يأكل منها . ثم جاءه في اليوم التالي بطعام وقدمه إليه، وقال: هذه هدية أهديها إليك، فأخذها النبي ﷺ وقدمها لأصحابه وأكل منها. ثم قام سلمان ليبحث عن خاتم النبوة فوجده، وقام من توه وأعلن إسلامه[113] .

وأما اللفتة الأخيرة في هذه الحادثة فهي تحذير بحيرى عمّه أبا طالب من يهود، نعم هو عداء يهود للحق، وهم الذين كانوا يقولون للعرب كلما غضبوا منهم: ليبعثن الله نبياً من العرب فلنقاتلنكم معه فنقتلكم قتل عاد وإرم. إلا أنه لما بعث

---

(111) السهيلي، الروض الأنف.ج١ ص ٢٠٧. الترمذي، الجامع الصحيح، ج٥ كتاب المناقب رقم ٣٦٢٠ ص٥٩٠ من حديث طويل قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقد مر تخريج القصة بتمامه

(112) أخرج الترمذي في الجامع الصحيح ج٥ عدة أحاديث في خاتم النبوة بأوصاف مثل التفاحة ومثل زر الحجلة ومثل بيضة الحمامة.فقد أخرجه عن أبي بكر بن موسى عن أبيه مثل التفاحة وقال عنه حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه انظر حديث رقم٣٦٢٠ ص٥٩٠ ثم أخرج حديثاً عن جابر ابن سمرة قال:"كان خاتم رسول الله ﷺ يعني الذي بين كتفيه غدة حمراء مثل بيضة الحمامة" وقال عنه حسن صحيح والحديث رقم ٣٦٤٤ ص٦٠٢. كما أخرج حديثاً عن السائب ابن يزيد يقول فيه"... فقمت خلف ظهره فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه فإذا هو مثل زر الحجلة" وهو حسن صحيح غريب من هذا الوجه والحديث رقم ٣٦٤٣ ص ٦٠٢.كما ورد كذلك عند مسلم من حديث جابر بن سمرة قال:"رأيت خاتماً في ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام" وفي رواية عن السائب :"فنظرت إلى خاتمه بين كتفيه مثل زر الحجلة".انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ ص ٩٧-٩٨

(113) ابن هشام، السيرة النبوية (الروض الأنف للسهيلي)ج٢ ص٢٤٧-٢٥٣.

عليه الصلاة والسلام كانوا ألد أعدائه، وما يزالون أعداء هذا الإسلام، وإلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة٨٩).

المبحث الخامس
صدقه ﷺ في تجارته وأمانته

دخل محمد ﷺ مرحلة الشباب، شاباً نقي السيرة ، طاهر السريرة نقي الفطرة، لا يعرف عنه لهو الشباب، ولا يؤثر عنه طيشهم. خبر أصناف الناس، صغارهم وكبارهم، ضعفاءهم وأقوياءهم.

وعاشر التجار، وشارك بعضهم، فكان خيرهم وأعفّهم، وأطهرهم وأنقاهم سريرة، وأصدقهم حديثاً، حتى انتزع من الناس من حوله لقباً ما سبق أن ناله شخص قبله ولا مثله، فكانوا يلقبونه بالصادق الأمين. وكأن الله سبحانه وتعالى يسلط الأضواء على هذه الشخصية، من خلال معنيي الصدق والأمانة، الصدق الذي يكون مستند الكثيرين فيما بعد مبعثه كي يؤمنوا به وبرسالته؛ إذ كيف يدعو الناس شخص إلى الإيمان- وهو التصديق الجازم- إن لم يكن صادقاً، وموضوع ثقة من مدعوّيه.

أما الأمانة ، فهي مناط الثقة التي تجعل صاحبها فوق التهمة والريبة، إذ أن من يستأمنه الناس على أموالهم، فيحفظها لهم، لا يمكن أن يكون صاحب مطمع مادي في دعوته لهم، ولا يمكن أن تكون له خيانة معنوية بعد أن عافاه الله وعصمه من الخيانة المادية.

ولقد كان يشهد هذا المجتمع الجاهلي لمحمد عليه الصلاة والسلام بالصدق والأمانة، وأنه أرضاهم فيهم في شبابه، حتى أنهم ليقبلونه حكما بين ساداتهم ورؤسائهم وكبرائهم، حين كادوا يقتتلون بسبب خلاف حصل بينهم، وهم يجددون بناء الكعبة، أيهم يرفع الحجر الأسود ويضعه في مكانه. فيشير عليهم أكبرهم سنّا أي معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم. فارتضوا ذلك،"وعلموا أنه توفيق الله تعالى عندما ظهر أول داخل، فإذا هو محمد بن عبد الله ﷺ فقالوا: هذا الأمين رضينا به حكماً. وبهذا

طابت نفوسهم جميعاً حينما علموا أنه سيكون الحكم بينهم"[١١٤]. وشاء الله تعالى أن يشير عليهم ﷺ بأن يضع الحجر في ردائه، ثم ليشتركوا جميعاً في رفع الرداء، وبهذا يقتسمون شرف رفع الحجر. ورفعه ﷺ ويضعه في مكانه ويبني عليه[١١٥]. وبهذا حسم رسول الله ﷺ الخلاف من بينهم، وحال دون الحرب فيما بينهم.

ومما جاء في بناء الكعبة ومشاركته ﷺ في بنائها وهو ابن خمس وثلاثين سنة وتحكيمه في الحجر الأسود:

- حديث أبي الطفيل رضي الله عنه قال:" كانت الكعبة في الجاهلية مبنية بالرضم، وكانت قدر ما يفتحها العناقة، وكانت غير مسقوفة، إنما توضع ثيابها عليها ثم تسدل سدلاً عليها، وكان الركن الأسود موضوعاً على سورها تأدباً، وكانت ذات ركنين كهيأة الحلقة. فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قريباً من جدة، تكسرت السفينة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً عندها، فأخذوا الخشب أعطاهم إياه. وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي في السفينة نجاراً، فقدموا، وقدموا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب الذي في السفينة بيت ربنا. فلما أرادوا هدمه، إذا هم بحية على سور البيت مثل قطعة الحائر، سوداء الظهر، بيضاء البطن، فجعلت كلما دنا أحد إلى البيت ليهدمه أو يأخذ من حجارته، سعت إليه فاتحة فاها. فاجتمعت قريش عند المقام، فعجّوا إلى الله- عز وجل- فقالوا: ربنا لم ترع، أردنا تشريف بيتك، فإن كنت ترضى بذلك، وإلا فافعل ما بدا لك. فسمعوا خواراً من السماء، فإذا طائر أسود الظهر ، أبيض البطن والرجلين، أعظم من البشر، فغرز مخاليبه في رأس الحية، حتى انطلق بها يجر ذنبها، أعظم من كذا وكذا ساقطاً، فانطلق نحو أجياد، فهدمتها قريش، وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين

(١١٤) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين ج١، ص٢٢٠ \. ابن هشام، السيرة(مع الروض)ج١ ص ٢٢٧

(١١٥) ابن هشام، السيرة النبوية (الروض الأنف للسهيلي)ج١ ص٢٢٨

ذراعاً. فبينما النبي ﷺ يحمل حجارة من أجياد، وعليه نمرة، فضاقت عليه النمرة، فذهب يضع النمرة على عاتقه، فُترى عورته من صغر النمرة، فنودي يا محمد خمر عورتك، فلم ير عرياناً بعد ذلك، وكان يرى بين بناء الكعبة وبين ما أنزل عليه خمس سنين، وبين مخرجه وبنيانها خمس عشرة سنة"[116].

- حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:"إن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخي، لو حللت إزارك، فجعلته على منكبك، دون الحجارة؛ فحله، فجعله على منكبه، قال: فسقط مغشياً عليه، فما رؤي بعد ذلك اليوم عرياناً"[117]

وكان لهذه الشهرة بالصدق والأمانة، ولهذه الرجولة الطيبة النظيفة أثرها في أوساط من عرفوه عليه الصلاة والسلام. فلقد شاركه في التجارة أحدهم وهو السائب بن أبي السائب، فذكر السائب هذا أن محمداً ﷺ كان أميناً سمحاً في معاملته، لا يماري الذي لا يجادل في الشراء، ولا يخفي الخبيث من البضائع ويظهر الطيب مما في تجارته، ولقد شاء الله تعالى أن يلتقي النبي ﷺ بشريكه هذا عند فتح مكة، فرحب به وذكَّره بشبابه وتجارته فقال: مرحباً بأخي وشريكي كان لا يشاري ولا يماري.

ولقد أشار عمه أبو طالب عليه أن يتاجر في مال خديجة بنت خويلد، وهذه

---

(116) أخرجه الطبراني في الكبير بطوله، وأحمد طرفاً منه، ورجالها رجال الصحيح كما قال الهيثمي في المجمع، 3/ 289 انظر المطالب العالية، 4/ 182 برقم، 42666 والفتح الرباني، 20/ 198-199 والرضم:الصخور، والنمرة، الكساء المخطط."انظر توثيق إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية 47-48".

(117) أخرجه البخاري في الصلاة، باب كراهية التعري في الصلاة وغيرها، حديث، 364 وفي الحج باب فضل مكة وبنيانها حديث، 1582، وفي مناقب الأنصار، باب بنيان الكعبة حديث، 3829، ومسلم في الحيض، باب الاعتناء بحفظ العورة حديث340، وأحمد في المسند، 3/ 310-313 كلهم من طريق عمرو بن دينار عن جابر"انظر توثيق إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية 47-48".

المرأة كانت غنية، وذات مال كثير حتى أن عيرها -أي جمالها- التي تحمل بضائعها كانت تعادل عير قريش كلها في حجمها وقوتها التجارية. وكانت حكيمة شريفة في قومها تحتفظ بجمال وشباب، كما كانت أرملة لزوجين قد ماتا، وكانت تستأجر التجار ليتاجروا لها بمالها، وتعطيهم أجراً أو تضاربهم بحيث يقتسمون معها أرباح مالها. ولقد شعر أبو طالب بأن شخصية نظيفة كمحمد في أمانته وصدقه، وإن كان ليس بذي مال يجعله من كبار التجار ، يمكنه أن يفيد وينجح لو توافر له مال كمال خديجة، فقال لمحمد ﷺ[118] :يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، والحّت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك يتّجرون في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضّلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود، ولكن لا نجد بداً من ذلك، فيقول محمد الأمين :لعلها ترسل إلي في ذلك.

وهنا نجد عفة رسول الله ﷺ وعزّة نفسه، بحيث لا يريد أن يذهب هو إلى خديجة يزاحم التجار بأن يكون تاجراً لخديجة دونهم، فهو لا يريد أن يزكي نفسه، ويظهر للمرأة فضله على من سواه، وإنما ينتظر أن تكلمه هي وترسل إليه. فهو لا يريد أن يجعل من شرفه وأمانته وصدقه وسيلة تجارية ولا غاية مادية. وإذ بخديجة ترسل إلى محمد ﷺ وتقول له : دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك. وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك". وبدأ رسول الله ﷺ يتاجر بمال خديجة. وتنال بركة رسول الله ﷺ مال خديجة زيادة وربحاً ونماءً وبركة، مع صدق وأمانة وحسن تدبير لأمور التجارة، ما رأت خديجة مثل هذا من كل من تعاملت معهم وتاجروا لها بمالها قبل محمد ﷺ، بل إن ذلك دعاها

---

(١١٨) ابو زهرة، خاتم النبيين ج١ ص٢٠٠، وانظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١ قسم ١ ص٨٢-٨٣.

إلى أن تجعل مولاها ميسرة[119]، خادماً شخصيا ومرافقاً لمحمد طيلة تجارته لها. وأخذ ميسرة يحدثها عن شخصية محمد ﷺ حديثاً عجيباً في كرم أخلاقه، إذ السفر- كما يقولون- يسفر عن أخلاق الرجال.

---

(119) ابن كثير، البداية والنهاية ج٢ ص٢٩٤.

المبحث السادس

زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها

كل هذا جعل هذه المرأة الطيبة تفكر بمحمد ﷺ لا مجرد تاجر، وإنما تفكر فيه أن يكون لها زوجاً، وهي المرأة الشريفة العفيفة التي تقدم إليها سادة من رجال قريش وأبت الزواج منهم.

إنها امرأة مؤدبة، ومحمد شاب نظيف لا يخطر بباله فضلا عن أن تظهر عليه رغبة ظاهرة في أن تكون له بالنساء علاقة، حتى في حدود العلاقات المشروعة، لا قصوراً منه، ولكن أدب وعفة. وهنا تسلك خديجة مسلكاً مؤدباً فلا تصارحه مباشرة بهذا الأمر، ولكن ترسل إليه امرأة أخرى، وهي نفيسة بنت منية تقول تلك المرأة [١٢٠] : كانت خديجة امرأة حازمة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها، لو قدر على ذلك (...) فأرسلتني دسيساً (أي أستطلع الأخبار بجس نبض الآخر) إلى محمد ﷺ بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقلت يا محمد: ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به . قلت: فان كُفيت ذلك، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت: خديجة. قال وكيف لي بذلك؟ فذهبت أخبرها فأرسلت إليه، وقالت له: يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسِطَتك (أي توسطك واعتدالك واتزانك) في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك"[١٢١].

وذهب رسول الله ﷺ لأعمامه حمزة وأبي طالب فخطبوا له خديجة من أبيها وتم زواجه ﷺ منها.

---

(١٢٠) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١ ص٨٤

(١٢١) ابن هشام، السيرة النبوية (الروض الأنف للسهيلي)ج٢ ص٢١٣ وابن كثير، البداية ج٢ ص٢٩٤

ومما يروى في كتب السنة في زواجه من خديجة من الأحاديث التي خرج إبراهيم العلي[١٢٢]: حديث ابن عباس رضـي الله عنهمـا:" أن رسـول الله ﷺ ذكـر خديجـة، وكان أبوها يرغب عن أن يزوجها، فصنعت طعاماً وشراباً، فدعت أباها وزُمراً مـن قريش، فطعموا وشربوا حتى ثملوا، فقالت خديجـة لأبيهـا:" إن محمـد بـن عبـد الله يخطبني فزوجني إياه. فزوجها إياه، فخلقَته، وألبسـته حُلَـة، وكـذلك كـانوا يفعلـون بالآباء، فلما سُرّيَ عنه سكرُه نظر، فإذا هو مُخَلَّق، وعليه حلة، فقال ما شأني؟ مـا هذا؟ فقالت: زوجتني محمد بن عبد الله، قال: أزوج يتيم أبـي طالـب، لا لعمـري. فقالت خديجة: أما تستحي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سكران؟ فلم تزل به حتى رضي"[١٢٣].

ويؤيد هذا ما جاء من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه بنحو اللفظ السابق ببعض زيادة[١٢٤] . وهذا يرد ما جاء عن المؤملي أن الذي زوج خديجة هـو عمهـا عمرو بن أسد، لأن المؤملي متروك، لا يعتد بكلامه... [١٢٥] .

وكانت أسرة سعيدة بين محمد ﷺ أشرف رجل في مكة، وخديجـة أشـرف امـرأة في مكة.

وهنا تبدو رجولة رسول الله ﷺ ورجاحة عقله، وإن لم يكن يريد مـن الـزواج ما يريده أصحاب الشهوات، وإنما كـان يريـد مـن الـزواج عفـة الشباب وطهـره،

---

(١٢٢) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ، ص٤٥-٤٦

(١٢٣) أخرجه أحمد في المسند، ١/ ٣١٢ والبيهقي في الدلائل، ٢/ ٧٣، مختصراً والطبراني في الكبير رقـم ١٢٨٣٨. وقال الهيثمي، ٩/ ٢٢٠، رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد والطبراني في الصحيح

(١٢٤) أخرجه الطبراني في الكبير برقم، ١٨٥٨، والبزار كما في الكشف رقـم ، ٢٦٥٧ قـال الهيثمـي في المجمع ، ٩/ ٢٢٢، أخرجه الطبراني والبزار، ورجـال الطبرانـي رجـال الصـحيح غـير أبـي خالـد الوالبي، وهو ثقة، ورجال البزار ايضاً رجال الصحيح غير أحمد بن يحيى الصوفي، وهو ثقة ، لكنه ليس من رجال الصحيح، وقال ابن حجر، وكذا شيخ الطبراني، فكان ينبغي أن يقول، ورجالهما رجال الصحيح سوى شيخيهما وأبي خالد الوالبي.

(١٢٥) مجمع الزوائد، ٩/ ٢٢١

وسعادة البيت والأسرة، ولهذا تزوج امرأة طيبة لم يكن يهمه أنه كان شاباً لم يتـزوج امرأة قبلها وهو في سن الخامسة والعشرين، وكانت هي أرملة لزوجين قبله، وسنها أربعون عاماً، يعيش معها عليه الصلاة والسلام خير ما يعيش رجـل مـع زوجـة لم يتزوج عليها طيلة حياتها فعن الزهري قـال:"لم يتـزوج رسـول الله ﷺ علـى خديجـة حتى ماتت[١٢٦]، وهذه مروءة من الرجل أو الزوج الـذي لا يقبـل علـى نفسـه أن يتزوج بمال زوجته التي تنفق مالها على بيته، ثم على دعوته حتى ولو كـان في ذلـك تضحية منه في سبيل عدم ضُرِّها بزوجة ثانية، وفيه مزيد إكرام لهـا. مـع أن الـزواج بأكثر من امرأة كان غالب عادة الناس زمانه.

ويعيش معها خمسة وعشرين عاماً، يرزقه الله منها كـل أولاده سـوى إبـراهيم فقد ولد من مارية القبطية، فلقد ولدت له القاسـم أكـبر ذكـوره وكـان يكنـى بـه، وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر وهو أصغرهـم سناً. كما ولـدت لـه مـن البنـات زينب ثم رقية وأم كلثوم وفاطمة[١٢٧].

وبالمناسبة فقد توفي القاسم وقد بلغ سناً تمكنه من ركوب الدابـة، ومـات عبـد الله وهو طفل، كما مات إبراهيم كذلك طفلاً، وقد كان العرب الجاهليون يعيرونـه بأنه أبو البنات، إذ كانوا يعتزون بالذكور عصبية، ويكرهون البنات، ممـا سـبّب الألم والحزن له ولخديجة رضي الله عنهـا. ولكـن حكمـة الله غالبـة، فمـن يكـون قـدوة للمؤمنين الذين لا ذرية لهم من الذكور بعد رسول الله ﷺ إن لم يكن أكرم خلق الله على الله، محمد رسول الله ﷺ؟ ومع ذلك قبض الله ذريته من الـذكور. ولقـد جـبر الله خاطر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تربصوا به ريب المنون، وقـال أبـو جهل: غداً يموت محمد وتنقطع هـذه السـالفة، إذ لا يخلفـه ذكـور مـن ذريتـه فيمـا وصف الله قولهم ذلـك بقولـه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا

---

(١٢٦) الهيثمي، مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٠، وقال رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح

(١٢٧) ابن كثير، البداية والنهاية ج٢، ص٢١٤..

﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ (الطور٣٠-٣١).

ولما سماه أبو جهل بالأبتر أي مقطوع الذرية من الذكور طمأنه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر١-٣)، وفعلاً من الذي كان الأبتر أهو رسول الله ﷺ الذي أمات الله أبناءه النسبيين، وجعل كل مسلم إلى قيام الساعة من أتباع محمد ﷺ، ومن المنتسبين إليه إيماناً وحباً وامتداداً في آفاق الأرض، وأيام الزمان؟ ومن الذين يحبونه أكثر من حب الآباء والأبناء والناس أجمعين، أم أبو جهل الذي انقطع بموته كافراً وأصبحت سيرته سيئة، فانقطع دينا من أولاده إذ أن أولاده ومنهم عكرمة قد أصبحوا مؤمنين منحازين إلى الانتساب لمحمد ﷺ ديناً وحباً، ومن الكافرين بأبيهم النسبي أبي جهل؟ فمن الصنوبر المنبتر-أي النخلة التي اندق أصلها- الذين كانوا يصفون به محمداً ﷺ؟ أهو الذي قدر الله له حياته قدوة للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى قيام الساعة؟! في كل شيء، أهو الذي جعل الله له ذكراً على كل لسان، مؤمن به ومعاد له إلى قيام الساعة، أم هم الكافرون هم المنبترون، والصنابير المنبترة؟

وثمة حكمة أخرى هي أن هذا الأسى الذي كان في نفس رسول الله ﷺ مما عاناه من آلام اليتم، وكان يحب بفطرته أن يعوض الله عليه بالذرية من الذكور ممن يحملون اسمه ويستمتعون بحنان أبوته، فتشاء حكمة الله تعالى أن تحرمه من هذه النشوة النسبية ليعوضه نشوة إيمانية، وامتداداً إيمانياً عالمياً يتجاوز النسب، فيجمع أنساب الأرض كلها والشعوب كلها، والأجناس كلها لمحمد ﷺ، فيعلو ذكره فيهم أكثر مما يعلو بمن يحمل نسبه من الذرية، وكأنما أراد الله أن يجعل الرقة الحزينة جزءاً من كيانه، فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا يجنحون إلى الجبروت إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة والأثرة وعاشت في أفراح لا يخامرها كَدَر، أما الرجل الذي خبر الآلام فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين ومداواة المجروحين"[١٢٨]

---

(١٢٨) الغزالي، فقه السيرة ص٨١ .

وقد أصبح مال خديجة لبيت طيب، وسينفق - فيما سنرى بعد ذلك - على دعوة الإسلام. وكلما زادت أيامها معه ومعاشرته لها عليه الصلاة والسلام زادت معرفتها به وبكرم أخلاقه وحسن عشرته.

ولقد حفظ لها رسول الله ﷺ معروفها وقدر لها حسن معاملتها زوجة صادقة طيبة، عاشت معه قبل نبوته، وصبرت معه بعد نبوته، ووقفت معه سنداً قلبياً ومادياً حتى قال عليه الصلاة والسلام في شأنها فيما روى ابن عباس رضي الله عنهما قال:" خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، فقال: " أتدرون ما هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون"[(١٢٩)] ، وعن علي أبن أبي طالب قال عليه السلام:"خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة"[(١٣٠)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " أتى جبريل عليه السلام النبي فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام وطعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ، ولا نصب"[(١٣١)].

---

(١٢٩) أخرجه أحمد، ١/ ٣١٦، ٣٢٢ ، والطبراني في الكبير، ١١٩٢٨، والحاكم، ١٨٥٣، وأبو يعلى في مسنده رقم، ٢٧٢٢، وأحمد في فضائل الصحابة، ١٣٣٩، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح، ٧/ ١٣٣ وقال الهيثمي في المجمع، ٩/ ٢٢١ رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجالهم رجال الصحيح."أنظر توثيق ابراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص٤٦".

(١٣٠) رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب تزويج النبي خديجة، ٣٨١٥ ، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، ٢٤٣٠، والترمذي في المناقب، باب خديجة، ٣٨٧٧، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف، ٧/ ٣٩٥، وأحمد في المسند، ١/ ١١٦، ١٣٢ ، ١٤٣ ، وفي فضائل الصحابة، ١٥٦٣.

(١٣١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب تزويج خديجة وفضلها، فتح الباري رقم، ٣٨٢٠، / ١٣٣ ٧-١٣٤، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين، ٢٤٣٢، والترمذي في المناقب، باب فضل خديجة رقم ٣٨٧٦، وأحمد في المسند، ٢/ ٢٣١، والحاكم في المستدرك، ٣/ ١٨٥ وقال، صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي فيه، وليس الأمر كما

المبحث السابع
أوصافه الخَلْقية

لا تستغرب أن تتناول كتب السيرة شخصية محمد ﷺ الخَلْقية، مع تناولها شخصيته الخلقية قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام. فمحمد يعده الله عز وجل لأن يكون نبيه الخاتم للبشرية، ورسوله المجتبى، وسفيره إلى كل خلقه، يقيم الحجة على البشرية كافة. ومن يرشحه الله عز وجل لهذه الوظيفة، فإنه يكفل له كل ما يساعد على إنجازها وإتمامها، بحيث يجعل لصاحبها قبولاً في نفوس الناس، وبحيث لا يجد الناس فيه ما يعيبه خَلْقاً ولا خُلُقاً؛ فإن الضعفاء في تركيبهم النفسي وبنائهم الجسمي وتفكيرهم العقلي لا يصلحون لمثل هذه المهمة، فضلاً عن أن صاحبها من الضروري أن تتوافر فيه الصفات الطيبة، ولمحات الذكاء، وسلامة الفطرة، وسلامة الهيئة من كل ما يعيبها.

ولقد أشار الرسول ﷺ لهذا بعد مبعثه وهو يصف الأنبياء الذين رآهم ليلة الإسراء والمعراج فقد وصفهم بأوصاف خَلْقية حسنة.

فقد روى سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فقال : "أما إبراهيم فلم أر رجلاً قط أشبه بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه. وأما موسى فرجل آدم[١٣٢]، طويل ضرب جعد أقنى.. وأما عيسى بن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل، سبط الشعر، كثير خيلان الوجه، تخال رأسه نقطة ماء، وليس به ماء، أشبه رجالكم به عروة بن

قالاه، فقد أخرجه الشيخان كما ترى"انظر التوثيق في إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٤٦.

(١٣٢) الأدمة:السمرة، والأدم من الناس:الأسمر، انظر ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤١٠هـ=١٩٩٠م، ١٢/ ١١

مسعود" [١٣٣].

كما روى مالك بن أنس فيما روى الدارقطني أن النبي ﷺ قال:"ما بعث الله تعالى نبياً إلا حسن الوجه، حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً" [١٣٤].

بل لقد استرعى جمال هيئة الرسول ﷺ وحسن خلقته مع جمال في النفس ينعكس بهاءً على الوجه؛ رجلاً أعرابياً، سمع من المشركين بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام أنهم يتحدثون عن رجل كذاب، فلما لقي هذا الأعرابي محمداً ﷺ، راعه منظره، وحسن سمته، وإشراقة وجهه، وتلألؤ النور في جبينه عليه الصلاة والسلام، فسأله: من أنت؟ قال محمد بن عبدالله. فقال الرجل وهو يتفرس في وجهه: أأنت الذي تقول عنه قريش إنه كذاب؟ فقال الرسول الكريم: نعم. فقال الرجل: ليس هذا بوجه كذاب. ما الذي تدعو إليه؟ فذكر له الرسول ﷺ دعوته، فأعلن الأعرابي إسلامه" [١٣٥] .

بل إن مشركي قريش حينما أعيتهم الحيلة، وفشلوا في إسكاته وهو يدعو لدين ربه، جاؤوا فعرضوا على عمه أبي طالب أن يعطوه أنهد فتى من قريش، ويعطيهم محمداً ليقتلوه، وكأنهم في عرضهم هذا يهولهم حسن شبابه، فيعرضون على عمه شاباً نهداً حسن الخلقة بدلاً منه.

إن الذي يدعوني أن أسوق هذا الكلام عن خلقة رسول الله ﷺ اليوم بالاضافة

---

[١٣٣] ابن هشام، السيرة النبوية (ج٢ص١٥٥ والسهيلي، الروض الأنف ج٢ص١٥-١٥٣.وانظر الترمذي، الجامع الصحيح حيث وردت بعض جمل هذا الحديث ج٥ رقم ٣٦٤٩ ص٦٠٤ وقال حديث حسن صحيح غريب.وانظر ابن حجر، فتح الباري ج٧ ص٢١٠ وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ص٢٣١ ، ٢٣٨.

[١٣٤] ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)ج٢ ص ١٥٥ والسهيلي، الروض الأنف ج٢ ص١٥٢ وابن حجر ، فتح الباري، ج١ ص٣٨٨.

[١٣٥] أبو زهرة، خاتم النبيين، ج١ ص٣٨٨.

إلى ما ذكرت، هو التركيز على ضرورة التزام المنهج القويم في العلاقة به ﷺ. فنحن نؤمن به ولله الحمد نبياً ورسولاً، فارتباطنا بشخصيته رسولاً، وبمنهجه دستوراً، وحبنا له ينبغي أن يصدر من أعماق قلوبنا، لأنه إيمان، ولا يكفي أن نتغنى في أوصافه الخَلْقية، والخُلُقية في قراءة مولد، يتكسب بقراءته المتكسبون.

وإن الحديث عن سيرته عليه الصلاة والسلام واجب ديني، بل ما في هذه السيرة من أحداث وأوصاف، ذلك أن سلفنا الصالح كانوا يعلمون أبناءهم سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، لأنها الروح الحركية للدعوة ولأنها الترجمان العملي الحي المتحرك لآيات الكتاب الكريم وأحاديث السنة المطهرة وإذا ما تحدثنا فيها عن شخصيته وخلقته، فإنما نتحدث عنها لما لها من علاقة بدعوته وقبولها لدى الناس.

كما أن لي قصداً آخر مما سأسوقه إليك بعد قليل من أوصافه الخلقية كما وصفها صحابته رضي الله عنهم. هذا القصد هو أن كل مؤمن يجب أن يكون له تصور عن رسول الله ﷺ ويحب أن يلقاه عليه الصلاة والسلام ، ويتمنى أن يكون قد عاش مع رسول الله ونال صحبته، ولكن الله سبحانه وتعالى قد عوضنا عن هذه الصحبة بأنه ﷺ جعلنا إخوانه، فقد رويت أحاديث أن رسول الله ﷺ قال في مجلس لأصحابه:"وددت أني ألاقي إخواني! قالوا يا رسول الله، ألسنا إخوانك؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواني قوم يجيئون من بعدي، يؤمنون بي ولم يروني"[١٣٦]. وروى أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر قوله عليه الصلاة والسلام:"ليتني أرى إخواني وردوا عليّ الحوض فأستقبلهم بالآنية فيها الشراب فأسقيهم من حوضي قبل أن يدخلوا الجنة: قيل يا رسول الله ألسنا إخوانك؟قال:أنتم أصحابي، وإخواني من آمن ولم يرني.."[١٣٧].كما روي عن أنس قوله عليه الصلاة والسلام:"وددت أني لقيت

---

(١٣٦) ذكره ابن عساكر عن البراء.انظر علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري:كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج١٢ ، مؤسسة الرسالة ١٣٩٩هـ١٩٧٩م ص١٨٤..

(١٣٧) المرجع السابق ص ١٨٣.

إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني"[138] .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لقد ذكر لنا رسول الله ﷺ أن الله عز وجل قد يمن على رجل صالح بأن يريه حبيبه محمداً عليه الصلاة والسلام في الرؤيا، وتلك كرامة يمن الله بها على من يشاء من عباده. وإن صاحب الكرامة هذا لا يصح له أن يكون مدعياً، ثم يأتي من غَدِه ليحدث الناس بكرامته، لينتزع من نفوسهم حبّاً له على أنه من أولياء الله الصالحين، ولتصبح له ميزاته من بينهم، فيجلس في زاوية يتحدث الناس والمريدون عن كراماته، فما كان هذا قصد رسول الله ﷺ ولا منهجه ولا تربيته. بل إن بعض الأولياء الأوائل كانوا يعتقدون أن الذي يبوح بأسرار كراماته حرم منها، فقد قال بعضهم"من باح بالسر حرم". أقول: إن من رأى محمداً ﷺ في رؤياه، فلقد رآه حقاً إذ يقول عليه الصلاة والسلام كما في صحيح البخاري:"من رآني في المنام فقد رآني فان الشيطان لا يتمثل بي"[139].

---

(138) المرجع السابق ص163. وانظر قريباً منه في سنن الدارمي ج2 نشر دار إحياء السنة النبوية، ص308. وقد حكم السيوطي على حديث أنس بأنه حسن، انظر السيوطي، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، ط4، مصطفى ، الحلبي، القاهرة ج2 ص196.

(139) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ج12 كتاب التعبير رقم 6994.وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ج15 ص24.وانظر أحاديث ما جاء في رؤية رسول الله ﷺ في كتاب الشمائل المحمدية للترمذي.تحقيق سيد عمران، دار الحديث، القاهرة 1426هـ=2005م، باب 56 ص 214-217.

وهنا أضع الملاحظات التالية:

أولاً: لا بد للمسلم من أن يعرف ما ورد في السنة الصحيحة من أوصاف رسول الله ﷺ حتى يتأكد من أن الذي رآه في المنام هو رسول الله ﷺ.

ثانياً: إن رؤية الرسول في المنام نعمة من الله يهبها لبعض عباده الصالحين، وهي ليست مدعاة فخر على الناس بالصلاح والتقوى، ولا تكليف فيها بأمر شرعي جديد، لأن الله أكمل الدين وأتمه قبل انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فقال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة٣).

ثالثاً: لم يصح شيء مما يفعله المتكسبون من طريق الكرامات المدعاة أن من صلى على النبي صلوات معينة أو بأعداد محددة أنه يرى الرسول ﷺ في المنام.

رابعاً: كان الناس غير المسلمين يخلدون ذكريات عظمائهم بنحت التماثيل لهم، أو الصور ليحفروا في ذاكرة الأجيال القادمة الحب لتلك الشخصيات واحترامها وتقديرها والاقتداء بها، ولكن ديننا لا يقبل هذا اللون من التخليد، فديننا يقوم على منهج حب الاتباع لا تخليد الصور والتماثيل. ولهذا فقد روى علماء السير أوصاف النبي ﷺ كما وصفها أصحابه.

وللمزيد من التعرف على أوصافه الخلقية عليه الصلاة والسلام نذكر الأحاديث التالية[١٤٠] :

١- قال الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي: حدثنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد ، عن مالك بن أنس، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن أنس ابن مالك، أنه سمعه يقول: "كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا

---

[١٤٠] الترمذي، أبو عيسى محمد بن سورة، (٢٠٩-٢٧٩هـ)، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران، د.ط، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م، ص١١-١٢

بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق، ولا بالأدم، ولا بالجعد القطط، ولا بالسبط، بعثه الله تعالى على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على رأس ستين سنة، وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء." [141]

٢- حدثنا حميد بن مسعدة البصري، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، عن حميد، عن أنس بن مالك قال:" كان رسول الله ﷺ ربعة، ليس بالطويل ولا بالقصير، حسن الجسم، وكان شعره ليس بجعد ولا سبط، أسمر اللون، إذا مشى يتكفأ"[142].

٣- حدثنا محمد بن بشار(يعني العبدي)، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحق، قال : سمعت البراء بن عازب يقول:" كان رسول الله ﷺ مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجمة ، إلى شحمة أذنيه، عليه حلّة حمراء، ما رأيت قط أحسن منه." [143]

٤- حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: ما رأيت من لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ له

---

(١٤١) صحيح أخرجه البخاري في المناقب٦/٣٥٤٨، وفي اللباس١٠/ ٥٩٠٠، ومسلم في الفضائل ٤ / ١١٣ / ١٨٢٤، ومالك في الموطأ٢/ ١/ ٩١٩ وأحمد في مسنده ٣/ ٢٤٠. انظر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران، ص١١

(١٤٢) صحيح، أخرجه البخاري في المناقب٦/ ٣٥٤٧، ومسلم في الفضائل ٤/ ١٨١٩ ، والترمذي في اللباس ٤/ ١٧٥٤ وأحمد في مسنده ٣/ ٢٤٠ وقال أبو عيسى حديث أنس حديث صحيح غريب من هذا الوجه من حديث حميد "انظر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران ص١١.

(١٤٣) صحيح ، أخرجه البخاري في المناقب ٦/ ٣٥٥١ ومسلم في الفضائل٤/ ٩١/ ١٨١٨، وأبو داود في اللباس٤/ ٤٠٧٢، وابن ماجة في اللباس٢/ ٣٥٩٩ مختصراً، وأحمد في مسنده ٤/ ٢٨١." انظر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران ص١٢

شعر يضرب منكبيه، بعيد ما بين المنكبين لم يكن بالقصير ولا بالطويل"[144].

٥- حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا المسعودي ، عن عثمان ابن مسلم بن هرمز، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن علي بن أبي طالب قال: لم يكن النبي ﷺ بالطويل ولا بالقصير ، شثن الكفين والقدمين، ضخم الرأس، ضخم الكراديس، طويل المسربة، إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما ينحط من صبب، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ"[145].

٦- كان علي إذا وصف رسول الله ﷺ قال:" لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل الممغط، ولا بالقصير المتردد، وكان ربعة من القوم، لم يكن بالجعد القطط، ولا بالسبط، كان جعدا رجلا، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم، وكان في وجهه تدوير، أبيض، مشرب، أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد، أجرد، ذو مسربة، شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى كأنما ينحط في صبب وإذا التفت التفت معاً ، بين كتفيه خاتم النبوة ، وهو خاتم النبيين، أجود الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة

---

[144] صحيح ، أخرجه مسلم في الفضائل ٤/ ٩٢/ ١٨١٨ ، وأبو داود في الترجل٤/ ٤١٨٣ ، والترمذي في اللباس٤/ ١٧٢٤ ، وفي المناقب ٥/ ٣٦٣٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في الزينة ٨/ ٥٢٤٨. "انظر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران ص١٢

[145] صحيح وإسناد المؤلف ضعيف، أخرجه الترمذي في المناقب ٥/ ٣٦٣٧ وقال هذا حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك ٢/ ٦٠٦ وصححه ووافقه الذهبي وأحمد في مسنده ح٧٤٤، ٧٤٦ ، جميعاً من طريق عثمان بن عبد الله ابن هرمز عن نافع بن جبير بن مطعم عن علي.....به. في إسناده عثمان بن عبد الله ابن هرمز ، قال الحافظ في التقريب: فيه لين، ولكن للحديث طرق أخرى يتقوى بها منها: ما أخرجه أحمد في مسنده ٦٨٤ ، ٧٩٦ ، ٩٤٤ ، ٩٤٧ ، ١٠٥٣ ، ١١٢٢ ، ١٢٩٩ وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٤١٠-٤١٢ والبيهقي في الدلائل ١/ ٢٦٨، ٢٦٩ قلت: وجملة شثن الكفين والقدمين أخرجها البخاري في اللباس ١٠/ ٥٩١٠ من حديث أنس. "انظر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران ص١٢

هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ"[١٤٦]

٧- قال هند بن أبي هالة وكان -وصافاً- عن خِلقة النبي ﷺ: "كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع وأقصر من الشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيقته فرقها، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب، سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، مفلج الأسنان، دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادياً متماسكاً، سواء البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن ما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف-أو قال : سائل الأطراف- خمصان الأخمصين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زال تقلعاً، يخطو تكفياً ويمشي هوناً ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، ويبدر من لقي بالسلام" [١٤٧].

٨- عن جابر بن سمرة قال:"كان رسول الله ﷺ أشكل العين، منهوس العقب"[١٤٨].

([١٤٦]) إسناده ضعيف أخرجه المؤلف في المناقب ٥/ ٣٦٣٨ وقال حديث حسن غريب ليس إسناده بمتصل "أنظر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران ص١٣

([١٤٧]) إسناده ضعيف جداً، أخرجه ابن سعد في الطبقات١/ ٤٢٢-٤٢٣..."أنظر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران ص ١٤-١٥.

([١٤٨]) صحيح أخرجه مسلم في الفضائل٤/ ٩٧/ ١٨٢٠ والترمذي في المناقب ٥/ ٣٦٤٦، ٣٦٤٧ وقال

٩- عن جابر بن سمرة قال:"رأيت رسـول الله ﷺ في ليلـة إضـحيان، وعليـه حلـة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر"[١٤٩].

١٠-سأل رجل البراء بن عازب:"أكان وجه رسول الله ﷺ مثـل السـيف؟ قـال: لا، بل مثل القمر"[١٥٠].

١١-عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:" كان رسول الله ﷺ أبيض، كأنما صيغ مـن فضة، رجل الشعر"[١٥١].

١٢-عن جابر بن عبـد الله ، أن رسـول الله ﷺ قـال:" عـرض علـي الأنبيـاء، فـإذا موسى عليه السلام ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيـت عيسـى بن مريم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة ابن مسعود، ورأيـت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت بـه شـبهاً بصـاحبكم-يعـني نفسـه- ورأيت جبريل عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية"[١٥٢].

١٣-عـن يزيـد بـن هـارون، عـن سـعيد الجريـري، قـال : سمعـت أبـا الطفيـل،

هذا حديث حسن صحيح..."انظر التوثيق في الترمـذي، الشـمائل المحمديـة، تحقيـق وتعليـق سـيد عمران ص١٦-١٧.

(١٤٩) صحيح ، أخرجه الترمذي الأدي٥/ ٢٨١١ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الأشعث والدارمي في المقدمة١/ ٥٧...."أنظر التوثيق في الترمـذي، الشـمائل المحمديـة، تحقيق وتعليق سيد عمران ص١٧.

(١٥٠) صحيح ، أخرجه البخاري في المناقب ٦/ ٣٥٥٢ والترمذي في المناقب ٥/ ٣٦٣٦ وقال الدارمي في المقدمة ١/ ٦٤ وأحمد في مسـنده ٤/ ٢٨١."انظـر التوثيـق في الترمـذي، الشـمائل المحمديـة، تحقيـق وتعليق سيد عمران ص١٧.

(١٥١) صحيح ، وإسناد المؤلف ضعيف وللحديث شواهد كـثيرة يرتقـي بهـا إلى درجـة الصـحة "انظـر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران ص١٨.

(١٥٢) صحيح، أخرجه مسلم في الإيمـان١/ ٢٧١/ ١٥٣ والترمـذي في المناقـب٥/ ٣٦٤٩ وقـال حـديث حسن صحيح غريب وأحمد في مسنده ٣/ ٣٣٤"انظر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيـق وتعليق سيد عمران ص١٨.

يقول:"رأيت النبي ﷺ وما بقي على وجه الأرض أحد رآه غيره . قلت صِفْه لي. قال: كان أبيض، مليحاً مقصداً"[١٥٣].

١٤-وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:" كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين، إذا تكلم رئي كالنور يخرج من بين ثناياه"[١٥٤].

وإذا أردت المزيد من معرفة تفاصيل شمائله عليه الصلاة والسلام فقد عقد الترمذي في كتابه الشمائل المحمدية ستة وخمسين باباً تناول فيها كل دقائق خلقة رسول الله ﷺ وحياته الشخصية من خلقه وخاتم نبوته بين كتفيه وشعره، وترجله وشيبه وخضابه وكحله ولباسه وعيشه وخفه ونعله وتختمه وسيفه ودرعه ومغفره وعمامته وإزاره ومشيته وجلسته وأكله وشربه وطعامه ووضوءه وأدواته وأوانيه وعطره وكلامه وضحكه ومزاحه ونومه وصلاته وصومه وحياته وسنته وروايته[١٥٥]

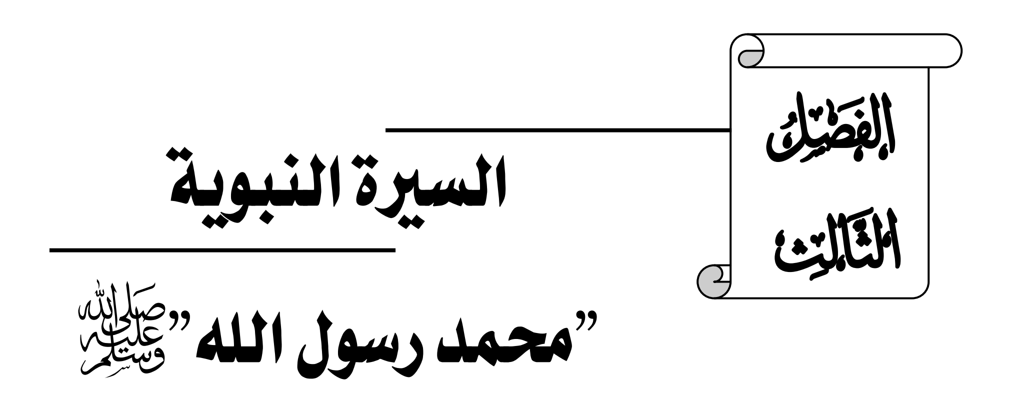
فاللهم أكرمنا برؤيته رؤيا حقة، وارزقنا حبه والالتزام بمنهجه، واسقنا يوم القيامة من كفه الشريفة ومن حوضه شربة لا نظمأ بعدها أبداً.

---

(١٥٣) صحيح أخرجه مسلم في الفضائل٤/ ٩٩/ ١٨٢٠ والبيهقي في الدلائل٦/ ٥٠١ وابن سعد في الطبقات١/ ٤١٨ والبغوي في شرح السنة ٧/ ٣٥٤٢" انظر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران ص١٩.

(١٥٤) إسناده ضعيف جداً أخرجه الدارمي في المقدمة ١/ ٥٨، والبغوي في شرح السنة ٧/ ٣٥٣٨ ، والبيهقي في الدلائل١/ ٢١٥ والطبراني في الأوسط كما في المجمع ٨/ ٢٧٩..." انظر التوثيق في الترمذي، الشمائل المحمدية، تحقيق وتعليق سيد عمران ص١٢.

(١٥٥) انظر الترمذي، الشمائل المحمدية، مرجع سابق ، الكتاب بكامله.



السيرة النبوية

"محمد رسول الله" ﷺ



السيرة النبوية

"محمد رسول الله" ﷺ

درج المؤلفون في سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام أن يقسموا مراحل الدعوة في مكة إلى عهدين: العهد السري والعهد الجهري. وتختلف عباراتهم أحياناً في المقصود بالسرية والجهرية، بحيث تتباين المفاهيم حول ما يسمى بسرية الفكرة وعلنيتها، وسرية التنظيم والعمل لنشر الدعوة وعلنيتهما.

وبالاستقراء يمكن أن نصطلح على تقسيم مراحل الدعوة في مكة إلى مرحلتين أيضاً، سرية وجهرية، والجهرية يمكن تقسيمها باعتبار المدعوين إلى مرحلتين؛ في أهل مكة وخارجها[156].

المرحلة السرية:

وتستغرق الأعوام الثلاثة الأولى من الدعوة.وتشمل في أهم أحداثها: نزول الوحي، وفترته، وحركة النبي ﷺ بأمر الله تعالى له بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وكسبه لأول أسرة في الإسلام، ثم انتقال هذه الدعوة عبر الاتصال الفردي إلى أبي بكر الصديق، والعشرة الأوائل المبشرين بالجنة.

المرحلة الجهرية الأولى:

تبدأ أحداثها من السنة الرابعة للبعثة، وتستمر إلى أواخر السنة العاشرة، بحيث تغطي مرحلة إعلان الدعوة بأمر الله تعالى لرسوله بقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء٢١٤)، وقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر٩٤)، وكل هذا لأهل مكة ، كما تشمل في أحداثها مواقف قريش من الدعوة والدعاة، والاضطهاد، والهجرة إلى الحبشة ، وإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما، والمقاطعة العامة للمسلمين وبني هاشم، وسائر التفاصيل في هذه الفترة الزمنية.

---

[156] صفى الدين المباركفوري، الرحيق المختوم، ط١، طباعة رابطة العالم الإسلامي سنة ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م ص٨٤.

المرحلة الجهرية الثانية:

والتي تبدأ من عام الحزن، ودعوة الرسول ﷺ لأهـل الطـائف، وطلـب النصـرة منهم، والإسراء والمعراج، ومقدمات الهجـرة إلى المدينـة وبيعـة العقبـة إلى إذنـه ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، ثم انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

المبحث الأول
نزول الوحي في غار حراء

عاش محمد ﷺ شبابه، ومراحل نضجه الأولى شخصية فريدة، ذلك أن الله سبحانه زوده بالفطرة السليمة التي لم تتلوث عقدياً، فلم يؤثر عنه أنه سجد لصنم قط طيلة حياته، وكان يبغض معتقدات قومه الوثنية. ولم تتلوث فطرته سلوكياً، فكان بإحساسه الفطري المرهف يبتعد عن لهوهم وفجورهم، ومجالسهم وشربهم وأطعمتهم المرتبطة بالشرك، بل كان يقف بعرفة في الحج في كل عام بينما كان أهل قريش يعتقدون أن خدمتهم للحرم وللحجيج هي حج بالنسبة لهم، تاركين نسكاً من عهد إبراهيم عليه السلام.

كما حبب إليه عليه الصلاة والسلام الخلوة والاعتزال عن الناس في السنين الأخيرة قبل مبعثه، فكان يعظم شهر رمضان، ويخرج فيه كل سنة خارج مكة، ليجلس ويتأمل في غار حراء، باحثاً عن الحق متأملاً صفحة هذا الكون، كتاب الله المفتوح، فإنه وإن حرم القراءة والكتابة في بيئة أمية رُكز فيها على أميته، فإن الله تعالى لم يحرمه من النظر والتأمل في الكون، فتلتقي في نفسه أنوار الفطرة مع موحيات الكون الدالة على بارئه، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم٣٠).

وبينما هو على هذه الحالة من التأمل والتحنث والتعبد فاجأه الوحي في الغار بعد أن اكتمل له سن الأربعين[١٥٧]، تروي لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

---

(١٥٧) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج٧ رقم ٣٨٥١ ص١٦٢ عن ابن عباس"أُنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين".وانظر صحيح مسلم بشرح النووي عن ابن عباس، ج١٥، ص١٠٣، والجامع

خبر أول لقاء للملك جبريل بالرسول ﷺ في غار حراء في حديث أخرجه البخاري في صحيحه قالت :" أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه-وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ . قال فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجَهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ العلق (١-٣)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده. فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني. حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة رضي الله عنها وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى – ابن عم خديجة- وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى. يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مُخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط

الصحيح للترمذي عن ابن عباس، ج٥، رقم٣٦٢١، ص٥٩١.

بمثل ما جئت إلا عُوديَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشِب ورقة أن توفي، وفتر الوحي"[١٥٨].

التحليل:

نجد في هذه الرواية الصادقة التي سجلت بعثته عليه الصلاة والسلام لفتات وإشعاعات نستضيء بها وهي:

أولاً: إصرار رسول الله ﷺ على الخروج والتفكر والتأمل بعيداً عن صخب الجاهلية وغفلتها، وفي هذا عبادة يهتدي بها الإنسان للحق أولاً، فيصفو فيها الفكر وينتعش بها الوجدان.

ثانياً: ظهور أثر هذه الاستقامة الفطرية والصفاء النفسي بالتأمل والعبادة على الفطرة في أن ألهم الله عز وجل رسوله محمد ﷺإليه في بداية النبوة، فظهرت عليه أول علاماتها وهي الرؤيا الصالحة، إذ كان لا يرى شيئاً في منامه إلا وقد تحقق من غده، والرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة"[١٥٩].

ثالثاً: نجد في سلوك خديجة رضي الله عنها، سلوك المرأة الصالحة التي تحسب لزوجها الاستقامة، فتُعدّ له زاده، في كل رحلة من رحلاته إلى غار حراء، دون أن تتحرج من غيبته عنها، وهذا شأن المرأة الصالحة، التي تثق بزوجها، وتُسَرُّ له، إذا ما رأته يسلك طريق الرجال الأقوياء، بل تعتز به وهو يبتعد عن طريق اللاهين والمترفين، إذ تدرك بفطنتها ورجاحة عقلها أن صفاء زوجها ينعكس سعادة على بيتها وعلى علاقته بها.

---

(١٥٨) صحيح البخاري بشرح فتح الباري.ج١ كتاب بدء الوحي رقم ٣ ص ٢٢. وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ، ص١٩٧-٢٠٤.

(١٥٩) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج١٢ كتاب التعبير رقم ٦٩٨٩ ص٣٧٣. صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ ص٢٢ مع اختلاف يسير. الترمذي، الجامع الصحيح ج٤ رقم ٢٢٧١ ص٥٣٢.

رابعاً: إن هذا التعبير عن الوحي بالحق في الحديث ليشير فعلاً إلى أن البحث عن الحق مهمة فطرية، للشخصية السوية، فلقد كان محمد ﷺ في تحنفه وتحنثه وتعبده وتفكره ، بعيداً عن الشرك بألوانه في مكة، باحثاً عن الحق، وإذا بجبريل عليه السلام ينزل عليه بأمر ربه مكلفاً له أن يكون رسول هذا الحق، يؤمن به ويمتلئ قلبه باليقين به، ويأمره بأن يكون داعية إليه إذ الحق لا يحتمل الإخفاء، بل هو نور لا بد أن يشع فينير ظلمات الكون وشعاب النفوس بعد أن أظلمت بالشرك والإلحاد واستبداد الطغاة المتحكمين في رقاب البشر وحرياتهم.

خامساً: إن هذا الحوار بين جبريل عليه السلام ومحمد ﷺ، حيث جبريل يطلب منه أن يقرأ، ومحمد يعتذر عن القراءة إذ هو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ويتكرر هذا الحوار، ليؤكد معنى أمية الرسول ﷺ، ذلك أنه بهذه الأمية تتبين عظمة المعجزة القرآنية، التي أنزلها الله عز وجل عليه لتكون معجزته الخالدة، حتى يظهر لكل ذي عقل أن حقيقة المعجزة وحقيقة الإعجاز في أن هذا القرآن ليس من عند محمد ﷺ، فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، وإنما هو كلام الله يوحى إليه، ولا يملك أحد أن يأتي بمثله، إذ هو ليس من تأليف بشر ولا من نظم شاعر ولا أديب.

سادساً: إن هذا الغَطُّ وهو الإمساك بشدة وقوة من جبريل بالنبي ﷺ والضغط عليه وعصره حتى يبلغ بالنبي الجهد والتعب، لَيوحي لنا بأن هذه الرسالة التي كُلف بها محمد ﷺ لتحتاج إلى الجهد والتعب، وأنها ثقيلة تحتاج من محمد ﷺ ومن كل من يسير على دربه داعية إلى ربه الاحتمال والصبر والجُهد.

سابعاً: إن في هذه الآيات التي أول ما علم جبريل محمد ﷺ إياها، وهي أول سورة العلق قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق١-٥)، لتشي بأن يحمل محمد ﷺ مفتاحاً جديداً يفتح به قلوب البشر، وحلاً لمشاكلهم العقيدية، التي ضاعت بسببها عقائد التوحيد، ألا وهي حاجة البشر إلى الله تعليماً كما هي حاجتهم إليه خلقاً. فهو مفتاح معرفة الخالقية لله وحده وضرورة رد الأمر في العلم لله وحده الذي

له الخلق والأمر. وهذه المعادلة هي التي أضاعتها فلسفات الأرض وتشوهت لدى أصحاب الأديان الإلهية من أهل الكتاب، عادت البشرية محتاجة إليها، وهي أساس رسالة محمد ﷺ، إنها معادلة تقوم على أن البشر محتاجون إلى الله خالقاً وهم محتاجون إليه معرفة وعلماً، فقرن الله تعالى بين نعمة الخلق ونعمة العلم. وهذا التصور الصحيح هو الذي لا بد للبشر أن يصدروا عنه ويردوا الأمر في كل شيء في حياتهم إلى الله سبحانه وتعالى.

ثامناً: إن هذه الكلمات التي هوّنت بها خديجة على قلب محمد ﷺ حينما عاد إليها خائفاً، فإذا بها تهدئ من روعه:" كلا يا ابن عم والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتكسب المعدوم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"، إن هذه الكلمات لتدل على هذه الوقفة الهادئة المطمئنة الرفيقة، من زوجة صالحة تعرف قيمة زوجها ونبل أخلاقه، وتُجلّي صفاته من خلال كلمات استجمعت بها عظمة شخصيته، مما يجعلها تؤكد له أن الله لا يخزيه ولا يضيعه.

تاسعاً: إن تلك الكلمات والتحليلات من ورقة بن نوفل لتدل على أن منبع الرسالات واحد، وأن الله سبحانه وتعالى قد ختمها برسالة محمد ﷺ، وأن طريق الدعوة إلى الله كما في خبرة ورقة من عنايته بكتابة الإنجيل ومعرفة العبرانية، لا بد أن تكلف صاحبها الكثير، حتى الخروج من المال والأهل والعشيرة والوطن، وأن صاحبها ثابت على دعوته صابر، وذلك من خلال تعليقه على الأمر، وأنه يَعِده أن يقف معه في الحق الذي سيدعو إليه ويناصره، إن أفسح الله له في حياته، وأدركه يوم يخرج فيه القوم رسولهم ويعادونه. ويبين له أن سنة معاداة القوم والظالمين جارية في معاداة داعية الحق، نعم ،"ما جاء رجل قومه بمثل ما جئت إلا عودي".

عاشراً: في هذا الخوف الذي أصاب رسول الله ﷺ من مفاجأة الوحي له، ومن حديثه مع زوجته خديجة رضي الله عنها لم يكن "يستشرف للنبوة، ولا يحلم بها، وإنما كان يلهمه الله الخلوة للعبادة تطهيراً وإعداداً روحياً لتحمل أعباء الرسالة. ولو كان عليه الصلاة والسلام يستشرف للنبوة، لما فزع من نزول الوحي عليه، ولما

فزع إلى خديجة يستفسر عن سر تلك الظاهرة التي رآها في غار حراء، ولم يتأكد من أنه رسول الله إلا بعد رؤية جبريل يقول له: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل، وإلا بعد أن أكد له ولخديجة ورقة ابن نوفل أن ما رآه في الغار هو الوحي الذي كان ينزل على موسى عليه السلام[١٦٠].

نعم، النبوة رحمة من الله، وحكمة يجعلها الله في من يشاء من عباده، وهي ليست موهبة، ولا تأملاً نفسانياً، ولا عبقرية، وإن كان الله تعالى يختار لها أصفياء من خلقه، وأذكياء يحسنون فهم دينه، وأمناء صادقين يحسنون أداء الأمانة، وإبلاغ الرسالة، وتحمل المسؤولية برجولة وشجاعة.

---

(١٦٠) مصطفى السباعي، السيرة النبوية ، دروس وعبر، ط٥، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م، ص٤٩.

المبحث الثاني

فتور الوحي

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾

هدأت نفس رسول الله ﷺ بعد أن سمع من ورقة ما أكد له ما رآه في الغار، حيث كان بعد أن ألقى إليه الملك بآيات ﴿ٱقْرَأْ﴾ وكان حينما خرج من الغار كلما نظر إلى السماء وجد الملك-جبريل عليه السلام- سادّاً عليه الأفق يقول له: يا محمد: لا تخف، أنا جبريل، وأنت محمد رسول الله. وبدأ محمد ﷺ يعد نفسه ليرى شيئاً جديداً، وراء هذه المفاجآت، وحيث قام له دليل واضح، على أن شيئاً جديداً جدّ في حياته. إن هذه الآيات التي علمها إياه جبريل في الغار، رسخت في قلبه، ولم يخف عليه أنه ليس مؤلفها، ولا منشئها، ولم يكن لديه علم بها ولا بموضوعاتها قبل هذه الساعة. إنه القرآن، المعجزة التي قامت دليلاً لمحمد نفسه على صدق نبوته، آمن بها أولاً، وإيمانه بها أولاً ضروري، حتى يستطيع أن يدعو غيره إلى الإيمان به.

فتور الوحي:

ولكن هذا الضيف الذي حل به فأرهبه وأرعبه، أصبحت نفسه تتوق إليه، فهو محبوب مرغوب مع كونه مرهوباً.

ولكن شاءت حكمة الله تعالى أن يفتر الوحي - أي أن يتأخر في الوحي إليه فترة من الزمن- . ولسنا مع الروايات التي تدعي أن غياب الوحي دام سنتين إلى ثلاث سنوات، لأن هذه المدة الطويلة كفيلة أن تضعف صاحبها، فضلاً على أن قضية هامة كهذه لا يحتمل أن تترك ثلاث سنوات دون أن يعلم صاحبها ما جرى، بل إن ثلاث سنوات، تكاد تنسي صاحب القضية قضيته. ويترجح في نظري من

استعراض الروايات أن هذا الانقطاع لم يزد عن نصف شهر إن لم يكن أياماً(١٦١).

وقد أساء بعض الكتاب فهم شدة الحيرة التي انتابت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشدة قلقه من انقطاع الوحي هذه الفترة أو فتوره ، حيث ذكر الزهري من بلاغاته داخل رواية البخاري أنه هام على وجهه وفي الجبال يسير على قمم الجبال الشواهق يريد أن يلقي بنفسه. وهذا الفهم فيه إساءة إلى رسول الله ﷺ إذ كيف يفكر بالانتحار! من كان رجلاً صافي الفطرة، راجح العقل، ورأى بأم عينيه جبريل يوحي إليه خير الكلام، ويعرفه بنفسه أنه جبريل، وأن محمداً هو رسول الله ﷺ، وطمأنه الرجل الخبير بكتب الوحي ورقة بن نوفل. بل إن الذي كان يجري معه هو البحث في الجبال وشواهقها عن حبيبه جبريل الذي كلمه، فكان يمشي ويسرح تفكيره حتى ليكاد يسقط عن شواهق الجبال، فيدركه جبريل ليطمئنه أنه لم يتركه، حتى يأذن الله لجبريل أن يتصل به ليوحي إليه والرواية موجودة في البخاري" وفتر الوحي حتى حزن النبي ﷺ- فيما بلغنا - حزناً حتى غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل، فقال له: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك"(١٦٢).

وقد علق الأستاذ مصطفى السباعي رحمه الله على هذه الرواية كان ذلك من حزنه فقال:" هذه الجملة يتردى من رؤوس الجبال حزناً بعد فتور الوحي" وإن كانت

---

(١٦١) ذكر المقريزي في إمتاع الأسماع ج١ ص١٤ مجموعة من الآراء في مدة فترة الوحي، يرى بعضها أنها كانت سنتين، وأخرى أنها كانت سنتين ونصف السنة. وفي تفسير ابن عباس أنها كانت أربعين يوماً، وفي معاني القرآن أنها كانت خمسة عشر يوماً، وفي تفسير مقاتل أنها ثلاثة أيام وقد رجحها .وانظر ابن حجر .فتح الباري ج١ص٢٧

(١٦٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٢/ ٣٥١-٣٥٢ ، ١/ ٢٢ ، ٨/ ٧٢٢ ، مسلم ١/ ١٣٩

في صحيح البخاري هي من بلاغات الزهري وليست موصولة [١٦٣].

وقد علق أكرم العمري على القصة بقوله:"ويوضح بلاغ الزهري الأزمة التي تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم لانقطاع الوحي ولكن بلاغ الزهري لا يصلح لإثبات الحادثة لتعارضه مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنه مرسل ضعيف"[١٦٤].

وواضح من الرواية تعبير كاد ولا تعني أنه أراد فضلاً عما فسرته بأنه كان لشدة حزنه وانشغال فكره ليكاد يسقط أو يهوي ولا أصدق من تصوير هذه الحالة التي كان يعانيها عليه الصلاة والسلام من تعبيره نفسه عن القصة، فقد روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يحدث عن هذه الفترة التي انقطع فيها الوحي، بعد قصة غار حراء سمعه عليه الصلاة والسلام يقول:" بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرُعبت منه فرجعت، فقلت زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ المدثر(١-٥)، فحمي الوحي وتتابع"[١٦٥]. وفي حديث جندب بن عبد الله البجلي قال:"اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثاً، فقالت امرأة: ما أرى شيطانك إلا تركك فأنزل الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (الضحى(١-٣) [١٦٦].

أما لماذا كانت هذه الفترة وهذا الانقطاع؟ فذاك لحكمة يريدها الله، كي يشوق

---

(١٦٣) مصطفى السباعي، السيرة النبوية، دروس وعبر، هامش ص٤٦

(١٦٤) العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ١٢٦-١٢٧ وضعف العمري هذه الرواية في هامش كتابه السيرة النبوية الصحيحة فقال........ينقل من هامش الكتاب ص ١٢٦-١٢٧ بنصه...

(١٦٥) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج١ كتاب بدء الوحي رقم ٤ ص٢٧ واللفظ للبخاري. صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص٣٠٦-٣٠٩ مع اختلاف يسير في اللفظ.

(١٦٦) رواه البخاري في فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي رقم ٤٩٨٣ ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي من الأذى رقم ١٧٩٧.

رسوله للوحي الذي روعه أول مرة وأخافه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن" الاتصال المباشر بين الإنسان وبين عالم الغيب أمر يرهق الطبيعة البشرية، مما يتطلب تهيئة ومراناً عليه. وهذا الاتصال بين جبريل عليه السلام ومحمد ﷺ من ذلك النوع من الاتصال(...) إن فتور الوحي كان من مستلزمات ترويض النفس البشرية وتهيئتها لذلك الاتصال. وفي الوقت نفسه الإعداد بنوع من المران لدور جديد في حياة الرسول ﷺ، ليس من مألوف البشر، بحيث يكون على كامل الاستعداد للنهوض بالمهام التي ستوكل إليه بكفاية وقدرة"[١٦٧]

ومن ناحية ثالثة يرى الغزالي" أن الروعة التي انتابته من هذه الصلة بين إنسان وملك تركت في نفسه أثراً من الجهد، كأنما كان يعالج عملاً مرهقاً صعباً. ولا عجب فقد ظل يعاني من التنزيل شدة أمداً طويلاً، وشاء الله أن يفتر الوحي بعد ابتدائه على النحو الذي أسلفنا حتى يكون تشوق الرسول ﷺ وارتقابه لمجيئه سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود"[١٦٨].

تكليف بالإنذار والتبليغ:

فلئن كانت الآيات الأولى نزلت عليه الصلاة والسلام في الغار، مفتاحاً لعقيدة جديدة، ودين جديد، أساسه رد كل شيء له خلقا وأمراً. وفيها تهيئة نفسية للرسول ﷺ، لدور جديد في حياة البشرية؛ فإن هذه الآيات التي نزلت عليه بعد تشوق وانتظار، كانت مرحلة من مراحل دعوته عليه الصلاة والسلام إذ هي مرحلة الدعوة الفردية، والتكليف الرباني بضرورة النهوض والقيام، وعدم التدثر فإن هذه البشرية تتابع فيها أنبياء ورسل قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر٢٤)، وإن الوقت قد حان لأن يجتمع أمرها على دعوة جديدة خاتمة. وإن صاحب هذه الدعوة ورسولها لا يتناسب مع مقامه ولا مع مهامه أن ينام وأن

---

(١٦٧) الأسمر، أحمد رجب، القدوة في السيرة النبوية، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م، ص١٠٢.

(١٦٨) محمد الغزالي، فقه السيرة، ط٤، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨٤هـ=١٩٦٤م ص ٩٤

يتدثر، وأنه لا بد من أن يقوم فينذر البشرية كلها، ولكن على مراحل: يبدأ فيها مرحلته الأولى بنفسه حاملاً دعوة الله عز وجل في نفسه وفي أقرب الناس إليه. وأن طبيعة هذه الدعوة لا تحتمل التخلف والاسترخاء والراحة وإنما تريد الجهد كله، لأنها في غايتها الكبرى تريد أن يفرد الله وحده وسبحانه في الكون كله بالعبادة، وأنه لا يكبّر سواه، قال تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر٣)، وأنه هو الله سبحانه الأكبر، وأن من يتعامل مع الكبير المتعال سبحانه لا بد له أن يتطهر باطناً وظاهراً؛ يتطهر باطناً بأن يطرد من نفسه كل ولاء للجاهلية، ويتطهر ظاهراً بأن يطهر ثيابه وجسمه، وأن يهيئ لنفسه الوسط النفسي الطاهر النظيف بالإيمان بالله وحده، وعبادته وحده، والاستعداد للقائه سبحانه بتزكية نفسه وقلبه، وأن يهيئ لنفسه وسطاً اجتماعياً في صحبة تهجر الباطل، وتهجر الأرجاز والأرجاس، أرجاز العقائد الفاسدة وأرجاس الشهوات القاتلة.

وهكذا بدأ الوحي يتتابع على رسول الله ﷺ، وهذه الصورة التي يأتي بها جبريل للنبي ﷺ على غير هيئته الملكية هي صورة من صور الإيحاء له. وثمة صور أخرى لنزول جبريل عليه السلام بآيات الله تعالى عليه، ذكرها رسول الله ﷺ منها:

أن الوحي كان يأتيه كدوي النحل. فعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: "كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده كدوي النحل"[169].

ومنها أنه كان يأتيه مثل صلصلة الجرس؛ حيث تروي السيدة عائشة قوله ﷺ: "وكان أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني – أي يتركني – وقد وَعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم

---

(169) قال الألباني في تخريج هذا الحديث:حديث ضعيف أخرجه الترمذي٢/ ١٥١/ ١٥٢ وذكر أن في سنده اختلافاً كما ضعف الألباني سائر رواياته، انظر هامش فقه السيرة للغزالي ص٩٥ وانظر ابن حجر: فتح الباري ج١ ص١٩..

الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا"[١٧٠].

ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه إلى فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضها[١٧١].

وقد ذكر الرسول ﷺ صورة من هذه الصور أيضاً في حديث فقال:" إن روح القدس نفث في روعي أنه ليس من نفسٍ تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته"[١٧٢].

ولعل في ابتداء الرسول ﷺ بالصورة الأولى عليه وهي نزول الملك حكمة، وهي أن إخباره مشاهدة وعياناً للملك من أقوى الصور التي تكون قريبة إلى نفسه، وتؤنسه وتؤكد له حقيقة أنه مبعوث ونبي، فمتى استقرت هذه الحقيقة كان للصور الأخرى استقرار بناء على الحقيقة الأولى، وفيها قطع للشبهة ولأية وسوسة شيطانية في أن هذه القضية هي عبقرية أو ذكاء أو فلسفة، بل إنما هي قضية جديدة خارجة عن محمد ﷺ بشخصيته البشرية، فهي علاقة خارجية، يأتي بالوحي مخلوق آخر هو ملاك، يوحي إلى مخلوق ليس من جنسه هو بشر- محمد ﷺ-، وكما

---

(١٧٠) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ج١.كتاب بدء الوحي، رقم٢ ص١٨ واللفظ عند البخاري.والترمذي، الجامع الصحيح، ٥/ ٥٩٧

(١٧١) ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، طبعة مصطفى الحلبي، القاهرة١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م.ج١ ص٣٢.رقم٣٦٣٤، ج٥ وابن حجر، فتح الباري، ١/ ١٩، ومسلم في الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي رقم ٢٣٣٣

(١٧٢) السهيلي، الروض الأنف، ج١ ص٢٦٩، ابن شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، ط١، مكتبة الرشيد، الرياض، ١٤٠٩هـ، ٧/ ٧٩ وورد بروايات أخرى مع اختلاف يسير في الألفاظ عن ابن ماجه في سننه، والشافعي في مسنده، وفي كل ضعف، ولم ينفرد به ابن ماجه، فقد رواه ابن حبان في صحيحه ، انظر أحمد بن أب بكر الكتابي(ت٨٤٠هـ)، مصباح الزجاجة، ط٢، دار العربية، بيروت ١٤٠٣هـ، ٣/ ٨

أسلفت: إن في هذا دليلاً لمحمد ﷺ نفسه يؤنسه أن ما جاءه إنما هو من عند الله، لا من عند نفسه. وهي دليل كذلك يشعر به بعض أتباعه، يؤنسهم أن رسولهم ﷺ، يأتيه وحي من خارج نفسه. وهي دليل كذلك للبشرية على أن محمداً ﷺ حُمِّل هذه الرسالة تحميلا وكُلِّف بها تكليفاً، واصطُفيَ لها اصطفاءً دون معرفة سابقة له بذلك، وهي كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ (النجم٣-١٢). بل هي القضية التي كان يعلنها محمد ﷺ كلما جاءه المشركون ليساوموه ويعرضوا عليه أن يترك ما هو فيه، وهم مستعدون لأن يعطوه كل شيء من دنياهم: مالاً، وجاهاً، ومُلكاً، وسيادة، فيرفض عليه الصلاة والسلام كل هذه العروض، ويعلن لهم أنه ليس له مطلب بشري من مال أو ملك أو جاه، وإنما قضيته أنه نبي يوحى إليه، يصور ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾(فصلت٦).

المبحث الثالث
أول أسرة في الإسلام

من أين بدأ النبي دعوته:

ما إن عرف رسول الله ﷺ مهمته، بعد أن ظهر عليه الوحي مرة أخرى وأوحى إليه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر١-٥) حتى انطلق يدعو إلى ربه سبحانه وتعالى، حيث علق رسول الله ﷺ للسيدة خديجة بعد نزول هذه الآيات: أن ولّى عهد النوم يا خديجة. أي بدأ عهد العمل والنهوض، والجد والاجتهاد، فإن الله تعالى قد كلفه مسؤولية كبيرة إنه النبي الخاتم والرسول للناس كافة، ومن هذه دعوته، وهذه رسالته وهذه وظيفته، فلم يكن للنوم والراحة طريق إلى حياته.

ولكن من أين يبدأ رسول الله ﷺ دعوته؟ وكل الناس من حوله جاهليون، يعبدون الأصنام، وترتبط حياتهم الجاهلية بولاءات فاسدة، وتسودهم فوضى عصبية، ونعرات إقليمية. وبأي أسلوب يبدأ؟ أيعرض نفسه ودعوته مرة واحدة على الجموع الغفيرة؟ أم يتجه إلى الأسلوب الفردي في نشر دعوته وتعريف الناس بها؟ ومن أي موضوع يبدأ؟ أيبدأ في إقناع الناس من خلال عرض واقعهم السيئ؟ أم يعرض عليهم أن يحل مشاكلهم الاجتماعية وما أعوصها؟ أو مشاكلهم السياسية وما أعقدها؟ أو مشاكلهم الاقتصادية وما أكثرها؟ أم يُعرض عن هذه الجزيئات ليبدأ معهم من الأساس من العقيدة والإيمان.

الإجابة عن هذه الأسئلة:

والإجابة على هذه التساؤلات ليست تخمينات، أو اجتهادات مجتهد، وإنما خير ما يجيب عليها هي الممارسة العملية لهذه الدعوة، كما مارسها رسول الله ﷺ مما سنعرضه من شعاع سيرته عليه الصلاة والسلام.

تروي كتب السير أن أول مجموعة آمنت برسالة محمد ﷺ، كانت مجموعة تمثلت

فيها شرائح المجتمع كله، وهي أسرة مكونة من : **زوج** هو رسول الله ﷺ، **وزوجة** هي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ، **ومولى** هو زيد بن حارثة رضي الله عنه، **وصبي** هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد كان يعيش في بيت رسول الله ﷺ.

إسلام خديجة رضي الله عنها وفضلها :

أما خديجة رضي الله عنها : فقد آمنت منذ أن عاد رسول الله ﷺ من غار حراء وحدّثها بما جرى له، واستأنست بكلام ورقة بن نوفل. وهي بهذا أول من آمن بهذا الدين، وبدأت تُعدّ نفسها لتعين رسول الله ﷺ على أداء وظيفته التي اختاره الله لها، وأخذت تؤازره وتشد عضده وتسانده وتهون عليه أمر الناس، وتخفف عنه من أعبائه النفسية بسبب إعراض الناس ومقاومتهم له؛ فعلت منزلتُها عند ربها فوق منزلة نساء جميع الأنبياء، واستحقت من ربها سبحانه وتعالى أن يرسل لها سلاماً مع جبريل عليه السلام، فقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:" أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنّي، وبشرها ببيت في الجنة من قَصَب، لا صخب فيه ولا نصب"[(١٧٣)]، فلما بلغت خديجة بذلك قالت:" الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام"[(١٧٤)].

نعم الجزاء من جنس العمل، فلقد أعانت هذه المرأة الصالحة زوجها عليه الصلاة والسلام في دعوته فأكرمها ربها سبحانه ببركات اسمه تعالى السلام. وكما أنها كانت السكن الصالح الهادئ استحقت من ربنا سبحانه أن يكرمها بالسكن الخالد الأبدي، وما أجمله من سكن، إنه بيت في الجنة من قصب، وكما أنها كانت تُروّح عن أعصاب رسول الله ﷺ وتهدئ الأجواء من حوله بعد التعب والنصب في

---

(١٧٣) صحيح البخاري: شرح فتح الباري ج٧ رقم ٣٨٢٠ ص١٣٣-١٣٤.

(١٧٤) الزيادة موجودة في الطبراني، انظر ابن حجر، فتح الباري ج٧ ص١٣٩

دعوة قومه، والصخب الذي يثيرونه من حوله ومعارضتهم له، استحقت من ربنا سبحانه أن يكون بيتها في الجنة لا صخب فيه ولا نصب. وكم كانت فرحتها بهذه البشارة مما ألهج لسانها بالثناء على الله سبحانه وتعالى! ويعلق صاحب شرح المواهب اللدنية على إجابتها فيقول: هذا من وفور فقهها حيث جعلت مكان رد السلام على الله تعالى الثناء عليه إذ قالت: الله السلام ومنه السلام، ولم تقل على الله السلام، بينما ردت السلام على جبريل.

إسلام زيد بن حارثة:

أما زيد بن حارثة، فقد كان أحد أفراد أسرة رسول الله ﷺ الملحقين بها، إذ كان مولاه ومتبناه قبل الإسلام. وقصة ارتباط هذا الرجل بهذه الأسرة يدل على مدى إكرام محمد ﷺ قبل مبعثه لمولى له، وكأن الله سبحانه يُعِد قلب محمد ﷺ لأن يكون رحيماً بهذا الصنف من الناس في مجتمع كان يذل العبيد ويحتقرهم، فيحترمه محمد قبل النبوة ويُحرّره ويتبناه. ولا أدل على ذلك من رضا زيد بن حارثة الإقامة في جوار محمد ﷺ وخدمته، وتفضيله ذلك على أن يلحق بأهله وعشيرته. تروي كتب السيرة[١٧٥] أن زيداً هذا هو زيد بن حارثة بن شرحبيل، وكان عربياً من بني كلب، أخذته جماعة من الفرسان وهو ابن ثماني سنوات، وباعوه في سوق من الأسواق وآل أمره إلى خديجة، ثم وهبته لمحمد ﷺ، فكان عبداً له **على مقتضى ما كان عليه الناس إبان ذلك وقد اعتقه وتبناه،** وكان ذلك قبل أن يوحى إليه، وقد جزع أبوه جزعاً شديداً وبكى لفقده وقال:

بكيت على زيد وما أدري ما فعل	أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدري وإني لسائل	أغالك بعدي السهل أم غاله الجبل
تُذكّرنيه الشمس عند طلوعها	وتعرض ذكراه إذا غربها أفل
وإن هبت الأرواح هيّجن ذكره	فيا طول ما حزني عليه وما وجل

(١٧٥) ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)ج١ ص٢٨٦.

وأخذ أبوه يبحث عنه جاهداً، لا يسأم التطواف، حتى عثر عليه عند محمد ﷺ قبل البعثة، فأكرم محمد ﷺوفادته، وخَيَّر زيداً بين أن يعود مع أبيه أو يقيم عنده. ولكن زيداً اختار أن يقيم عند محمد ﷺ عن الحرية مع أبيه وأمه وآله. وقد لامه أبوه، وقال له: يا زيد! تختار العبودية على أبيك وأمك وقومك؟ قال زيد: إني قد رأيت من هذا الرجل-أي محمد ﷺ- شيئاً وما أنا بالذي أفارقه أبداً. فحفظ له رسول الله ﷺ هذا الوفاء فأخذه بيده وتبناه، وقام إلى الملأ من قريش وقال: اشهدوا أن هذا ابني وارثاً وموروثا. ولما رأى أبوه ذلك طابت نفسه وتركه. وبقي زيد على هذا الحال يدعى زيد بن محمد، حتى أنزل الله تعالى حكم إبطال التبني وإبطال التوارث وردَّ نسب المتبنى إلى أبيه النسبي، قال تعالى﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب5).

وقد كان زيد هذا أحد أولئك الثلاثة الأوائل الذين أسلموا مع رسول الله ﷺ، وقد أخذ من رسول الله ﷺ لقباً في الإسلام لم يأخذ غيره حيث كان حِب رسول الله وكان ابنه أسامة الحبَّ بن الحب(١٧٦).

إسلام علي رضي الله عنه:

أما علي رضي الله عنه: فقد كان صبياً في رعاية رسول الله ﷺ، أخذه من أبيه أبي طالب، تخفيفاً لأعباء الحياة عليه، نظراً لكثرة عياله ورقة حاله.

وكان قد أصاب القوم أزمة اقتصادية، فقال محمد ﷺ لعمه العباس: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من الأزمة، فانطلق نخفف عنه من عياله، آخذ أنا منهم رجلاً، وتأخذ رجلاً فنكفيهما. فقال العباس: نعم، فذهبا إليه، وقال: نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه. فقال:

(١٧٦) "أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ"جزء من حديث صحيح أخرجه البخاري.انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج٧ حديث رقم ٣٧٣٢ ص٨٧ والمقريزي، إمتاع الأسماع ص١٦.

إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ النبي ﷺ علياً، وأخذ العباس جعفراً"[177]. والنبي ﷺ هنا يرد الجميل لعمه الذي سبق له أن رباه في بيته يتيماً، وكان يؤثره على أولاده في طعامه وعنايته به.

بعث رسول الله ﷺ وعلي في العاشرة[178] من عمره، تُلمح عليه علامات الذكاء وبراءة الفطرة، وله ارتباط وثيق بابن عمه محمد فهو قدوته ومربيه. ولقد كان رسول الله ﷺ بعدما بعث يصلي ركعتين في الصباح وركعتين في المساء على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في بيته، وتصلي معه زوجته ومولاه زيد، ولما رأى علي هذا المنظر أدرك أن شيئاً جديداً في البيت، وكان له موقف يرويه ابن اسحق فيقول:"إن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه جاء وهما (الرسول وخديجة) يصليان فقال:أيا محمد ما هذا؟! قال دين الله تعالى الذي اصطفى لنفسه، بعث به رسله، فأدعوك إلى الله تعالى وحده لا شريك له وإلى عبادته، وأن تكفر باللات والعزى. فقال علي: هذا أمر لم اسمع به قبل اليوم، فلست بقاصد أمراً حتى أحدث به أبا طالب. فكره الرسول ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال عليه الصلاة والسلام: يا علي إذا لم تسلم فاكتم. فمكث علي تلك الليلة ثم إن الله أوقع في قلب عليّ الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ما عرضت علي يا محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد. ففعل علي ذلك وأسلم وكتم علي إسلامه"[179] عن أبيه. إلا أن عيني أبي طالب كشفته وهو يصلي مع رسول الله ﷺ في شعاب مكة فجاء فسأل محمداً: "يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ فقال: أي عمّ. هذا دين الله ودين ملائكته ورسله، ودين أبينا

---

(177) الطبري، تاريخ الأمراء والملوك، ١/ ٥٣٨.

(178) ابن حجر، فتح الباري ج٧ ص٧٢.

(179) ابن كثير، البداية والنهايةج٣ ص٢٤.الكاندهلوي، حياة الصحابة.مجلد١، دار المعرفة، بيروت، ص٤٠

إبراهيم ، بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عمّ أحق من بَذلتُ له النصيحة، ودعوتُه إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني. فأجاب أبو طالب فقال: أي، ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك شيء مما تكرهه. ثم اتجه إلى ابنه علي فقال: أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال علي: يا أبت آمنت بالله ورسول الله، وصدقت بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته. فقال له أبو طالب: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه"[١٨٠] .

ومما ثبت في إسلام علي وأنه أول من أسلم من الصبيان، وأول من صلى معه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول من صلى مع النبي ﷺ بعد خديجة رضي الله عنها علي رضي الله عنه. وحديث زيد ابن أرقم رضي الله عنهما قال: أول من صلى(وفي لفظ)أو من أسلم مع رسول الله ﷺ علي"[١٨١].

وهناك تجد هذا الأدب من علي مع أبيه، إذ يريد أن يستشيره. إلا أنه لما ظهرت له الحقيقة، وأن القضية عقيدة وإيمان أدرك أنها لا تخضع لاستشارة أحد، إذ تلك هي خيرة الله، فاختار الإيمان بالله ورسوله.

وأما أبو طالب فقد كان رجلاً ذا مقياس جاهلي لا يريد أن يخرج على مفاهيم القوم. إلا أنه مع ذلك كان ذا شرف ورجولة، فقد أجاب محمداً في نصرته، ولم يجبه في دينه. وسلك مع ابنه سلوكاً ينمّ عن ثقة به، وثقة بمحمد الذي دعاه، ولم يضيّق عليه. وفي هذا عبرة لنا مسلمي هذه الأيام نتعظ بها بأن نحث أبناءنا على التوجه لطريق الخير ودعوة محمد ﷺ، وأن لا نضيق عليهم فيما أراد الله لهم ورسوله ﷺ من

---

(١٨٠) ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض الأنف)ج١ ص٢٨٥

(١٨١) أخرج الحديثين الترمذي في كتاب المناقب باب مناقب علي بن أبي طالب، رقم٣٧٣٤، ٣٧٣٥، وعلق الساعاتي على الحديث الأول في الفتح الرباني ٢٠/ ٢١٤، بأن سنده جيد، وقال الترمذي في الحديث الثاني:هذا حديث حسن صحيح وانظر أيضاً أحمد في مسنده١/ ٣٣٠-٣٣١ و٤/ ٣٦٨-٣٧١ والطيالسي ٢٧٥٣، والحاكم في المستدرك ٣/ ١٣٦ وقال عن الحديث الثاني:صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.انظر توثيق الحديث في هامش إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص٥٤

خير وكرامة، وعمل صالح يعيد لدينهم عزته، ولأمتهم هويتها وهيبتها.

المبحث الرابع
الدعوة الفردية

الطليعة الأولى: أوائل من أسلم من أهل مكة

إسلام أبي بكر الصديق:

تابع رسول الله ﷺ دعوته إلى الله سبحانه وتعالى. فبعد أن كسب أول أسرة مسلمة هي أسرته المتمثلة في زوجه خديجة ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه علي بن أبي طالب، قام فتوجه إلى ذوي العلاقات القوية به من الرجال الأصفياء، ممن يثق بهم ويثقون به. وكان من حصيلة هذا الأسلوب السري وبالدعوة الفردية في نشر الدعوة أن آمنت مجموعة طيبة؛ كان أنشطها بل محورها في التجميع هو أبو بكر، وهو صديق حميم لرسول الله ﷺ قبل البعثة. وإن جسر الثقة المتين بينهما جعل أبا بكر يؤمن بالإسلام دونما تلبث وانتظار حينما سمع عنه واستفسر من محمد ﷺ خبر هذه الدعوة. مما يؤكد لكل داعية إلى ربه أن الثقة بين الداعية والمدعوين هي أقوى وسائل الاتصال.

ومما يلفت النظر موقف رسول الله من أصحابه وأصدقائه، فصداقته لهم، وحبه لهم، يجعل من الوفاء معهم أن يعرض عليهم كل خير يراه، ويبذل جهده في إنقاذهم. وهذه هي واجبات الصداقة الوفية المخلصة، كما تشع بها سيرة رسول الله ﷺ العطرة.

ونستطيع أن نتعرف إلى هذه المعاني من مجموع روايات في دعوته ﷺ لأصدقائه، ودعوة أبي بكر لأصحابه حينما عرف الحق والتزمه.

فهذا أبو بكر يسمع بما جرى للرسول ﷺ في غار حراء، ويعلم من خديجة وإخبارها لابن عمها ورقة، فيؤكد أن صاحبه ليس غريباً عليه أن يكون مرشحاً لمهمة النبوة في إنقاذ البشرية؛ إذ عرف من حسن خلقه، وصفاء سريرته، ووفاء صداقته، وصدق حديثه الكثير الكثير، بحيث حينما فاتحه محمد ﷺ بالإسلام أسلم

من تَوّه، ولم يتلعثم، وإن كان ثمة روايات تشير إلى أنه سمع من أوساط المجتمع أن صاحبه يذكر أمراً جديداً ينكر به على الجاهلية عقائدها، فجاءه يستفسر منه حقيقة الأمر.

أخرج الحافظ أبو الحسن عن عائشة رضي الله عنها قالت:"خرج أبو بكر يريد الرسول ﷺ، وكان له صديقاً في الجاهلية فقال: يا أبا القاسم، فُقدت من مجالس قومك، واتهموك بالعيب بآبائها وأمهاتها. فقال رسول الله ﷺ: "إني رسول الله أدعوك إلى الله. فلما فرغ من كلامه أسلم أبو بكر. فانطلق رسول الله ﷺ وما بين الأخشبين(الجبلين المحيطين بمكة) أحد أكثر سروراً منه بإسلام أبي بكر"[١٨٢] .

وفي رواية ابن إسحق[١٨٣]: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لقي رسول الله ﷺ فقال: أحق ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى إني رسول الله ونبيّه، بعثني لأبلغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فوالله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته. وقرأ عليه القرآن، فلم يقرَّ ولم ينكر، فأسلم وكفر بالأصنام وأقر بحق الإسلام، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق.

وقال ابن اسحق: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي، أن رسول الله ﷺ قال: ما دعوت أحداً إلى الإسلام، إلا كانت عنده كبوة (أي سقوط) وتردد ونظر، إلا أبا بكر ما عكم (ما تلبث) حين ذكرته ولا تردد فيه.

وقد ذكر رسول الله ﷺ هذا الفضل لأبي بكر في حديث صحيح كما في البخاري عن أبي الدرداء رضي الله عنه فيما كان بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما من الخصومة وفيه: فقال رسول الله ﷺ: "إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت،

---

(١٨٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣ ص٢٩-٣٠. الكاندهلوي، حياة الصحابةج١، ص٣٧.

(١٨٣) ابن كثير، البداية والنهاية ج٣ ص٢٦-٢٧.الكاندهلوي، حياة الصحابة ج١ ص ٣٧-٣٨.

وقال أبو بكر صدق. واساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركولي[184] . صاحبي- مرتين- فما أوذي بعدها[185].

وهكذا دخل أبو بكر الإسلام، واستأنس به رسول الله ﷺ بأبلغ مما كان، واشتدت بينهما الصحبة؛ فبعد أن كانت الصحبة مبنية على مجرد الاستئناس النفسي والخلقي والتقارب في السن، أصبح الأنس بينهما في الإيمان بالله وحده، وبالمؤازرة في شدائد الحياة. واتخذ محمد ﷺ من مكانة أبي بكر وأنس الناس به، واحترامهم له قوة لدعوة الحق، فوق ما كان له هو عليه الصلاة والسلام من قوة نفس ومكانة عند الله وعند الناس[186].

---

(184) هكذا وردت في صحيح البخاري بشرح فتح الباري في موضعين ج٧ ص٦٨، ج٨ص٣٠٣ ، وقال ابو البقاء كما في فتح الباري ج٧ ص٢٥-٢٦ في التفسير (تاركون لي) وهي الوصية حتى قال أبو البقاء: إن حذف النون من خطأ الرواة . ووجه بعض الشراح لجواز حذف النون أن يكون صاحبي مضافاً وفصل بين المضاف إليه بالجار والمجرور عناية بتقديم لفظ الإضافة، وفي ذلك جمع بين إضافتين إلى نفسه تعظيماً للصديق...أو أن هذا الحذف جائز لاستطالة الكلام.

(185)صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ج٧ كتاب فضائل الصحابة ، رقم ٣٦٦١ ص١٨

(186) انظر أبو زهرة، خاتم النبيين، ١/ ٤٢٦

دعوة أبي بكر لعثمان:

وعجباً لهذا الإيمان إذا خالطته بشاشة القلوب ، فإنها تفجر طاقات عظيمة في النفس، لا تهدأ ولا تَكلّ ، حتى تحقق الغاية من وجودها وهي عبادة الله وحده، والدعوة لدينه شعوراً بالإنسانية المعذبة، ورفقاً بإنسانية الناس جميعاً، وإنقاذاً لها من مهاوي الهلاك. وها هو ذا الصديق يعرض على عثمان بن عفان هذه الدعوة. وقد كان لعثمان بالصديق صداقة وبمحمد ﷺ محبة، إذ كان ينوي في فترة مقاربة لتلك الفترة أن يتصل بمحمد ﷺ بمصاهرة، إذ هم أن يخطب منه ابنته رقية، إلا أن عتبة بن أبي لهب وهو ابن عم النبي ﷺ قد خطبها، فأصابت عثمان حسرة لذلك. وها هو ذا عثمان رضي الله عنه يروي قصة إسلامه فيقول:"كنت بفناء الكعبة فقيل إن محمداً أنكح عتبة رقية، فدخلتني حسرة ألا أكون قد سبقته إليها، فانصرفت إلى منزلي لأجد سُعدى بنت كُريز فأخبرتني أن الله أرسل محمداً. وقال إنها حثته على اتباعه وإن لم تكن قد ذكرت لمحمد إسلامها، ثم قال: كان لي مجلس من الصدّيق فأصبته فيه وحده فحثني الصديق على الإيمان قال: ومرّ ﷺ ومعه علي، فقام أبو بكر فسار، فقعد النبي ﷺ، ثم أقبل علي فقال: أَجِب الله تعالى إلى جنته، فإنني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه. فوالله ما تمالكت حين سمعته أن أسلمت ثم لم ألبث أن تزوجت رقية"[١٨٧] ذلك أن أبا لهب بلغت به الجاهلية أن حمل ابنيه عتبة وعتيبة على تطليق بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم.

(١٨٧) أبو زهرة، خاتم النبيين.ج١ ص٤٢٦

من أوائل من أسلم:

ثم أوصل أبو بكر الدعوة إلى الآخرين، وأسلم على يديه كذلك[١٨٨] الزبير ابن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمي. وكان هؤلاء الخمسة مع أسرة النبي ﷺ الثلاثة أوائل من أسلم، فهم طليعة الإسلام ورعيله الأول.

ثم تلاهم بعد ذلك أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني فهر، وأبو سلمة والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان، وعثمان بن مظعون وأخوه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد العدوي، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وخباب بن الأرتّ وعبد الله بن مسعود الهذلي وغيرهم، ومما ورد في إسلام بعض هؤلاء الصحابة:

إسلام سعد بن أبي وقاص:

فقد صح أن سعد بن أبي وقاص قد بقي أسبوعاً ثالثاً مسلماً ثم أسلم آخرون[١٨٩]، وأنه لما أسلم غضبت أمه ولامته لوماً شديداً، وقد حاولت جاهدة ثنيه عن متابعة محمد ﷺ؛ فقد ثبت عن سعد قوله:" حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب. قالت: زعمت أن الله وصّاك بوالديك؟ وأنا أمك وأنا آمرك بهذا.قال: مكثت ثلاثة أيام حتى غشي عليها من الجهد. فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا

---

(١٨٨) ابن هشام، السيرة النبوية(مع الروض)ج١ص٢٢٨-٢٩٠، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ٣/ ٢٩-٣٠

(١٨٩) انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ٧/ ٨٣، ١٧٠ ، ومسند أحمد، ، فضائل الصحابة٢/ ٧٤٩

فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (لقمان١٥)، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجروا فاها(أي فتحوا فمها) بعصا ثم أوجروها"[١٩٠].

وهذه الحادثة" تدل على صلابة موقف المؤمنين الأوائل أمام الفتن المتنوعة التي تعرضوا لها، كما تدل على أنماط المواجهة التي تجمع بين التأثير العاطفي والضغط النفسي حيناً وبين استخدام القهر والقوة أحياناً أخرى"[١٩١]

إسلام عبد الله بن مسعود:

وقد روى عبد الله بن مسعود نفسه خبر إسلامه فقال: "كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى علي رسول الله ﷺ وأبو بكر، وقد فرّا من المشركين، فقال: يا غلام هل عندك لبن تسقينا؟ قلت: إني مؤتمن ولست بساقيكما. قالا: فهل عندك من جدعة لم ينزُ عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم. فأتيتهما بها، فاعتقلها (وضع رجلها بين ساقه وفخذه ليتمكن من حلبها) أبو بكر، وأخذ الرسول الرسول ﷺ الضرع فدعا، فحفل الضرع (أي نزل منه الحليب بغزارة)، وأتاه أبو بكر بصخرة منقعرة، فحلب ثم شرب هو وأبو بكر ثم سقياني، ثم قال للضرع اقلص فقلص"(أي توقف عن إنزال الحليب فتوقف) فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ، قلت: علّمني من هذا القول الطيب-يعني القرآن-. فقال رسول الله ﷺ: إنك غلام معلَّم. فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد"[١٩٢].

---

(١٩٠) صحيح مسلم بشرح النووي، ١٥/ ١٨٥-١٨٧.وقد علق العمري في هامش كتابه السيرة النبوية على هذه الرواية بمعناها الواحدي في اسباب النزول ص ٣٩٥ بإسناد ضعيف فيه أحمد بن أيوب بن راشد وهو مقبول وتفرد بتوثيقه ابن حبان في تهذيب التهذيب ١/ ١٧، والتقريب ص ٧٧، انظر العمري السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٣٦

(١٩١) العمري، السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٣٦

(١٩٢) ذكر هذه الرواية العمري، السيرة النبوية الصحيحة١/ ١٣٧ وخرجها من أحمد في المسند ١/ ٣٧٩

وفي الحديث كما نرى دلائل نبوته ﷺ حيث حلب شاة أدر الله الحليب في ضرعها وهي ما زالت جدعة لم تحمل.

نساء أسلمن:

ولم يكن الإسلام يقتصر على الرجال، وإنما دخلت نساء في أوائل من أسلم. وفي هذه الطليعة الأولى منهن كما ذكر قبل قليل فاطمة بنت الخطاب، وهي أخت لعمر وزوج لابن عمها وهو سعيد بن زيد، وهو من الأوائل الذين أسلموا. ومن هؤلاء النساء أيضاً أسماء بنت عميس، وأسماء بنت أبي بكر وأسماء التميمية، وفاطمة بنت المجلل، وفكيهة بنت يسار، وسمية أم عمار، ورملة بنت عوف، وأم أيمن بركة حاضنة رسول الله ﷺ[١٩٣]. وأخذ رسول الله ﷺ يجتمع بهم وينظمهم ويربيهم.

تحليل:

هناك ثمة ملاحظات لا بد من تسجيلها على هامش إسلام هذا الجيل الأول من الصحابة:

أولها: وضوح دعوة رسول الله ﷺ للناس، فهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وهو بهذا يخرجهم من عصبياتهم الضيقة، وارتباطاتهم الجاهلية، ليعيشوا عباداً لله وحده. ولهذه الدعوة ميزة عجيبة في ظل مجتمع متمسك بالولاء للعشيرة والقبيلة إذ كان الارتباط بها ديناً لا يتحول الناس عنه يجمعهم في ذلك شعار القائل:

وابن أبي شيبة في المصنف١١/ ٥١٠ وابن سعد في الطبقات٣/ ١٥٠-١٥١ وقال إن إسناد الحديث حسن وقد صحح الذهبي إسناده في سير أعلام النبلاء، ١/ ٤٦٥ وفي إسناد عاصم بن أبي النجود، وقال عنه ابن حجر في تقريب التقريب ص٣٨٥ صدوق له أوهام وحديثه في الصحيحين مقرون، وقال عنه الذهبي في الميزان الاعتدال ٢/ ٣٥٧ حسن الحديث

(١٩٣) انظر الأسمر، القدوة في السيرة النبوية/ ص١٠٦

وهــل أنــا إلا مــن غزيــة إن غــوت   غويــت وإن ترشــد غزيــة أرشــد

ثانيها: نلاحظ من استعراض أسماء هذا الرعيل من الصحابة قلـة مـن تبـع محمـداً صلى الله عليه وسلم من بني هاشم. إن أقرب الناس إليـه وهـم أعمامـه لم يؤمنـوا بـه. فهذه المجموعة الأولى من المسلمين لا تجد فيها من بني هاشم إلا نادراً. بل يقوم أبو لهب بتطليق بنتيْ رسول الله ﷺ من ابنيه عتبة وعتيبة.

وفي هذا إشعاع واضح وعبرة عظيمة أن هذه الدعوة كانت فوق مستوى القبيلة والعشيرة، وأنها لم تكن استجابة بيئية لرئاسات قريش، ولم تكـن اسـتمراراً لزعامـة بني هاشم الدينية. بل كان لله حكمة كبيرة أن تنتهي زعامة بني هاشم في العـرب في نهاية أبي طالب، حتى يحول الله تعـالى الزعامـة مـن القبيلـة إلى العقيـدة الإيمانيـة، وليصبح محمد وهو في الذروة من قريش، ومن بني هاشم، نبي العـرب ونـبي العـالم ورسوله الخاتم للبشرية علـى أسـاس مـن التوحيـد والـدعوة لعبـادة الله وحـده لا شريك له.

وثمة حكمة أخرى من ضمور هذه الزعامة لبني هاشم حتى لا يقع بنـو هاشـم وهم البقية العليا من النسب الشريف المنتهي إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السـلام في عداوة الإسلام، ومحاربة رسوله بعد ذلك في المدينة، وبهذا حمى الله هـذا النسـب الشريف الهاشمي وبني هاشم من الوقوف في العداء لله ولدينه، ولذلك فقد تحولت الزعامة في مكة بعد ذلك لأبي جهل من بني مخزوم، ولأبي سفيان من بني أمية.

ثالثها: إن هذا التباين بين القبائل التي ينتمي إليها هـؤلاء الأوائـل ليـدُل دلالـة قاطعة على أن رابطة جديدة أخذت تظهر وتأخذ بعدها الاجتماعي في هذا الوسط الجاهلي من مكة، ألا وهي رابطة الأخوة في الله، وهي رابطة بديلة عن كل الروابط القبلية.

وفي هذا خروج واضح من روابط الـدم والعصـبية القبليـة إلى رابطـة العقيـدة والإيمان والأخوة في الإسلام.

رابعها: إن هؤلاء الذين آمنوا بالحق وساروا في طريقه، ولم يكن قد نزل من الإسلام بعد إلا القليل، قد آمنوا به دون أن يستعرضوا نظمه وتشريعاته، وإنما دفعهم للإيمان بهذا الحق دليل أقوى من الأدلة المادية، ألا وهو الدليل الفطري القائم في النفس الإنسانية، وهو رصيد الحق في الفطرة وصدق الله العظيم ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم٣٠). ودليله الذاتي وهو رصيده العقدي في أول كلماته إيمان بالله وحده لا شريك له، وعبادة لله وحده لا شريك له، وفي غايته: وهي مرضاة الله والجنة، وفي داعيته رسول الله ﷺ، وهو الصادق الأمين الثقة، حسن الأسلوب، وفي الصحبة الطيبة من أوائل من أسلم.

خامسها: وفي توزيع أوائل المسلمين في قبائل مختلفة ومتعددة في مكة ومن غير أهل مكة ما ينفي أن تكون هذه الرسالة لقبيلة معينة أو أنها لقريش زعيمة العرب وحدها، نعم" لقد انتشر الإسلام في المرحلة المكية في سائر فروع قريش بصورة متوازنة دون أن يكون لإحدى عشائرها ثقل كبير في الدعوة الجديدة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك.

وهي إذ أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي والعصبية القبلية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها، فإنها في نفس الوقت لم تؤلب عليه العشائر الأخرى بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها، وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى.

ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية؛ فأبو بكر الصديق من (تيْم) وعثمان بن عفان من (بني أمية) والزبير بن العوام من (بني أسد) ومصعب بن عمير من (بني عبد الدار) وعلي بن أبي طالب(من بني هاشم) وعمر بن الخطاب من (بني عدي) وعبد الرحمن بن عوف من (بني زهرة) وعثمان بن مظعون من (بني جمح). بل إن عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش فعبد الله بن مسعود

من هذيل، وعتبة بن غزوان من مزن، وعبد الله بن قيس من الأشعريين، وعمار بن ياسر من عبس من مذجح، وزيد بن حارثة من كلب، والطفيل بن عمرو من دوس، وأبو ذر من غفار، وعمرو بن عبسة من سليم، وعامر بن ربيعة من عنز بن وائل، وصهيب النمري من بني النمر بن قاسط. لقد كان واضحاً منذ الوهلة الأولى أن الإسلام ليس خاصاً بمكة وقريش."[194].

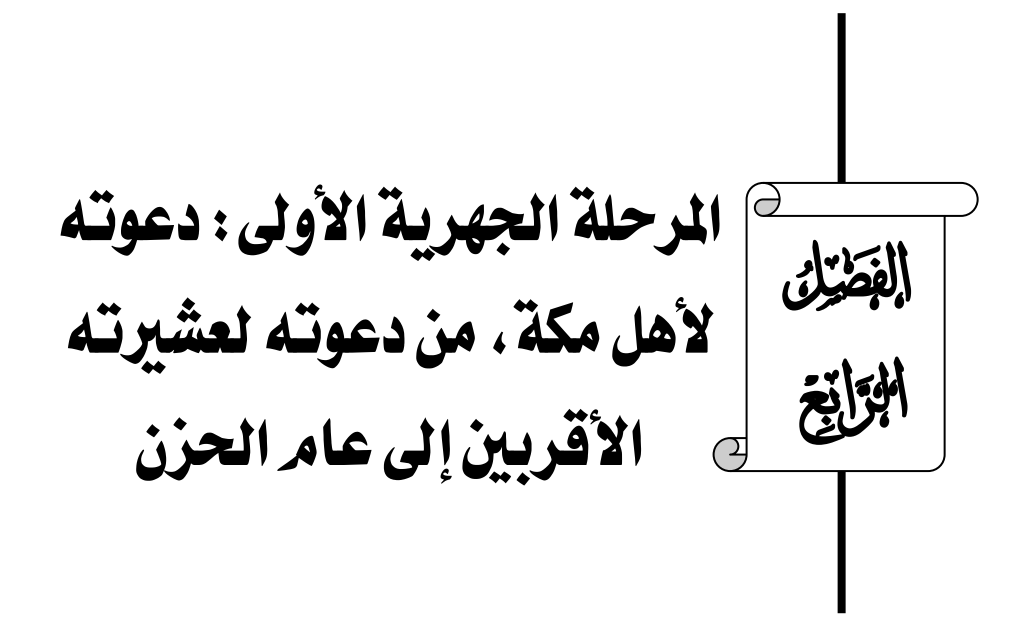
فضلاً عن أن هذا التوزع بين القبائل يجعل حماية متبادلة للأفراد المسلمين، إذ لو كانوا من قبيلة واحدة لاجتمعت عليهم قبائل العرب لتحاربهم عن قوس واحدة، وكان أيضاً لا يجرؤ أحد من القبائل على قتل مسلم من قبيلة أو عشيرة أخرى لأن القبيلة تحميه عصبياً حتى ولو كان على غير دينها، لما للعصبية من قوة حماية. حتى اتفقت قبائل مكة يوماً على أن تضرب كل قبيلة من أسلم منها، لتؤدب سفهاءها! كما زعمت حتى لا تقع بينهم حروب أهلية بسبب من أسلموا.

وسادسها: لم يقتصر الأوائل في الإسلام على الرجال، وإنما شاركتهم نساء أسلمن، وهذا يؤكد دور المرأة في الإسلام، وأنها كانت مع الطليعة الأولى. فالإسلام دين الله للناس كافة، رجالهم ونسائهم، أحرارهم وعبيدهم. وهذا الدخول للمرأة في الإسلام كان يقابله إهمال كامل لدورها لدى الأمم والشعوب وكانت تورث للولد بعد موت أبيه إن كانت زوجة أخرى لأبيه.

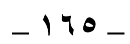
---

(194) العمري، أكرم، السيرة النبوية الصحيحة، 1/ 133





المرحلة الجهرية الأولى: دعوته لأهل مكة، من دعوته لعشيرته الأقربين إلى عام الحزن



المبحث الأول

دعوته ﷺ لعشيرته الأقربين

استمر رسول الله ﷺ في دعوته للناس سراً ثلاث سنوات، حتى أنزل الله تعالى عليه قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء٢١٤). وهنا فهم النبي ﷺ **أن مرحلة السرية قد تحولت إلى علنية**، وأنها بدأت مرحلة الاتصال الجماعي مع الاتصال الفردي؛ ذلك أن دعوة الحق لا بد أن تتجاوز دائرة النفر القليل، إلى الدائرة الأوسع؛ تبدأ بالعشيرة والقوم من حوله، ثم تتسع لتتناول الجوار الآخرين من العشائر والقبائل الأخرى. والمدن والقرى المجاورة، إلى البلاد الأخرى، والأقطار المعمورة ثم تتسع لتصل إلى الإنسان في الأرض كلها.

والرسول ﷺ وهو يربي المجموعة الأولى، يتحرك في المجتمع ليكسب مزيداً من المؤمنين. ولا تضر علنية الدعوة بسرية الحركة والتنظيم ولا تتعارض مع التخطيط، إذ بسرية الحركة يبني رسول الله ﷺ جماعته ويربيهم على الأخوة والجندية والسمع والطاعة والشورى، وغير ذلك من مفاهيم تكوين القيادات للمجتمع، وبعلنية الفكرة يكسب الأنصار الجدد، وهو بهذا يرسي قاعدة من قواعد الدعوة إلى الله، وهي سرية التنظيم والتخطيط مع علنية الفكرة.

يقول عماد الدين خليل"ومن الطبيعي أن يبدأ رسول الله ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين؛ إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته. كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لا بد وأن يكون له وقع على بقية القبائل(...) على أن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش؛ لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن **اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية**"[١٩٥].

---

(١٩٥) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة النبوية، ص٦٦.

وها هو ذا رسول الله ﷺ يدعو عشيرته الأقربين ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف[196]. وكانوا خمسة وأربعين رجلاً، فبادره أبو لهب بدهاء وخبث حتى يُفوِّت عليه الفرصة، ويشحن الجو من حوله، ويستفز قومه فلا يؤازرونه فقال: وهؤلاء هم عمومتك وبنو عمك، فتكلم ودَع الصُّباة- الذين خرجوا عن دين الآباء- واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك ، فَحسبُك بنو أبيك. وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يَثِبَ بك بطون قريش وغيرهم من العرب. فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشرٍّ مما جئت به. فسكت رسول الله ﷺ لم ولم يتكلم في ذلك المجلس. ثم دعاهم مرة أخرى.

وكما يروي البخاري في صحيحه: "خطبهم النبي ﷺ فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله. والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة. والله إنكم لتموتُنَّ كما تنامون ، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتُحَاسَبُنَّ بما تعملون، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً. فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك وأقبَلَنا لنصيحتك، وأشدَّنا تصديقاً لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أُمرت به فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب. فقال أبو لهب: هذه والله السوءة، خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم. فقال أبو طالب: "والله لَنمنعنَّه ما بقينا"[197]. وانتهى هذا الموقف بإقامة الحجة على العشيرة والأقربين.

وروى مسلم طرفاً من دعوة النبي ﷺ لعشيرته بعد نزول قوله تعالى عليه: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ (الشعراء٢١٤) فعن أبي طريف رضي الله عنه قال:" دعا

---

(١٩٦) ذكره الغزالي في فقه السيرة.ص١٠٢وقد خرجه الألباني من الصفحة نفسها وقال: نسبه إلى ابن الأثير، وإذا كان الراوي جعفر بن عبد الله بن الحكم فالإسناد مرسل ضعيف ولم أقف على إسناده.

(١٩٧) المرجع السابق ص١٠٢-١٠٣

رسول الله ﷺ فعمَّ وخصّ، فقال: يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار. فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها[198].

تحليل:

وفي هذا الموقف لرسول الله ﷺ لم درس لكل مسلم يريد الخير لنفسه وأمته، أن يبدأ كما بدأ رسول الله ﷺ بدعوة أسرته ثم وسطه الاجتماعي القريب، العشيرة والقبيلة والأهل والأنساب والأصهار والجيران، ذلك أن كسب هؤلاء للخير يدعم مهمة الداعية بين الناس، وبالتالي يقيم الحجة عليهم، ويمكنه بعدها أن يتحول إلى من بعدهم.

١ - مواقف العشيرة:

ونلاحظ أن العشيرة تقف من الداعية موقفاً من ثلاثة:

- فبعض يؤمن بالإسلام ويصبح داعية له، وينخرط في سلك المسلمين الدعاة.
- وآخر يقف في طريق الإسلام، ويحارب دعوته كأبي لهب.
- وثالث لا يؤمن بالدعوة، ولكن يجامل صاحبها، ولا يقف على الحياد فحسب، وإنما يدافع عن الداعية، بدافع القرابة والعصبية، يَحول بين الداعية وبين الأذى المتوقع وصوله إليه كأبي طالب.

٢- حنكة في الأسلوب:

والداعية إزاء هذه المواقف لا بد أن يكون واضحاً متميزاً تميز رسول الله ﷺ في دعوته؛ فلا يجامل ولا يداهن ولا يساوم ولا يتنازل عن شيء مما يدعو إليه.

والداعية لا بد له أن يفيد من هذه الإشعاعات من سيرة رسول الله ﷺ فلا يُجَهِّل الآخرين في أسلوبهم وملاحظاتهم ومجادلاتهم، فها هو ذا رسول الله ﷺ

---

[198] صحيح مسلم١/ ١١٤، صحيح البخاري١/ ٣٨٥، ٢/ ٧٠٢، مشكاة المصابيح٢/ ٤٦٠ وانظر المباركفوري ، الرحيق المختوم، ص٩١.

يفهم حينما رأى ذلك الموقف الخبيث من أبي لهب الذي شحن الجو من حوله في أول لقاء مع العشيرة، أن الوقت غير مناسب لعرض دعوته، لأن أبا لهب قد أفسد الجو عليه حين بادر بالإنكار عليه، وحاول تأليب العشيرة عليه، وهدده، ولذا فقد سكت، لكنه لم يلبث أن دعاهم مرة أخرى مستفيداً من الدرس الماضي، فبادرهم النبي ﷺ بالحديث هذه المرة وفوَّت على أبي لهب الفرصة، فما كان من أبي لهب إلا أن انتظر حتى فرغ النبي من قوله، وإذا بأبي طالب يعلق فيقطع الطريق على أبي لهب، فينجلي الموقف عن إصرار أبي طالب على نصرة رسول الله ﷺ ومنعه، وبهذا انتصر رسول الله ﷺ بهذه النتيجة، وأُسقط في يد أبي لهب.

٣- الاستفادة من الحماية مع الثبات على المبادئ:

ولا بد من التنويه هنا إلى أنه لا بد أن يستفيد الداعية من أي دعمٍ غير مشبوه من قبيلته وعشيرته، ومن مجتمعه، ما دام ذلك الدعم قائماً على غير مساومة ولا تنازل عن المبادئ التي يدعو إليها. وهكذا فعل رسول الله ﷺ، فقد قبل حماية أبي طالب له، ولم يرفضها مع أنه لم يؤمن معه برسالته، وإنما أعلن عن حمايته له حبّ قرابة وعصبية وليس اتباع شرع، وحينما شعر مجرد شعور بأن عمه للحظة من اللحظات كادت قريش تقنعه وتؤثر عليه فيما بعد، فطلب من محمد ﷺ أن يخفف عنهم، حيث جاء وفد من قريش مرة لأبي طالب وقالوا له: "يا أبا طالب ان لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا، قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكُفّه عنا، أو نُنازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين"[199]، أعلن رسول الله ﷺ في منتهى الصراحة والقوة والرجولة لعمه موقفه فقال: "والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته. فقال أبو طالب: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء

---

[199] ابن هشام، السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص٤.

أبداً[200].

ويمضي رسول الله ﷺ في دعوته، ويقف في سبيله الطغاة كأمثال أبي لهب عمه، الذي كان له طبع جاف، وخلق سيىء قاس تؤجه نيران حقد لزوجته أم جميل، أخت أبي سفيان وهي من بني أمية، وقد كان بنو أمية ينافسون بني هاشم الشرف، فهي تكره أن تكون النبوة في بني هاشم، وأثرت على مواقف زوجها من ابن أخيه حتى كان من أعدى أعدائه وهي عدوة رسول الله ﷺ، وعدوة خديجة رضي الله عنها، والتي قامت بمساعدة زوجها في اختراع صنوف الأذى لرسول الله ﷺ حتى استحقت وزوجها ناراً ذات لهب، كما جاء في الصحيحين-البخاري ومسلم-: أنه لما نزل قوله تعالى:﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء٢١٤)، صعد النبي ﷺ إلى الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال رسول الله ﷺ: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (المسد١-٥) "[201]

الانتقال إلى الطور العلني بالكامل:

وهكذا حاول رسول الله ﷺ أن يقوي أمر دعوته بدخول عشيرته في الإسلام،

---

(٢٠٠) المرجع السابق ص٥. وانظر ابن الربيع الشيباني، حدائق الأنوار ومطالع الأسرار(تحقيق عبد الله الأنصاري) ، طبعة قطر، القسم الأول ص٣٠٦.

(٢٠١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ٨/ ٧٣٨ وصحيح مسلم من حديث ابن عباس١/ ١٩٤ وقد مرت رواية لأبي هريرة قبل قليل، وثمة رواية لعائشة.وكما يقول ابن حجر: هي مراسيل صحابة لأن الثلاثة لم يشهدوا الحادث، انظر فتح الباري٨/ ٥٠٢، ٥/ ٣٨٢، ومسلم بشرح النووي٣/ ٨١ وراجع التوثيق للأحاديث عند العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ١٤٢.

تحمل معه الإسلام، وتحميه، وإذا بالله سبحانه وتعالى ينزل عليه قوله: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الحجر٩٤).

وهنا انتقلت الدعوة إلى طورها العلني الكامل، تخوض معركة كبيرة مع الجاهلية في مكة على طريق المعركة مع الجاهلية في الأرض كلها. وبدأ رسول الله ﷺ وجماعته يغزون كل تجمعات المجتمع، ويفيدون من كل فرصة تجمع للناس، فاقتحم عليه الصلاة والسلام الأسواق الأدبية والتجارية، سوق عكاظ، وذي المجنة، وذي المجاز، يدعو إلى الله تعالى، ويغزو كذلك تجمعات الحجيج القادم إلى مكة. روى الإمام أحمد بسنده قال: أخبر رجل يقال له ربيعة بن عباد قال: رأيت رسول الله ﷺ في سوق ذي المجاز وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب[٢٠٢].

التحليل:

ونأخذ من هذا: أن الباطل لا يهدأ ولا ينام إذا شعر أن الحق بدأ يتململ. كما نأخذ من ذلك أن المعركة بين الحق والباطل قائمة. وأنه كلما اشتدت ظروف الاضطهاد والمطاردة للدعاة إلى الله سبحانه وتعالى فما ذلك إلا لأنهم على الحق. وأن الجاهلية لا تفتأ تخطط بكل الأساليب والوسائل لمحاصرة الدعوة إلى الله وتحجيمها والقضاء عليها إن استطاعت، أو احتوائها ومساومتها إن تمكنت، أو تأليب الناس عليها وإفقادها الرأي العام من حولها كما كان يفعل أبو لهب.

وانفجرت مشاعر الغضب استنكاراً للصوت الذي يسفه الأصنام وتقاليد الجاهلية، وتخوفاً من انتهاء السيادة القائمة على الصبغة الدينية الموروثة والمستثمرة مادياً وكسباً باسم البيت، وتجارياً باستثمار مكة ملتقىً تجارياً.

أما نفوس الجاهلية وحياتهم فقد كانت فاجرة تخشى النظافة والطهر

(٢٠٢) ابن كثير:ابداية والنهاية ج٣ ص٤١ رواه عن أحمد.

والاستقامة وتنكر الآخرة،قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (القيامة٥-٦).

كما تحاول الجاهلية أن تفرق من حول الدعوة إلى الله أولئك الذين يعيشون في نعيم، وترف، وحياة مليئة بالضياع وفقدان الهوية والشخصية بمختلف الأساليب الفكرية والتوجيهية؛ كيما تترك للشعوب فرصة تتفكر فيها بنفسها وبتجربتها وإنسانيتها وهويتها وبالقضايا الكبيرة في حياتها. ومع ذلك كله، فلا بد أن ينفلق الليل الداجي عن فجر مشرق منير، وأن يخرج شعاع الأمل من معاناة وألم.

ردة فعل الجاهلية:

وقد أخذ أهل مكة يرسلون الوفود وفداً بعد آخر إلى أبي طالب يشتكون إليه محمداً -ابن أخيه- وأنه سب آلهتهم وعاب دينهم وسفه أحلامهم. وها هم أولاء كذلك يخططون لهجمة **إعلامية شرسة** على كل مواقع التجمعات في الحجيج والأسواق يحذرونهم من محمد ﷺ، ويتهمونه بأنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه، وبين أفراد العشيرة فيشق وحدتها، ويمزق صفها.

وأخذوا يمارسون كل أساليب السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب، من أجل تخذيل المؤمنين، وتوهين معنوياتهم.

كما أخذوا يشوهون الحقائق، ويبثون الشبهات في طريق الدعوة، بمختلف أساليبهم الشيطانية.

ولكن أنى يتحقق لهم شيء من هذا وإصرار الداعية لله وثباته يحطم الأغلال، ويُعلي أنوار الحق المنتصر بإذن الله تعالى، فلا يملك الظالمون والذين يعيشون الظلام أن يطفئوا أنوار الحق مع بزوغ فجرها، واستعلاء رجالها وانتشار أشعتها التي تكشف زيغ الباطل، وتبدد ظلمات الجاهلية ودياجير الظلام، ليظهر الحق، ولينتشر الحق، وليختفي الباطل، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ

ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف٨-٩).

المبحث الثاني
ضغوط

دخلت دعوة رسول الله ﷺ طورها العلني، واتخذ الرسول دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزاً للتربية والتخطيط والتوجيه. وشاع نبأ الإسلام بين العامة والخاصة، وبدأت تخترق بيوت مكة وقبائلها، إذ استقر وجود فئة جديدة وتركيبة اجتماعية لم يعرفوا مثلها في حياتهم، إذ هي مجموعة من مختلف القبائل، يربط أفرادها إيمان بالله وبرسول الله ﷺ وأُخوة ومودة، وتخضع لتربية وتوجيه تبتعد بها عن حياة الجاهلية وممارساتها، وتحمل دعوة جديدة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتخرج لممارسة شعائر جديدة ، تصلي في شعاب مكة.

شعور بخطورة المسلمين:

وهكذا بدأ المجتمع الجاهلي يستشعر خطر هذه المجموعة، وبدأ كيانه يتصدع ويتشقق؛ بما لهذه الدعوة الجديدة من قوة ذاتية، واتساق مع الفطرة كفيل بهذا التصديع، وصدق الله إذ يقول: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الحجر٩٤). واختيار كلمة **الصدع** هنا في الآية معجز، وقد أخذ عدد المسلمين يتنامى ويكثر إلا أن زعماء قريش وقادتها تكاد تفلت أعصابهم لما يرون من هذه الحركة في المجتمع، إذ أخذت تسري سريان الماء في العود، وتنتشر انتشار النور في تبديد الظلام.

ولهؤلاء القادة والزعماء مكاسب جاهلية، حققوها في أوضاع جاهلية قائمة على انتهاك حريات الناس، وادعاء أخص خصائص الألوهية في حياة الشعوب ألا وهو الأمر والحكم والتوجيه. ولهذا فإن في تحرر الشعوب بدعوة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تهديداً واضحاً وصارخاً يُفلت الجماهير من قبضة الزعماء، ويدفعها نحو وعي جديد بذاتها ودورها في الحياة، كما تكشف هؤلاء الزعماء، وتُعرّي حقيقتهم؛ مما يدفع هذه الجماهير للتمرد عليهم.

فماذا يفعل القادة والزعماء إزاء هذا الخطر المحدق؟

اجتمعوا يخططون ومشاعر الغضب تتفجر على ألسنتهم وفي وجوههم رفضاً

واستنكاراً واستغراباً ودفاعاً عن المكاسب تحت شعار الدفاع عن دين الآباء والأجداد.

ضغوط على أبي طالب:

وفي ظل مجتمع قبلي لم يجرؤوا فيه على أن يقدموا على إيذاء محمد ﷺ، وقد أعلن عمه أبو طالب بوجه خاص أنه سيحميه ولا يفرط فيه، فأخذوا يتّبعون أساليب الضغط والتأثير والإحراج الاجتماعي لأبي طالب ومن ذلك:

يذكر ابن هشام في السير عن ابن إسحق أنه" لما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعتبهم-أي لا يرضيهم- من شيء أنكروا عليه من فراقهم ، وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَدَب عليه-رق له وعطف عليه- وقام دونه فلم يُسلِمه لهم. مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب. إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تَكُفَّه عنا، وإما أن تُخلّي بيننا وبينه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه"[٢٠٣].

ولكن رسول الله ﷺ لم يأبه لأساليب الضغط عليه من طريق عمه، مما جعلهم يتذمرون ويفكرون في إيذائه، ولكنهم جاءوا هذه المرة بحيلة جديدة وغريبة ، يهددون بها أبا طالب. وقد وصل بهم الغباء والطيش من فرط الحقد أن يعرضوا على أبي طالب أن يعطوه شاباً بدلاً من محمد ﷺ، وأن يعطيهم محمداً ليقتلوه! وكأن أبا طالب قليل العيال والشباب يريد مزيداً منهم. ويا ليت الأمر وقف عند ذلك بل ويعطيهم من هو أحب من أبنائه إليه ليقتلوه! ما أتفه الجاهلية وما أسخف تفكيرها! إنها لا تُعمل عقلها، وإن الحقد يتأجج في صدرها فيفقدها منطق العقل وسلامة التفكير وبعد النظر. وما أجمل رد أبي طالب على هذا العرض السخيف من زعماء قريش. يروي لنا ذلك ابن هشام فيقول:

---

(٢٠٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ١/ ٢٦٥

"ثم إن قريشاً حين عرفوا أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه-أي تركه لهم-، وإجماعه لفراقهم في ذلك، وعداوتهم مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة. فقالوا: يا أبا طالب، هذا عمارة ابن الوليد، أنهد فتى في قريش-أي أقوى وأشد- فخُذه فلك عَقَله ونصرته، واتخذه ولداً فهو لك. وأسلم إلينا ابن أخيك-أي محمداً ﷺ- هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفّه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل. فقال: والله لبئس ما تسومونني! تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلوه! **هذا والله لا يكون ابداً**، فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً. فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ فاصنع ما بدا لك"[٢٠٤].

أساليب أخرى في محاربة رسول الله ﷺ:

وهكذا حينما وجدت قريش أن لا فائدة من الضغط على أبي طالب، قررت أن تسلك سبلاً أخرى، وأن تخوض مختلف الميادين، في محاولة وقف هذا المد الإسلامي للدعوة الإسلامية. من هذه الأساليب:

أسلوب السخرية والاستهزاء والتحقير والتكذيب: من أجل توهين عزائم المؤمنين بهذه الدعوة. بل قامت كل قبيلة ووثبت على من أسلم منها بالضرب والتعنيف والتعذيب، مما جعل أبا طالب يخشى أن يصيب رسول الله ﷺ منهم أذى، فجمع بني هاشم وبني المطلب ودعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ[٢٠٥]، والقيام دونه فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلا ما كان من أبي لهب عدو الله.

التفكير باغتيال رسول الله ﷺ:

---

(٢٠٤) المرجع السابق ج٢ص٥

(٢٠٥) المرجع السابق ج٢ ص٩

ولا نستغرب أنهم فكروا باغتيال محمد ﷺ، إذ يروي لنا ابـن سـعد[٢٠٦] روايـة انفرد بها تشير إلى محاولة مبكرة لاغتيال الرسول ﷺ ولكنها فشلت، حيث اجتمعـوا وقالوا: إنه لمن الخير أن نغتال محمداً، فلما كان مساء تلك الليلـة فُقِـد الرسـول ﷺ، فبحث عنه أبو طالب فلم يجده، فظن أنه قد أصيب بمكروه، فجمـع فتيانـاً مـن بـني هاشم وبني المطلب، وأمر كلا مـنهم أن يحمـل حديـدة صـارمة-أي سـيفاً- لقتـال زعماء القوم، إذا ثبت قتلهم لمحمد ﷺ، إلا أن أبا طالب سرعان مـا أُبلـغ أن محمـداً يجلس الآن في داره بالصفا بمنأى عن الشر. وفي اليوم التالي صحب أبو طالب ابـن أخيه إلى أندية القرشيين، ومعه فتيان من بني هاشم والمطلـب، وراح يقـول لهـم: يـا معشر قريش ، هل تدرون ما هممت به؟ قالوا :لا. فأخبرهـم الخبر. وقال للفتيـان: اكشفوا عما في أيديكم. فكشفوا، فإذا كل رجل منهم يحمل حديدة صارمة. فقـال: والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحداً حتى نتفانى نحن وأنتم. فانكسر القوم.

ولعل هذا الفعل من أبي طالب **قد أرهب القرشيين** أو أسقط في هذه الفترة ما في تفكيرهم، بحيث انكشف هذا التفكير، **مما حقق تعزيزاً جديـداً لحمايـة محمـد** ﷺ فترة من الزمان كانت كافية لتربية جماعته وتنظيمهم.

اتهامهم للنبي ﷺ بالجنون والكذب:

إلا أنهم لم يكفوا عن وسائل الأذى الأخرى، فأخذوا ينادونه بالمجنون، ويصفونه بأنه ساحر وكذاب[٢٠٧]. وقد سجل الله تعالى هذه الصنوف من الأذى في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾ (الحجر٦)، وقال سبحانه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾(ص٤) وكانوا ينظرون إليه وإلى جماعته نظرات مليئة بالاستهزاء والنقمة قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ

---

(٢٠٦) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج١ قسم١ ص١٣٥

(٢٠٧) المباركفوري: الرحيق المختوم ط١ رابطة العالم الإسلامي مكة سنة ١٩٨٠ ص٩٤.

كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ (القلم٥١) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ (المطففين٢٩-٣٣).

كما أخذوا يعلنون حرباً لا هوادة فيها على القرآن، ويصفونه بأنه أساطير الأولين، وأنه يملي على محمد وأنه اكتتبه ، وأن الذي يعلمه بشر، وأنهم يستغربون كيف يرسل الله بشراً، ويتعنتون في طلب المعجزات المادية، وكأن الذي ينقصهم هو الدليل. وقد سجل الله تعالى أن موقفهم هذا لم يكن بسبب نقص في الدليل، ولكنه عناد واستكبار قال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام٣٣) وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل١٤).

حرب إعلامية:

وقد لجؤوا مع هذه الحرب النفسية إلى إعلان حرب إعلامية دعائية، وخصوصاً في أوساط الحجيج القادم إلى مكة. وقد عقدوا مؤتمراً إعلامياً تفجرت فيه قريحتهم عن **ضرورة توحيد الإعلام المعادي** لرسول الله ﷺ، بحيث لا تتباين اتهاماتهم للرسول، مما قد يؤثر على الرأي العام فلا يصدقونهم. «اجتمع قادة قريش من حول الوليد بن المغيرة، وكان أرجحهم عقلاً وأسنهم-أي أكبرهم سناً-، فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا؛ فأجمعوا فيه رأياً واحداً لا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضا. فقالوا: نقول كاهن. قال: والله ما هو بكاهن. لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. -والزمزمة هي الكلام الخفي الذي لا يسمع- قالوا: فنقول مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالُجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه وقريظه ومقبوضه ومبسوطه فما

هو بالشعر. قالوا فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأيت السحار وسحرهم فما هو بِنَفْثهم ولا عُقَدهم. قالوا فما تقول أنت يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجَناة. وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: **ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته**. فتفرقوا عنه بذلك. فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذّروه إياه وذكروا أمره»[٢٠٨] وفي اتهام الوليد هذا نزل قوله تعالى﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ (المدثر١٨-٢٥).

وهكذا لا تترك الجاهلية باباً تسد بها طريق الخير إلا سلكته، وهي تتحرك في كل الجهات، وعلى مختلف الأصعدة؛ السياسية والاجتماعية والنفسية، والجماهيرية والإعلامية، ولكنها لا تدري أنها بكل هذه الوسائل لا تزيد الدعوة إلا وضوحاً في نظر الناس، ولا تزيد الدعاة إلا قوة وثباتاً، بل إنها لتلفت النظر إلى أمر هذه الدعوة ورسولها ﷺ مما يغري الناس بالتأمل في ما تقوله الجاهلية من تهم وما تعرف عن الرسول من صدق وبراءة مما ينسب إليه، فيتأكد لهم صدقه وكذب كل الحملات الإعلامية الكاذبة من أعدائه، فينقلب السحر على الساحر، فتجني الجاهلية ثمرة غبائها وحقدها ثماراً مرة وعكسية من كل تصرفاتها. قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (الصف٨).

---

[٢٠٨] ابن هشام، السيرة النبوية (الروض) ج٢ ص١١-١٢

المبحث الثالث

صبر الرسول ﷺ على أذى قومه

استمرت قريش في حربها لرسول الله ﷺ ولدعوته وجماعته، وأحكمت خططها العامة والخاصة، وجندت كل قوى الشر للحيلولة دون وصول دعوة الإسلام إلى القبائل القادمة إلى مكة. وأردفت حربها الإعلامية والنفسية، بتوجيه الأذى الشخصي لرسول الله ﷺ.

عزة الداعية وهيبته:

يروي عبد الله بن عمرو بن العاص خبر اجتماعهم وتخطيطهم لأذى رسول الله ﷺ فيقول: "حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ. فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط! سفَّه أحلامنا وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم. فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى أستلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت. فلما مر بهم غمزوه ببعض القول. قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ. فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه الرسول ﷺ. ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح"[٢٠٩] .وأشار بيده.

ولقد كان ﷺ مهيباً فيهم رغم عداوتهم له، وقلة أنصاره مع ضعفهم، إذ أن الداعية إلى ربه إذا ما اتصل بالله سبحانه ، وتحرر وجدانه من كل شيء سوى الله، فإن الله سبحانه يجعل له هيبة في قلوب أعدائه، بل إن الله ليقذف الرعب منه في قلوبهم. وكان يبين ذلك رسول الله ﷺ فيقول: "نصرت بالرعب"[٢١٠]. وهناك حوادث كثيرة في سيرته عليه الصلاة والسلام تشع بهذا المعنى. ولذا فماذا تتوقع

---

(٢٠٩) ابن هشام، السيرة النبوية (الروض) ج٢ ص٣٣.وابن حجر:فتح الباري ص١٦٨-١٦٩

(٢١٠) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ج١٢، كتاب التعبير رقم ٦٩٩٨، ص٣٩٠.

أن كان جوابهم له ﷺ حينما غمزوه وهددهم بالذبح، في جو لم يشرع فيه قتالهم، وفي وقت لا يستطيع أن يدافع فيه عن نفسه، فقد أجابه أبو جهل بقوله: "انصرف يا أبا القاسم! فوالله ما كنت جهولاً"[211] .

ولقد تهدد أبو جهل مرة محمداً ﷺ في غيابه كما أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال أبو جهل: يُعفّر وجه محمد بين أظهركم؟ فقيل: نعم. فقال واللات والعزى لئن رأيته لأطأنه على رقبته، ولأعفّرن وجهه. فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي- زعم ليطأن على رقبته-، فما فاجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه وهو يقبض بيديه. فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً"[212] .

كما أنه كلما زاد إخلاص الداعية لدينه ودعوته استعلى بإيمانه على أعدائه، وكان أمل المظلومين في الأرض كلها. يروي ابن إسحق فيقول: "قدم رجل من أراش بإبل له من مكة، فابتاعها منه أبو جهل، فمطله بأثمانها-أي لم يدفع له رغم المطالبة الكثير، له بذلك-. فأقبل الأراشي حتى وقف على نادي قريش، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس. فقال: يا معشر قريش، من رَجلٌ يؤديني على أبي الحكم بن هشام فإني رجل غريب ابن سبيل، وقد غلبني على حقي؟ فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس- لرسول الله ﷺ وهم يهزؤون به، لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة- إذهب إليه فإنه يُؤديك عليه. فأقبل الأراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قبله، وأنا غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه، يأخذ لي حقي منه فأشاروا لي إليك فخذ لي حقي منه يرحمك الله.

---

[211] ابن هشام، السيرة النبوية(مع الروض) ج٢ ص ٣٣

[212] السهيلي، الروض الأنف ج ٢ ص ٥١. صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧ ص ١٣٩ -١٤٠. البخاري بشرح فتح الباري ٨/ ٧٢٤

قال: انطلق إليه، وقام معه رسول الله ﷺ فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم: اتبع فانظر ما يصنع؟ قال : وخرج رسول الله ﷺ، حتى جاءه فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: محمد فاخرج إلي. فخرج إليه، وما في وجهه رائحة، قد انتقع لونه-أي اصفر وجهه من الخوف-. فقال: أعط هذا الرجل حقه. قال: نعم لا تبرح حتى أعطيه الذي له. قال: فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه. قال: ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للأراشي: الحق بشأنك. فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لي حقي. قال: وجاء الرجل الذي بعثوا معه. فقالوا ويحك ماذا رأيت. قال: عجباً من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه وما معه روحه، فقال له: أعط هذا حقه. فقال: نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه(...) ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء. فقالوا له ويلك مالك، والله ما رأينا مثل ما صنعت قط! قال: ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب علي بابي وسمعت صوته، فمُلئت رعباً، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل، ما رأيت مثل هامَتِه ولا قَصرته ولا أنيابه لفحل قط. والله لو أبيت لأكلني[٢١٣] .

الداعية ينصر المظلومين:

وفي هذه القصة مشروعية أن يقوم الداعية بنصرة المظلوم- إن كان قادراً على ذلك-. كما أن فيها أن الله سبحانه وتعالى يحقق الأمن لدعاته بأن يجعل لهم في قلوب الناس هيبة، وفي قلوب الأعداء خوفاً. وأن الداعية لا تخيفه التهديدات والتوعدات، وقد أحكم علاقته بربه سبحانه.

يروى أن أبا جهل قد وعد المشركين أن يحطم رأس رسول الله ﷺ بحجر وهو ساجد، وأقبل فعلاً والحجر بيده حتى إذا دنا منه رجع منبهتاً ممتقعاً لونه، مرعوباً قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده. وقام إليه رجال من قريش فقالوا: ما بك يا أبا الحكم؟ قال: قمت لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت

---

(٢١٣) ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض) ج٢ ص ١٣٣. ابن كثير، البداية والنهاية ج٣ ص٤٥

منه عرض لي دونه فحل من الإبل والله ما رأيت مثل هامته ولا قصـرته[٢١٤] . ولا أنيابه لفحلٍ قط، فهمَّ أن يأكلني"[٢١٥] .

القادة قدوة حتى في التعرض للأذى:

كما أن رسول الله ﷺ قدوة الدعاة إلى الله سبحانه، وقدوة القـادة مـن الـدعاة، لقد كان يؤذى مع أصحابه وقبلهم، ذلك أن قائد الدعوة هو أول مـن يصـل إليـه الأذى، وأن تقدمه لقيادة الدعوة معنـاه أن يتعـرض قبـل غـيره وأمـام غـيره لكـل صنوف الأذى والعذاب. **فالقيادة مسؤولية ورجولـة وتكليـف،** وليسـت تشـريفاً. وكم تشرب نفس الجندي بالإخلاص والثقة حينما يرى قائده أمامه يعـاني ويصـبر ويصابر، فها هو ذا رسول الله ﷺ يتلقى الأذى وجنديُّه أبو بكر معه لا يؤذى، وإنمـا يدفع عنه. وهو يتربى **تربية ميدانية** من موقف رسوله القائد. يروي البخاري بسنده عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بـن العـاص: أخبرنـي بأشـد مـا صـنعه المشركون بالنبي ﷺ. قال: بينما النبي ﷺ في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معـيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ قال:" أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟!"[٢١٦] .

ولم يسـلم ﷺ مـن الأذى؛ في مسـجده، ولا في بيتـه، ولا في طريقـه، ولا مـن جيرانه، ويذكر أنه كان يرى النفر الذين يـؤذون رسـول الله ﷺ في بيتـه، أبـو لهـب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعـدي بـن حمـراء الثقفـي، وابن الأصداء الهذلي، وكانوا جيرانه – لم يسلم أحد إلا الحكم بن أبـي العـاص-. فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي"[٢١٧] .

---

(٢١٤) القصرة، أصل العنق إذا غلظ – الرازي ، مختار الصحاح.

(٢١٥) ابن هشام السيرة النبوية (مع الروض)ج٢ ص٣٨

(٢١٦) المصدر السابق ص ٣٢-٣٣ والسهيلي، الروض الأنـف ج٢ ص٤٨. صـحيح البخـاري بشـرح فتح الباري، ٨/ ٥٥٤، ٧/ ٢٢، ١٦٥ وصحيح مسلم ٣/ ١٤٢٠

(٢١٧) السهيلي ، الروض الأنف ج ٢ ص٤٨

وقد ذكر البخاري: "عن عبد الله بن مسعود- وكان شاهداً للحدث- أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم[٢١٨] . فجاء به -أي بسلا الجزور والأوساخ من ولادة الناقة مع خلاصها- فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه وأنا انظر، لا أغني شيئاً، لو كانت لي منَعَة. قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض – أي يميل بعضهم على بعض من الضحك والسخرية- ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره- فرفع رأسه ثم قال: اللهم عليك بقريش - ثلاث مرات- فشق عليهم إذ دعا عليهم. قال :كانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة. ثم سمى: اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعد السابع فلم نحفظه. قال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدَّ رسول الله صرعى في القليب قليب بدر"[٢١٩] . والقليب هو البئر، وقليب بدر هو البئر الذي رميت فيه جثثهم بعد مقتلهم وهلاكهم في معركة بدر.

وهكذا نجد كيف كانت حالة المسلمين ، فإن ابن مسعود من ضعفه لم يجرؤ أن يزيل الأذى عن رسول الله ﷺ خوفاً منهم، بل لم يجرؤ رجل ممن آمنوا أن يتقدم لنصرة رسول الله ﷺ حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها.

كما أن في هذا الحديث مشروعية أن يدعو المظلوم على ظالمه، إذا كان هذا الظالم عاتياً كما فعل رسول الله ﷺ إذ دعا عليهم بأسمائهم، وكما فعلت فاطمة إذ

---

(٢١٨) هو عقبة بن أبي معيط كما صرح باسمه في صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج٧ رقم ٣٨٥٤ ص ١٦٥وثبت أن الذي حرضه أبو جهل

(٢١٩) المصدر السابق ج١ رقم ٢٤٠ ص٣٤٩ وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين٣/ ١٤١٨-١٤٢٠ وذكر في أن السابع هو عمارة بن الوليد في غير هذه الرواية من الصحيح.

دعت على من صنع ذلك برسول الله ﷺ[٢٢٠] .

ومع هذا كله فقد كان ﷺ صابراً محتسباً، يضرب لنا أروع الأمثلة لصبر الداعية على أذى قومه، إذ أن الصبر ضرورة للداعية إلى الحق ومفتاح النصر للدعوة قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر١-٣). وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران٢٠٠).

---

(٢٢٠) صحيح البخاري، بشرح فتح الباري، ج٧ رقم ٣٨٥٤ ص١٦٥

المبحث الرابع
إسلام أبي ذر رضي الله عنه

رغم هذا الاضطهاد لرسول الله ﷺ لم تقف دعوته إلى الناس، ولم يقف توجه من انقدحت في نفوسهم شرارة الإيمان، عن إعلان الإسلام، والالتزام به، والولاء فيه، لله ولرسوله وعن الانتماء لجماعة المسلمين المضطهدين. وإن ثمة إشعاعات في إيمان بعض هذا النفر من أصحاب رسول الله ﷺ تصلح لأن تكون دروساً لكل داعية إلى ربه سبحانه إلى قيام الساعة. سنقتبسها من بعض الروايات في إسلام بعض أصحاب رسول الله ﷺ.

رواية إسلام أبي ذر:

يروي لنا البخاري في صحيحه خبر إسلام أبي ذر رضي الله عنه؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما بلغ أبا ذر مبعثُ النبي ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلَم لي عِلم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي الله ، يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني. فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزوَّد وحمل شنة – أي قربة وهي الوعاء المصنوع من الجلد- له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد، فالتمس النبي ﷺ، ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فرآه علي، فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يرى النبي ﷺ حتى أمسى فعاد إلى مضجعه. فمر به علي، فقال: أما نال[٢٢١] للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى إذا كان اليوم الثالث، فعاد علي عليه مثل ذلك، فأقام

---

(٢٢١) نال:بمعنى حان وتروى آن، انظر فتح الباري، ج٧، ص١٧٤

معه ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل، فأخبره. قال: فإنه حق وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريد الماء. فإن مضيت فاتْبعني حتى تَدخل مدخلي. ففعل فانطلق يقفوه – أي يقتفي أثره ويسير خلفه وليس قريباً منه كثيراً- حتى دخل على النبي ﷺ، ودخل معه فسمع من قوله – أي قول رسول الله ﷺ- وأسلم مكانه، فقال النبي ﷺ: ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري. قال والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم. فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ثم قام القوم فضربوه حتى أوجعوه حتى أتى العباس فأكبَّ عليه – أي وقف عليه وحماه منهم-، وقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غِفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام. فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، وثاروا إليه فأكب العباس عليه[٢٢٢] .

تحليل القصة:

نأخذ من هذه القصة في إسلام هذا الصحابي الجليل:

١- أن الداعية إلى ربه هو أكثر من يسأل عن ظروف الناس وحاجاتهم، وأكثر من يهتم بكل أمر غريب، إذ أن إحساسه متوقد وبصيرته تتجاوز بصره. فكم من رجل رأى هذا الرجل الغريب في المسجد فلم يحسّ به ولم يسأله عن حاله! إلا ما كان من عليّ رضي الله عنه فقد رصد هذا الرجل الغريب بعد أن انتبه إليه من أول يوم، ثم جاءه يسأله عن حاجته. **وهو بهذا الاهتمام عين مبصرة للإسلام**، ولديه حسّ أمني عال. وفي الوقت نفسه أوجد **باهتمامه** بحال الرجل

---

[٢٢٢] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج٧ باب إسلام أبي ذر رقم ٣٨٦١ ص١٧٣ ج٦ كتاب المناقب، رقم ٣٥٢٢ ص٥٤٩ وصحيح مسلم ٤/ ١٩٢٣-١٩٢٥ ورواية مسلم طويلة وفيها زيادات كثيرة، وقد وفق بينهما ابن حجر في فتح الباري ، مناقب الأنصار، باب إسلام أبي ذر، رقم ٣٨٦١، ٧/ ١٧٤-١٧٥

أكثر من مرة **صلة بهذا الغريب جعله موطن ثقته وموضع مشورته**.

٢- كما نأخذ منها قبل ذلك أن أبا ذر هو الذي أخذ يبحث عن الحق لما سمع بمبعث النبي ﷺ، ولم يكتف بالمعلومات التي زوّده بها أخوه، وإنما جاء ليبني موقفه على أمر واضح ودليل بيّن. إنه يريد أن يرى ويسمع من رسول الله ﷺ ويتأكد بنفسه. وهكذا الفطرة السليمة تبحث عن الحق متى سمعت به، وتكلف نفسها مشقة السفر في البحث عنه.

٣- كما نقتبس منها درساً فذاً في حيطة علي كرم الله وجهه وحسن إدارته للأمور بسرية، وعلى طريق الإشارة المتفاهم عليها، وهي سر الليل أو كلمة السر، وهو يدل أبا ذر على المكان الذي يجلس فيه رسول الله ﷺ.

ويبدو أن أبا ذر كان حذراً أيضاً، لأن طريقة بحثه عن الرسول ﷺ كان فيها الحذر، ويبدو أن ذلك كان بسبب ما وصف أخو أبي ذر - واسمه أنيس- لأبي ذر حال الناس في مكة من تجهمهم لرسول الله ﷺ حيث قال له: "وكن حذراً من أهل مكة فإنهم قد شنفوا له وتجهموا"[٢٢٣].

٤- كما **نأخذ** كذلك من موقف أبي ذر حينما عرف الحق، وجّهه رسول الله ﷺ لإخبار قومه بهذه الدعوة، أن هذه الدعوة متى آمن بها صاحبها، لا يصح له أن يختزنها قناعة فكرية وثقافية، قاصرة عليه، وإنما لا بد أن يؤديها حقها، فيحملها إلى غيره لإنقاذهم من الظلمات إلى النور. وهكذا فعل أبو ذر، بل إنه لم يحتمل اختزانها حتى يصل بها قومه، بل أقسم ليصرخن بها بين ظهراني المشركين في البيت الحرام. وفعلاً صرخ بها، فما كان من المشركين إلا أن أوجعوه ضربا مرة بعد الأخرى.

ثم لننظر إلى مستوى الجاهلية وأهدافها؛ فالعباس يقنعهم ألا يضربوا الرجل لأنه من غفار في طريق تجارتهم إلى الشام، وبهذا تتهدد مصالحهم ومادياتهم. ولا

---

[٢٢٣] صحيح مسلم، ١٩٢٣

يقنعهم سوى هذا المنطق المادي. أما حرية الاعتقاد وحرية الفكر التي هي قيم إنسانية فلا يسألون عنها. إنهم لا يعرفون الحريات ولا حقوق الإنسان، ولكنهم مشغولون بمصالحهم، فنداء المصالح والشهوات يجيبونه، وتخويفهم بتهديد مصالحهم يردعهم ويؤدبهم.

المبحث الخامس
إسلام حمزة رضي الله عنه

ثم نأتي إلى قصة أخرى من قصص إسلام صحابة رسول الله ﷺ وهي قصة إسلام حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، والذي كان ما زال على شركه، إذ حينما سمع خبر إيذاء أبي جهل لابن أخيه محمد ثارت ثائرته، فأسلم انتقاماً لابن أخيه وحمية له.

يسجل هذه القصة ابن إسحق فيقول: "حدثني رجل من أسلم كان واعية، أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ- ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك - ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم. فلم يلبث حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه، راجعاً من قَنص له- أي من رحلة صيد -، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد لقريش إلا وقف وسلَّم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش وأشدهم شكيمة. فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له : يا أبا عمارة! لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم ابن هشام؟ وجده ها هنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد ﷺ، **فاحتمل حمزة الغضبُ** لِما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد مُعِداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به. فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى قام على رأسه رفع القوس فضربه به فشجّه شجة منكرة، ثم قال أتشتمه، فأنا على دينه، أقول ما يقول، فُرد علي ذلك إن استطعت، فقامت رجال من بني مخزوم – قوم أبي جهل- إلى حمزة لينصروا أبا جهل. فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. وتم حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله. فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عَز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض

ما كانوا ينالون منه"[224].

التحليل:

١- سبحان الله، إن الهدى قد لا تظهر أسبابه الحقيقة، إلا أنها هداية الله أولا وأخيراً، وإرادته الخير لعباده يسوق لهم الأقدار، فيتعاملون معها تعاملاً واقعياً، ولكنهم لا يعلمون أنها قد تأتي بنتائجها أو قد تأتي بنتائج معاكسة؛ **أذى واضطهاد** وضيق للدعوة الإسلامية، واستضعاف لرسولها وقائدها بحيث لا يملك أن يدافع عن نفسه، ولكن الموقف يثمر ضده على مرأى من الناس يولد **حرية ومنعة** وقوة للدعوة. فأبو جهل يستضعف الرسول ﷺ ولا نصير ينصره، فيعتقد أبو جهل أنه قد انتفج باطله، وما يدري أن هذا الموقف قد انتهى بأن يلتحق رجل شديد من سادات قريش بالإسلام فينصر الله به دينه، ويعز به رسوله ويمنعه.

وهذه الحادثة درس للمسلمين الدعاة إلى الله أن يحتقروا منطق الجاهلية، مهما كانت شراستها، إذ الاضطهاد يولد طاقات حبيسة، تصبح أمل النصر ومصدر الأمان للمضطهدين.

وكأن هذه الحادثة التي ساقها الله عز وجل، أعدها ليفتح قلب حمزة.

٢- وثمة شعاع نقتبسه ونحن نرى صورتين متقابلتين: صورة حمزة مزمجراً مشتداً

---

(224) ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)ج٢ ص٣٤ ويرى أكرم العمري أن تفصيل قصة إسلام حمزة لم تثبت من طريق صحيحة؛إذ وردت رواية من مرسل محمد بن كعب القرطبي عند الطبراني وفي سندها إسماعيل الجفاف ولم يقف له على ترجمة حيث مفادها أن إسلام حمزة كان حمية لرسول الله ﷺ بعد أن أخبر بشتم أبي جهل للرسول.كما في المعجم الكبير للطبراني، ٣/ ٢، ١٥-١٥٣ انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ١٤٦ وخرج إبراهيم العلي رواية محمد بن كعب القرطبي في إسلام حمزة ما نصه: قال الهيثمي في المجمع٩/ ٢٦٧ رواه الطبراني مرسلاً ورجاله رجال الصحيح، وقد جاء بنحوه عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق حليف بني زهرة.وقال الهيثمي٩/ ٢٦٧ رواه الطبراني مرسلاً ورجاله ثقات ومجموع الطرق المرسلة تفيد الحديث قوة وصحة.إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٦٠.

على أبي جهل منتصراً لابن أخيه، وصورة أبـي جهـل وقـد كـان قبـل قليـل منتفشاً بباطله رافعاً صوته على محمد ﷺ، وإذا به جباناً مكسـوفاً مغلوبـاً أمـام ضربة حمزة له ينصح أقاربه ألا ينتصروا له. وهو بهذا الموقـف، لم تؤلمـه ضـربة حمزة مع أنها منكرة، قدر مـا أخافـه تحـوّل حمـزة مـن صـف الكفـر إلى صـف الإسلام. فالرجل رغم كفره ذو حنكة وخبث ودهاء، يلاطـف حمـزة ملاطفـة الجبان الخائف من عواقب إسلام حمزة، يقول للمخزوميين: دعـوا أبـا عمـارة، ويظهر الندم على ما فعـل، وأنـه يسـتحق أن يلاقـي جـزاءه بمنطـق الجاهليـة والقبيلة، ويتمنى أن تنتهي القضـية إلى هـذا الحـد، ولا يريـد أن يـثير حمـزة أو يستفزه أكثر من ذلك لئلا يكون حمزة جاداً في إعلان إسـلامه، وإنمـا يـبرد أبـو جهل الموقف، ويريد أن تنتهي القضية إلى قضية حمية جاهلية، وتنتهـي القضـية إلى أخذ ثأر وحسب.

٣- ولكن أنى يكون هذا؟ فإن حمزة أدرك بعد تلك اللحظة الحماسية، أنه سـيكون على مستوى إنفاذ ما قال، فها هو ذا يُقبل على رسول الله ﷺ مـن غـده، يـذكر ابن كثير تتمة القصة فيقول:"أقبل حمزة على نفسه وقال ما صـنعت؟! اللـهم إن كان خيراً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً. فبـات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح، فغدا على رسـول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي إني قد وقعت في أمر ولا أعرف المخـرج منـه. وإقامـة مثلـي على ما لا أدري ما هو، أَرُشدٌ هو أم غَيٌّ شديد، فحدثني حديثاً فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدثني. فأقبل رسـول الله ﷺ فـذّكره، ووعظـه، وخوّفـه، وبشـره، فألقى الله في قلبه الإيمان بما قـال رسـول الله ﷺ، فقـال: أشـهد أنـك الصـادق شهادة الصدق، فأَظهر يا ابن أخي دينـك. فـوالله مـا أحـب أن لـي مـا أظلتـه السماء وأنى على ديني الأول"[٢٢٥] .

---

(٢٢٥) ابن كثير، البداية والنهاية ج٣ ص٣٣

نعم إنه الإيمـان إذا خالطـت بشاشـتُه القلـوب، اسـتقر في أعماقهـا وحررهـا، بصرف النظر عن الطريق الذي يدخل بها هذا الإيمان في هذه القلوب، وهكذا يعـز الله دينه ، ويمنع رسوله، ويحمي أولياءه.

المبحث السادس
محاولة الاحتواء للدعوة

لما رأت قريش أن أساليب الاضطهاد والأذى لرسول الله ﷺ لا تجدي، وإنما زادته صلابة، ولم تحل دون دخول شخصيات جديدة في الإسلام ، كان من أقواها حمزة بن عبد المطلب ، وأن الرسول ﷺ أخذ يحقق مكاسب جديدة لدعوته في القلوب، ويحقق أمناً وعزة ومنعة بدخول حمزة في الإسلام، قرروا أن يلجؤوا إلى أسلوب المفاوضات المباشرة معه، على طريقة **محاولات الاحتواء بعد العجز عن التطويق**.

عروض قريش:

فها هو ذا عتبة بن ربيعة، أحد سادتهم وكبرائهم يقترح عليهم يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد: " أن يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟"[٢٢٦] .وافق السادة الكبراء وفوضوا عتبة في التفاهم مع محمد ﷺ دون أي شروط مسبقة، المهم أن يكف عنهم. فجاء عتبة إلى رسول الله ﷺ، ورق له في الخطاب وقال: "يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من السطة (التوسط) في العشيرة، والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، أسمع. قال: يا ابن أخي: إن كنت تريد بما جئت به من الأمر مالاً جمعنا لك أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئياً- أي من الجن- لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب

---

[٢٢٦] ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)ج٢ ص٣٥

وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع – الجني القرين- على الرجل حتى يداوى منه"[٢٢٧] .

تحليل:

١- فلنتصور كيف أن هذه العروض المالية والسياسية والاجتماعية السخية ، التي تقطع أعناق السادة والكبراء والزعماء وأصحاب رؤوس الأموال حتى يصلوها، تعرض على محمد ﷺ، وهم مستعدون لأن يوفوا بها، المهم أن يتوقف محمد عن دعوة لا إله إلا الله.

وإنها لعروض سخية ومجزية في مقياس الجاهلية وأصحاب الأهواء والشهوات، وهي في نظر أصحاب المبادئ الإنسانية والفلسفات والمذاهب في منتهى الإغراء والمنطقية، إذ ماذا يريد أصحاب الفكر البشري سوى أن يحققوا الزعامة ويصلوا إلى حكم الناس ويملكوا الأموال، ويكسبوا السيادة؟ ولكنها كلها لا تفي الداعية حاجته، بل هي ليست هدفه في هذه الحياة؛ ذلك أن دعوته ذات أهداف كبرى تتجاوز الدنيا إلى الآخرة، ويتسع فيه الميدان لا لجيل من الأجيال، ولا لزعامة أو رئاسة فرد أو طبقة، ولا تعمل لأهداف آنية محدودة وإنما موضوعها الإنسان، كل الإنسان في الأرض كل الأرض، وهدفها الأكبر مرضاة الله سبحانه والفوز بالجنة والنجاة من النار. ولكن أنى للمنطق الجاهلي المادي أن يدرك عظمة القيم الإسلامية الرامية إلى تخليص العبد من الهوى والشهوات والمطامع البشرية لأن يكون إنساناً ربانياً بإخلاص عبوديته لله، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران٧٩).

٢- إنه لا بد أن نقف عند هذا العرض الأخير من عروض عتبة، "وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه"، فهو بهذا يريد أن يقول: عجباً لك يا محمد، يعرض عليك

(٢٢٧) المرجع السابق ج رقم ٣٨٥٤ ص١٦٥

الشرف والسيادة والملك والزعامة والمال، ثم لا تقبل! فإن من لا يقبل هذه العروض، شخص مجنون يحتاج إلى علاج. نعم هذا هو مقياسهم الذي يقيسون به الأمور. ولكن محمداً ﷺ، قدوة كل داعية إلى قيام الساعة، يعلنها لهم صريحة مدوية، ويُعلم بها كل داعية إلى ربه أن الدعوة إلى الله بمبادئها ورسولها ودعاتها وقادتها، فوق الاحتواء فيجيب ﷺ عتبة بقوله: 'أفرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم. قال فاسمع مني. قال : أفعل. قال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ (فصلت ١-٦). ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرأها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت. فأنت وذاك'[٢٢٨] .

فالرسول ﷺ لم ينشغل بالدفاع عن شخصيته، ولا عن نفسه، ولا عن عقله الذي اتهمه فيه الوليد بالجنون. ولكنها الفرصة السانحة التي اغتنمها رسول الله ﷺ ليعرض على هذا الزعيم دعوة الله، وليقيم له الدليل على صدق أنه نبي، ويقيم عليه الحجة، فها هو ذا يقرأ عليه القرآن.

وإن في قراءة القرآن لفتحاً للقلوب، وفيها إقامة الحجة على المستكبرين. وكأن الرسول ﷺ تجاهل كل ما قاله عتبة، رغم أن كل عرض من عروضه كان فيه أذى نفسي له عليه الصلاة والسلام، إذ أن عدم فهم الخصم لك ولدعوتك ولحقيقة ما تدعو إليه، يؤلم النفس فكيف به وهو بهذه العروض يتهم النيات والمقاصد للداعية؟ ومع كل ذلك كظم رسول الله ﷺ غيظه مع كل هذا الأذى ودافع عن

[٢٢٨] ابن هشام، السيرة النبوية(مع الروض) ج٢ ص٣٥

دعوته بتلاوة آيات الله التي تؤنس قلب الداعية وتثبته، وترتفع بمستوى القضية فوق الجدال في المصالح الشخصية، حتى ولو كانت دفاعاً عن النفس، حتى ولو كانت دفاعاً عن شخصية الداعية، إذ أن شخصية الداعية ينبغي أن تذوب وتنصهر في هذه الدعوة فهي الأهم والأكبر في نظره وميزانه، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ (الكهف١١٠). ومتى دافع الداعية عن دعوته فإن الله سبحانه هو الذي يدافع عن هذا الداعية بمقياس السماء لا بمقياس الأرض الهابطة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ (الحج٣٨).

٣- ثم يعود عتبة خائر الأعصاب، مشدوهاً لما سمع، وعرف قومه الذين أرسلوه ذلك من وجهه، إذ قال بعضهم لبعض: "نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به"[٢٢٩] .وإذا به يقدم لهم تقريراً عن الجولة الأولى في المفاوضات، مفاوضات من لا عقيدة لهم، مع صاحب العقيدة مع صرف النظر عن مركزي الجهتين، فطالب التفاوض هنا والمساوم قوي بيده السطوة، والرافض للشروط هنا ضعيف لا يملك حماية نفسه، فما الذي يجعل القوي يسترضي الضعيف؟ إنها دعوة لا إله إلا الله فهي قوية وهو الأقوى، وليس ثمة ما هو أقوى منها مهما كان مستوى التمثيل لها على وجه الأرض، ومهما كان عدد من يحملونها وقوتهم. يعود عتبة ليقدم لهم نصيحة من قلبه فيقول: "اني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخَلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكُه ملكُكُم وعزُّه عزّكُم، وكنتم أسعد الناس به. فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم"[٢٣٠].

---

(٢٢٩) ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض) ج٢ ص٣٥

(٢٣٠) المرجع السابق.

٤- وبعد هذه الجولة استمروا في تعذيب المسلمين، في محاولة للضغط مـرة أخـرى على أعصاب رسول الله ﷺ. ولكن أنى يكون هذا وقـد عـرف رسـول الله ﷺ ربه، وأيقن أن الله ناصره؟! ثـم لم يكـن مـنهم إلا أن حـاولوا مـرة أخـرى أن يعرضوا عليه نفس العروض السابقة. وهذه المرة اجتمعـوا زعمـاءَ وقـادةً بعـد غروب شمس عند ظهر الكعبة، وقرروا أن يلتقي بهم محمد ﷺ جميعـاً لعلـه أن يكون هذا الوضع أوثق له وأقوى، وأكثر تصديقاً من أجل أن يفوا بالشـروط. ولكن جواب رسول الله ﷺ لهم كان صريحاً أيضاً هذه المرة إذ بعـد أن عرضـوا عليه نفس العروض قال: "ما بي ما تقولون. مـا جئـت بمـا جئـتكم بـه أطلـب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعـثني إلـيكم رسـولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً. فبلّغتُكم رسـالات ربـي ونصحت لكم، فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكـم في الـدنيا والأخـرى، وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"[٢٣١] .

(٢٣١) المصدر السابق

المبحث السابع

فتنة بعض أصحاب رسول الله ﷺ واضطهادهم

فشلت مفاوضات سادة قريش ، مع رسول الله ﷺوأيقنوا تماماً أن لا فائدة من هذه المفاوضات وأن محمداً ﷺ فوق مستوى الاحتواء، وأنه تصعب مصادرة فكره ودعوته، فبدؤوا يزمجرون، ويفقدون أعصابهم، ويعذبون كل من يعلمون أنه مسلم.

وقد وقع لكثير من أصحاب رسول الله ﷺ أذى واضطهاد وتعذيب يندى له جبين الإنسانية، وهو فوق ما يطيقه أشداء الرجال.

تروي لنا كتب السيرة ألواناً من هذا الأذى والتعذيب، ومواقف شجاعة مؤمنة صابرة محتسبة لهؤلاء الدعاة إلى الله، مما يضيء مسيرة الدعوة إلى الله على مر الزمان بهذه الأنوار والإشعاعات، منها:

تعذيب بلال:

هذا الصحابي الجليل هو بلال بن رباح، والذي كان يعذبه هو سيده أمية ابن خلف، إذ كان:"يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في رمضاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول هو في ذلك البلاء:أحد أحد"[٢٣٢] .

وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن ينعم على بلال بالحرية بعد تلك العبودية للبشر، ولكن متى؟ حينما أخلص عبوديته لله وحده، وثبت على دينه رغم الفتنة والاضطهاد، فقد مر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأمية يعذب بلالاً فرقّ له قلبه، وكيف لا يرق له قلبه، وهو أخوه في الله؟ فهو وإن كان لا يستطيع أن ينصره ولا أن يدافع عنه؛ فحال المسلمين ضعيف ولم يؤمروا بقتال ولا باشتباك مع الكفار، إلا أن دافع الأخوة جعله يصيح في وجه أمية قائلاً: "ألا تتقي الله في هذا

---

(٢٣٢) المصدر السابق ص٦٧

المسكين؟ حتى متى؟" قال أمية: أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى. فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به. قال قد قبلت. فقال :هو لك فأعطاه أبو بكر الصديق غلامه ذلك وأخذه فاعتقه"[٢٣٣] .

وهنا ترى هذه العبارة الهوجاء ممن ختم الله على قلوبهم، فانقلبت مفاهيمهم وموازينهم مما سمعت من عبارة أمية (أنت الذي أفسدته) سبحان الله! الصلاح في نظر الجاهلية إفساد!!

تعذيب يسار أبو فكيهة:

وكان يسار صديقاً في العبودية لبلال بن رباح، إذ كان عبداً لصفوان بن أمية ابن خلف، وهو ابن سيد بلال، وشاء الله تعالى أن يسلما معاً ويصبحا أخوين في الله. وقد صبّ أمية جام غضبه عليهما، وكان يضرب يساراً فلمّا كلّ من ضربه، أمر به فربطه بحبل من رجليه وجعل صبيان قبيلته بني جمح يجرونه ويسحبونه في طرقات مكة، ويرمونه على رمال مكة ورمضائها الحار، يكوون بها جسده، حتى قسوا عليه قسوة شديدة، جعلوه في حالة الألم والتعذيب فيحمل له أمية الجُعل-أي الصرصور- ويسألونه أليس هذا ربك؟! فيجيبهم بمنتهى عزة المؤمن وصبره وثباته: الله ربي وربك هذا، فيخنقه بالحبل خنقاً شديداً حتى ظن أمية أنه مات فتركه. وقد اشتراه أيضاً أبو بكر من أمية وأعتقه، وكان يعاني طيلة حياته أمراضاً رافقته بسبب ذلك التعذيب، رضي الله عنه.

تعذيب آل ياسر:

وإذا كان بلال قد عذب فرداً، فهذه أسرة مؤمنة، تلقى تعذيباً جماعياً هي أسرة ياسر المكونة منه ومن زوجته سمية وابنهما عمار، ويا لهول المنظر وقومهم- بنو مخزوم حيث كانت هذه الأسرة مستوطنة مكة وكانت محالفة لبني مخزوم قوم أبي جهل - يخرجون بهم إلى الصحراء ويعذبونهم جميعاً. وكم هي قاسية على نفس

---

(٢٣٣) المصدر السابق

الزوج أن يرى زوجته التي هي موضع تكريم بالنسبة له، تُعذب أمام ناظريه يتحدى الطغاة رجولته في فك أسرها. وكم هي قاسية على نفس الأبوين أن يريا فلذة كبدهما عماراً يعذب ويصيبه الأذى وهما لا يملكان أن يرفعا عنه شدة.

اللهم إنه الإيمان بك. والدعوة المخلصة إليك. اللهم إنها الجاهلية التي تدوس قيم الإنسان، وكرامة الإنسان، ولا تتمتع بشرف الخصومة، لأنها مفلسة عقدياً، مفلسة فكريا، مفلسة خلقياً، ومفلسة إنسانياً، إنها مجتمعات الغاب، ليس لها عبقرية تبديها في فكر ولا في حضارة سوى سوء استعمال العصا، وبكل صنوف إهدار كرامة الإنسان، حيث لا تكافؤ بين الفريقين؛ مؤمن أعزل من كل قوة سوى قوة الإيمان وجاهلية مدججة بكل أنواع القوة المادية. ولكن العبرة ليست تؤخذ في الميدان، وإنما العبرة تستفاد وتكتشف بعد انجلاء المعركة التي تنتصر فيها قيم الإيمان وتثبت قوة الإيمان والعقيدة، إنها القوة الثابتة البديلة التي ستحرر الإنسان يوم يعلنها محمد ﷺ بعد سنوات في فتح مكة: "ما تظنون أني فاعل بكم"؟ فيستعطفونه:أخ كريم وابن أخ كريم فيقول لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

أين هذا الموقف من موقف أبي جهل الذي تبلغ فيه الفظاظة والوحشية، أن يعذب سمية زوجة ياسر وأم عمار، فتغلظ له بالقول لما تلقاه من الأذى، فيطعنها بالحربة من أسفل بطنها فيُرديها أول شهيدة في سبيل الله في الإسلام[٢٣٤] .

ولقد كان الأذى الذي لحق بعمار وإخوانه شديداً حتى أنهم كانوا يجبرونهم على الكفر أو أن يُقتلوا. نعم، إنهم عَدَوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وفي رمضاء مكة، إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه[٢٣٥]. وروى ابن إسحق من حديث ابن عباس: "والله إن كانوا ليضربون

---

[٢٣٤] انظر ابن حجر، فتح الباري ج٧ ص٩١ وابن كثير، البداية والنهاية ج٣ ص٥٩ والسهيلي، الروض الأنف ج٢ ص٧٨.

[٢٣٥] ابن هشام، السيرة النبوية(مع الروض) ج٢ ص٦٧

أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به، وحتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله. فيقول: نعم[٢٣٦].

ولكن جرأة المشركين على من يسلم من العبيد والأرقاء أكثر، لأن هؤلاء ضعفاء، ولا عشيرة تحميهم، وبتعذيبهم كانوا لا يجدون من يمنعهم من ذلك، إذ هم أسيادهم وكانوا يملكونهم بيعاً وشراء، وتعذيباً وإهانة، ولا يخشون أن تنشأ حرب أهلية فيما بين القبائل بسبب تعذيبهم، كما كانوا يخشون فيما لو اعتدت قبيلة على حُر من قبيلة أخرى.

إكراه عمار على النطق بالكفر:

وهذا عمار يفتن في دينه، فعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار قال: أخذ المشركون عماراً رضي الله عنه فلم يتركوه حتى سب رسول الله ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى رسول الله ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله، ما تُركت حتى نِلْت منك، وذكرت آلهتهم بخير. فقال رسول الله ﷺ فكيف تجد قلبك؟ قال: أجد قلبي مطمئناً بالإيمان. قال: فإن عادوا فعد[٢٣٧]. وتروى هذه الحادثة في سبب نزول قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ (النحل١٠٦).

وهكذا نجد أن الداعية إلى ربه مصر على إيمانه وثابت رغم شدة الابتلاء، وأنه رُخّص له إن لم يحتمل الأذى أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه والله يغفر له، إنما قلبه مطمئن على دعوته ومليء بالإيمان بها، والثبات عليها والحركة من أجلها، ومتى فلت من أيدي الأعداء يعود ويستأنف سيرته داعية إلى ربه سبحانه وتعالى.

وموقفه في لحظة عدم الاحتمال طارئ على لسانه، أما ثقته بالله وبرسول الله

---

(٢٣٦) المصدر السابق ص٦٩ وابن حجر، فتح الباري ج٧ ص ١٦٦

(٢٣٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم طبعة دار الكتب ، عيسى الحلبي، القاهرة ، ج٢ ص ٥٨٧.أخرجه أبو نعيم في الحلية ج١ ص١٤٠ وانظر ابن سعد في الطبقات الكبرى.ج٣ ص ١٧٨ وقال السهيلي في الروض الأنف ج٢ ص٧٧نزل في عمار وأبيه إلا أن تتقوا منهم تقاة.

وبمنهج الإسلام وطبيعته الدعوية، فلا تغيُّر فيها ولا إحجام عن مواصلة السير في دعوته إلى الله سبحانه.

مصعب بن عمير رضي الله عنه:

وهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه، الذي كان فتى مدللاً لأبوين غنيين، يلباسنه خير الثياب وأنفسها، حينما سمع بدعوة رسول الله ﷺ خرج من كل دنياه فتوثقه أمه وتحبسه ويفلت منها، فتحرمه متعه السابقة وملابسه الجميلة، ويصبح داعية لربه لا يسأل عن نعومة الملبس ولا عن خشونته، وقد تغيرت مفاهيم السعادة والجمال في نفسه، فالجمال جمال الإيمان لا جمال الشكل والمنظر، والعطر نفح العقيدة لا طيب الياسمين والعنبر، وإذا بجلده الناعم يتخشف تخشف جلد الحية[238]

طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه:

وهذا طلحة بن عبيد الله يلاقي أذى الأهل والعشيرة، وتنكر قلب الأم حينما يحمل دعوة الله. فقد أخرج البخاري في التاريخ عن مسعود بن خراش رضي الله عنه قال :" بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة، إذا أناس كثير يتبعون فتى شاباً موثقاً بيده في عنقه، قلت: ما شأنه؟ قالوا: هذا طلحة بن عبيد الله صبأ، وامرأة وراءه تدمدم (تتكلم غاضبة) قلت: من هذه؟ قالوا :هذه الصعبة بنت الحضرمي أمه"[239]
.

ولم تتعظ قريش رغم كل ما رأت من آيات صدقه عليه الصلاة والسلام ، ورغم ثباته وثبات أصحابه معه على صنوف البلاء والتعذيب والتجويع، فها هي ذي ما تزال تلاحق المسلمين أفراداً وجماعات، داخل مكة وخارجها وتقوم بدعاية

---

[238] انظر المباركفوري، الرحيق المختوم ص١٠٢.

[239] الكاندهلوي، حياة الصحابة ج١ ص٢٦٧ والإصابة ج٣ ص ٤١٠

ضد هذه الدعوة. فها هو ذا أبو جهل يتوعد كـل مـن يسـلم، مُشـكّلا قـوة ضـغط شديدة على المسلمين، فكان: إذا سمع بالرجـل قـد أسـلم لـه شـرف ومنعـة أنّبـه وأخزاه، وقال: تركت دين آبائك وهم خير منك. لنُسفّهن حِلمك، ولنفلينّ رأيـك، ولنضعن شرفك"[٢٤٠] .

وكان يضغط كذلك على من يسلم، مادياً وتجارياً، فإذا مـا أسـلم تـاجر جـاءه وقال له:" لنكسّدن تجارتك، ولنهلكن مالك"[٢٤١] .

ولقد كان هو وعصـابته يضـغطون علـى أقـاربهم المسـلمين، ليقنعـوهم بـترك الإسلام، حتى لا تنشأ بينهم حروب لا تحمد عقباها. "فلما أسلم الوليد ابن الوليد، مشى أبو جهل في رجال من بني مخزوم-قومه- إلى أخيه هشام بن الوليد وقد كـانوا أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا فقالوا له: إنا قد أردنا أن نعاقـب هؤلاء الفتية على هذا الدين الـذي أحـدثوا، فإنـا نـأمن بـذلك في غيرهـم. قـال- هشام-: هذا فعليكم به، فعاقبوه وإياكم ونفسه احذروا على نفسه، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلاً. فقالوا اللهم العنه، من يُغرر بهذا الحديث، فوالله لو أصيب في أيدينا لقتل أشرفنا رجلاً، فتركوه ونزعوا عنه"[٢٤٢] .

خباب بن الأرت رضي الله عنه:

وهذا خباب بن الأرت رضي عنه، يروي لنا ما كان يصنع معه أعـداء الله مـن أذى وتعذيب فيقول: "فلقد رأيتني يوماً، أخذوني فأوقدوا لي ناراً، ثم سلقوني فيهـا ثم وضع رجل رجلـه علـى صـدري فمـا اتقيـت الأرض أو قـال بـرد الأرض إلا بظهري، ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص"[٢٤٣] . ويقول: "أتيـت الـنبي ﷺ وهـو

---

(٢٤٠) ابن هشام، السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص٦٨-٦٩

(٢٤١) المرجع السابق ص٦٩

(٢٤٢) المرجع السابق

(٢٤٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى.ج٣ قسم١ ص١١٧ والكاندهلوي، حياة الصحابة ج١ ص٧٣

متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة. وقد لقينا من المشركين شدة. فقلت:" يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ فقعد-وهو محمر وجهه- فقال: "لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله"[٢٤٤]

كما كان الجاهليون يأكلون حقوق المسلمين المادية، ويظلمونهم ويماطلونهم، فقد أخرج الإمام أحمد عن خباب قال[٢٤٥] :"كنت رجلاً قيْنا- صانع سيوف- وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه، فقال: لا ، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ، حتى تموت ثم تبعث. قال فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيك. فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا﴾ (مريم٧٧).

تعذيب صهيب الرومي رضي الله عنه:

هو صهيب بن سنان ليس رومياً كما اشتهر على ألسنة الناس، بل هو عربي من النمر بن قاسط. وسبب القول بأنه رومي أن الروم قد سَبَوه في حرب مع قومه وهو صغير، ثم باعوه عبداً رقيقاً، وقد فدى نفسه منهم بمال حتى أصبح حراً وخرج من العبودية، فاتجه الرجل إلى مكة، وعاش فيها، فأخذ الناس يسمونه بصهيب الرومي. ولما بعث النبي ﷺ ودعاه إلى الإسلام، سارع صهيب إلى دخول الإسلام. وما أن أعلن إسلامه حتى وجد من يعذبه ويضطهده. ولأنه لم يكن من أهل مكة، ولا يربطه بقبائلها حلف أو ولاء وليس له عشيرة تحميه، فلم يبق أحد من سادة مكة المشركين إلا وقد تولاه بالتعذيب، محاولين رده عن دينه، ولكنهم فشلوا في ذلك، ويئسوا منه، وتركوه، وكان لهم معه موقف حتى آخر لحظة من

---

(٢٤٤) صحيح البخاري، شرح فتح الباري، ٤/٢١٥٣

(٢٤٥) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٧ ص١٣٨-١٣٩، صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ٤/٤٥٢، ٥/٧٧ ، ٨/٤٣٠، ٤٣١

تركه مكة كما سنعلم من هجرته[٢٤٦].

تعذيب النساء:

وكما عذب الرجال من المسلمين، فلم تكن تحمي النساء المسلمات أنوثتهن ولا ضعفهن من أن يعذبن ويضطهدن، وهذا كان مخالفاً للمروءة العربية، إذ ليس من المروءة أن تضرب المرأة عند العرب. ومع ذلك فقد عذبت النساء المسلمات، والإماء المؤمنات. ومن النساء اللواتي عذبن: نذيرة، وأم عبيس، والهندبة وأختها، وجارية بني عمر بن مؤمل، وزنيرة، كما ثبت في صحيح السيرة النبوية من رواية عروة بن الزبير قال:" اعتق أبو بكر رضي الله عنه ممن كان يُعذب في الله سبعة عامر بن فهيرة، وبلال، ونديرة وأم عبيس، والهندبة وأختها، وجارية بني مؤمل"[٢٤٧].

وإن أبا بكر مرّ بالهندبة ومولاتها تعذبها، تقول: والله لا أعتقك حتى تعتقك حياتك. فقال أبو بكر: فبكم؟ قالت: بكذا وكذا. فقال: قد أخذتها وأعتقتها، ثم قال للهندبة: ردي عليها طحينها. قالت: دعني أطحنه لها"[٢٤٨].

وأما زنيرة فقد ذكرت روايات أن أبا جهل ضربها على عينها فأفقدها بصرها، وقال لها اذهبي إلى محمد حتى يرد لك بصرك، فدعا لها النبي ﷺ فأرجع الله لها بصرها. ومن رواية عروة لا يذكر لماذا ذهب بصرها، إلا أن المشركين قالوا: ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى فقالت: كذا؟! والله ما هو كذلك فرد الله عليها بصرها[٢٤٩].

---

(٢٤٦) الأسمر، القدوة في السيرة النبوية، ص١١٨ بتصرف.

(٢٤٧) انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة لتوثيق الرواية١/ ١٥٥ من مصنف ابن أبي شيبة١٢/ ١٠ بإسناد صحيح وهو مرسل والطبراني في المعجم الكبير١/ ٣١٨-٣١٩، وانفرد الحاكم بوصله في المستدرك عن عائشة٣/ ٢٨٤، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢٤٨) ابن إسحق، السير والمغازي١٩١ من مرسل عروة أيضاً وعلق العمري بأن أخبار أبي بكر رضي رضي الله عنه إنما أخذها عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.انظر المرجع السابق

(٢٤٩) انظر التوثيق السابق والمرجع السابق ١/ ١٥٥-١٥٦ وانظر أحمد رجب الأسمر، القدوة، ص١١٩

المبحث الثامن
صبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه

ولا تظنن أن الفتنة والاضطهاد والتعذيب كان لضعاف المسلمين فحسب، وإنما نال كبار الصحابة رضي الله عنهم؛ فهذا أبو بكر يتحمل في سبيل الله الأذى.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "لما اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألحّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور. فقال: يا أبا بكر، إنا قليل. فلم يزل أبو بكر يُلحّ حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته. وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ. وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضُربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطيء أبو بكر وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين يُحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى لا يعرف وجهه من أنفه. وجاء بنو تيم يتعادَوْن فأجْلت المشركين عن أبي بكر، وحجلت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته. ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة. فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسّوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك. فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فسليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أذهب معك إلى ابنك. قالت: نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعا دَنفا فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قوماً قد نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم. قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت. هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟

قالت في دار الأرقم ابن أبي الأرقم. قال: فإن له علي ألا أذوق طعاماً ولا أشـرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ. فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِجْل وسكن النـاس خرجتـا به يتكيء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ. قال: فأكب عليه رسـول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة. فقال أبو بكر: بـأبي أنت وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي وهذه أمي بَرّة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسـى الله أن يسـتنقذها بـك مـن النار. قال فدعا لها رسول الله ﷺودعاها إلى الله فأسلمت. وأقـاموا مـع رسـول الله ﷺ في الدار شهرا وهم تسعة وثلاثون رجلاً[٢٥٠].

التحليل:

١- وبهذا نرى موقف الداعية الجندي من قائده، فأبو بكر رضي الله عنـه رغـم مـا كان يعاني من آلام وجوع، إلا أنه أول ما أفاق من غيبوبته، لم يلمـس جسـمه الدامي من الجراح، ولا أنفـه المتـورم مـن الضـرب، ولم يسـأل عـن الجمـاهير الغفيرة من قومه بني تيم يريدون الاطمئنان عليه، وإنما يشغله شيء واحد هـو الاطمئنان على رسول الله ﷺ.

وهنا ترى كذلك الحقد الأسود من هؤلاء الجاهليين، أقاربه الـذين لا يعرفـون طبيعة الرابطة التي تربطه بمحمد بن عبد الله، فلما رأوا أبا بكر غير محتـف بهـم ولا سائلاً عنهم نقموا عليه وخرجوا موصـين أمـه: "ألا تطعمـه ولا تسـقيه"، وكـأنهم لم يعودوا يسألون عنه رغم أنهم كانوا متحمسين أولا لنصرته، ويهددون أنه لو مـات فسيقتلون عتبة بن ربيعة، فعدّوها خيبـة أمـل في هـذا الـذي يناصـرونه، ويعـادون الناس من أجله وهو لا يسأل عنهم ولا يعبرهم، وكل الذي يشغله سـلامة رسـول الله ﷺ.

---

(٢٥٠) ابن كثير، البداية والنهاية ج٣ ص٣٠. الكاندهلوي، حيـاة الصـحابة ج١ ص٢٥٩-٢٦١ وابـن حجر، الإصابة ج٤ ص٤٧٧

٢- ثم ترى هذا الإصرار من أبي بكر رضي الله عنه على أن لا يـذوق طعامـاً ولا يشرب شراباً حتى يطمئن علـى رسـول الله ﷺ، رغـم مـا يعانيـه مـن الآلام، ورغم حاجته الماسة للطعام والشراب الذي يعينه على تحمـل جراحـه وآلامـه ويقيم صلبه. ورغم إلحاح أمه عليه ورقة قلبها له ورجائهـا أن يأكـل ويشـرب مما يضطر الأم أن تتحمل مشاق الذهاب إلى أم جميل بنـت الخطـاب اسـتجابة لطلب ولدها، ولعله يهدأ فيأكل ويشرب إذا اطمأن على رسول الله ﷺ.

٣- ولا بد أن نسجل وافر الاحترام لهذه المرأة المؤمنة الداعية أم جميل في مواقفها في هذه القضية؛ فهي حذرة أولاً فادعت أنها لا تعرف أبا بكر ولا محمد ابن عبـد الله حيث كانت تخفي إسلامها، ولكنها مع ذلك كانت تريـد أن تطمـئن علـى أبي بكر وتطمئنه على رسول الله ﷺ، فعرضت بأسلوب لبق أن تذهب مـع أم الخير إلى ابنها. ولكن أعصابها لم تتحمل، وقلبها المؤمن لم يحتمل مـا رأتـه مـن منظر أخيها في الله وقد برّحت به الآلام فإذا بهـا تصـيح في غـير وعـي ودون حيطة: والله إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر وإنـي لأرجـو أن ينـتقم الله لك منهم. ثم عادت المرأة المسلمة إلى وعيها، ولما سألها أبو بكر عن رسول الله ﷺ وعـن مكانـه، أرادت أن تحتـاط وأن تطمـئن أن أمـه سـوف لا تبـيح بالأسرار، فهي أسرار دعوة "هذه أمك تسمع" فقدر لها أبو بكر هذا ووثقها مـن أمه وأنه لا خطورة منها فقال لها: لا شيء عليك منها. وهنا أجابتـه وأراحـت قلبه وطمأنته على رسول الله ﷺ، وسُرت أمـه كـثيراً لا لاطمئنانهـا هـي عـن محمد بن عبد الله، ولكن أمَّلت الآن أن يعود ابنها مقتنعاً أن يأكـل ويشـرب. ولكنها المفاجأة الكبرى لقلب الأم فإذا أبو بكر يأخذه الشـوق الآن للجلـوس مع محمد ﷺ، بل ويقسم بالله ألا يأكـل طعامـاً ولا يشـرب شـراباً حتـى يـأتي رسول الله ﷺ، وهنا تُضطر أمه لإجابة طلبه. وأيضاً تختار هي وأخته المؤمنة أم جميل بنت الخطاب هدأة الرجل، وسكون الجو فتنقلانـه إلى رسـول الله ﷺ إلى دار الأرقم وتنتهي آلام جراحه برؤية حبيبه ﷺ، وانكباب رسـول الله ﷺ عليـه يقبله ، وانكباب إخوانه في الله عليه يواسونه.

٤- وهنا تشغل قلب أبي بكر الدعوة إلى الله لا السلامة الشخصية، بل يغتنم الفرصة ليجزي هذه الأم الرؤوم كل خير يقدر عليه. وأي خير أعظم من أن يقدم لها دعوة الخير فيطلب من الرسول ﷺ أن يدعو أمه إلى الإسلام، وأن يدعو الله لها، وهو يزكيها له بأنها برة بولدها. ويشاء الله سبحانه أن يجعل من آلام أبي بكر آمالا بنجاة أمه النار، فتسلم أم الخير وتصبح من أهل الإيمان وفي صف المؤمنات من سائر النساء اللواتي أسلمن مع رسول الله ﷺ.

٥- فها هم أولاء أصحاب رسول الله ﷺ، يلقون الأذى والتعذيب، ولكنهم يواجهون الأمور بصبر وأناة والتزام بمنهج الإسلام، دونما انفعال عاطفي، مع أنهم كانوا يملكون- كأفراد- أن ينتقموا من عدوهم، فلم يكن أمية بمنأى من أن يصفيه بلال أو يغتاله وهو يعيش معه في بيته ولا كذلك ياسر وأسرته، ولكنهم كانوا يلتزمون بمنهج رسول الله ﷺ أن لا قتال في هذه المرحلة لئلا تموت النبتة في فترة نموها وحضانتها الأولى، وكانوا يدركون بروية أن أي انفعال فردي كفيل بأن يصفي الدعوة الإسلامية برمتها. وإنما كانوا يتبعون كل أسلوب مشروع يخفف عنهم العذاب والاضطهاد؛ فهذا أبو بكر رضي الله عنه يشتري مجموعة من إخوانه المضطهدين، من أسيادهم تخليصاً لهم من الأذى والاضطهاد ويحرّرهم.

٦- وقد غلب الضعفاء والنساء فيمن اشتراهم وحررهم أبو بكر حتى إن أباه أبا قحافة ليقول له بمنطقه الجاهلي الذي لا يبغي في أعماله سوى الجاه والمنعة: "يا بني إني أراك تعتق رقابا ضعافاً. فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلداً **يمنعونك ويقومون** دونك. فقال أبو بكر رضي الله عنه: "**يا أبت إنما أريد ما أريد لله عز وجل**"[251] فنزلت الآية قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ

---

[251] ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص٦٨، الحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٢٥-٥٢٦ قال العمري بإسناد حسن لأن محمد بن عبد الله بن عتيق مقبول، وقد تابعه مصعب بن ثابت عن

﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾(الليل ٥ – ٢١). وبهذا نجد تباين الأهداف بين الداعية إلى ربه وبين الجاهلية، فالأب الجاهلي لا يفعل شيئاً إلا إذا عرف أن له مغزى مادياً يعزه، والابن المسلم يفعل ما يفعل وهو يريد الله، وإذا أصاب مرضاة ربه سبحانه فإنه الخير كله، والقوة كلها، والمنعة كلها.

عامر(تفسير الطبري، ٣٠/ ٢٢٨) ومصعب مقبول في المتابعات(تعريب التهذيب ٤٩٠، ٥٣٣) انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٥٦

المبحث التاسع
دار الأرقم: مركز تنظيم ومدرسة تربية

اتخذ رسول الله ﷺ داراً تعود ملكيتها لأحد من أصحابه وهو الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وكان موقعها على جبل الصفا شرق البيت الحرام، وجبل الصفا هو الذي يبدأ منه السعي في مناسك الحج. وكان بعض من يسلمون ممن لم يعرفوا لا يعلنون إسلامهم حفاظاً على السرية وتجنباً للأذى والاضطهاد. وكانت دار الصفا مركزاً سرياً يلتقي فيه النبي ﷺ مع أصحابه، يحسن تنظيمهم، ويلحم صفهم، ويربيهم على التوحيد والأخوة، ويقرأ عليهم القرآن، ويعلمهم الدين ويحثهم على الصبر والثبات، ويعدهم بنصر الله، ويخفف عنهم بكلامه وتربيته آلام التعذيب ، ويعلقهم بالجنة، والتأميل بالجنة كانت سياسة رسول الله ﷺ للمضطهدين، فهي أقوى ما يثبت المعذبين، ولطالما كان يقول لأسرة ياسر وهم يعذبون: صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة. وكانت سياسة رسول الله ﷺ أن لا يلتقي بالمسلمين علناً، أو يسمح له بالتجمع جهاراً أمام المشركين، لئلا يتحدى المشركين بهذا التجمع، وكي لا يشعروا بالتهديد فيزيد اضطهادهم للمؤمنين، وكي لا يسمح بالصدام المباشر بين المسلمين والمشركين، حتى لا يتطور الأمر إلى استعجال المعركة بين المسلمين والمشركين قبل أن يأتي وقتها، وقبل أن يستكمل المؤمنون الاستعدادات الكافية لها، فقد كان المسلمون منهيين عن القتال في هذه المعركة. كما أن التربية والتزكية تحتاجان إلى الهدوء وأن الصخب والعراك يعيقهما. ولذلك كان النبي ﷺ يجتمع مع أصحابه في شعاب مكة يصلون فيها سراً، فرآهم نفر من كفار قريش، فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه، وكان أول دم هريق – أي أريق– في الإسلام[٢٥٢].

---

(٢٥٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ط٢، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٥هـ=١٩٥٥م، ١/ ٢٦٣.

المباركفوري، الرحيق المختوم، ط٤، دار الذخائر، الدمام، السعودية، ١٤١٤هـ=١٩٩٤م ص١٠٤ ، ١٠٥.

أما رسول الله ﷺ وهـو القائـد فكـان لا يختفـي ولا يختبـئ، ورغـم محـاولاتهم إيذاءه، إلا أنه كان محمياً بعمه أبي طالب، وكـانوا يفكـرون كـثيراً قبـل أن يفكـروا بتصفيته. ولذلك كان لا يخفي عبادته، بل كان يجهر بها بين ظهرانيهم، وكان يطوف علناً بالكعبة ويمشي ويصلي في البيت العتيـق، ويجهـر بالـدعوة بـين النـاس، وبـين أفواج الحجيج القادمين إلى مكة وبهذا فإن القائد لا يختفي، والدعوة لا تكون سـراً لدى القيادة، وإن كان تنظيم الأتباع واللقاء بهم يقبل السـرية متـى لـزم ذلـك مـن أجل أمن الجماعة، وأمن الأفراد، وإبعاداً لهم عن الأذى ما أمكن، وإبعاداً لهم عـن الصدام مع الأعداء في معركة غير متكافئة، ولتحقيق هذا الأمـن كانـت فلسـفة دار الأرقم، داراً للتنظيم وداراً للتزكية والتربية ولقد وصـل الأمـر بعـد أربـع سـنوات ونصف من الدعوة وكسب الأنصار، واضطهادهم، إلى خيارات ليست سهلة، فإمـا أن تصل شدة الاضطهاد إلى مزيد من التعذيب للأتباع مما قد يفتنهم عن ديـنهم، أو يحـبطهم في اسـتبطاء النصـر، أو يعجـل في معركـة غـير متكافئـة يسـتعجل بهـا المضطهدون أو يفتعلها المشركون خوفاً من زيادة المؤمنين وتوقـع اخـتراق صـفوف المشركين بإيمان المزيد من المشركين، وبالتـالي يفقـد زعمـاء الشـرك السـيطرة علـى الجمهور، ويتجرأ عليهم المؤمنون، ولهـذا بـدأ رسـول الله ﷺ يفكـر بطريقـة وحـل يتجاوز الأمان التنظيمي في دار الأرقم، ومكة لم تعد تحتمـل المزيـد مـن المسـلمين، ومشركوها تكاد تفلت أعصابها، فأخذ رسول الله ﷺ يبحث عن دار للأمـان بعيـداً عن المشركين، وعن قبائل العرب، فألهمه الله تعالى أن يفتح لأصحابه بـاب الأمـان بالهجرة إلى الحبشة.

المبحث العاشر
الهجرة إلى الحبشة

هجرة الأمان

لماذا الحبشة والنجاشي:

قدر رسول الله ﷺ أن هذا الاضطهاد لأصحابه ولدعوته، أخذ يشتد فوق ما يطيقه الناس، وأنه لا بد من التفكير بمرحلة جديدة، إذ الابتلاء والفتنة لا يصح أن تكون خاتمة المطاف ولا هدفاً في ذاتها، وإنما هي من لوازم الطريق لغربلة الصف المسلم، ولتمحيصه. ولذا فقد أشار رسول الله ﷺ على أصحابه أن من يجد منهم منعة من أهله وقومه فذاك، ومن لم يستطع أن يأمن على نفسه فله أن يهاجر بحثاً عن مكان أمين، يأمن فيه على نفسه وأهله.

ولكن ما المكان الذي تستطيع الدعوة أن تجد فيه هذا الأمان؟

وهنا نجد رسول الله ﷺ يشير عليهم **بالحبشة**، وإلى حاكمها **النجاشي** بالذات فما السر في هذا الاختيار؟

أما الحبشة: فهي ليست دولة عربية أو عشيرة عربية تشعر أن في دعوة محمد ﷺ خطورة على أصنامها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهي قادرة على حماية من يلجأ إليها فهي دولة كبيرة، وهي دولة دينية وليست وثنية، فلعلها لا تناصر الوثنيين على من يحملون ديناً وليس دينهم، ولو كانت الهجرة إلى قبيلة عربية، إن قبلت ذلك، فلربما وقعت حرب أهلية بين قريش والقبيلة الحامية أو المجيرة للمسلمين.

كما أنه ليس لمشركي قريش أية سطوة[253] عليها، مما قد يسبب الأذى للمسلمين. وهي أرض أهل الكتاب فقد كانت نصرانية، وأهل الكتاب إذا كانوا منصفين هم أقرب إلى المسلمين من الوثنيين.

---

(253) أبو زهرة ، خاتم النبيين ج1 ص519

كما أن فيها **ملكاً** كانت المسموعات عنه أنه رجل كريم، يعدل ولا يظلم. ولقد لفت رسول الله ﷺ نظر المسلمين إلى هذه المعاني إذ قال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه"[٢٥٤].

وكان ذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعثه عليه الصلاة والسلام. وقد خرج أول فوج من المسلمين في هذه الهجرة وهم اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة، على رأسهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ. وقد امتدح الرسول ﷺ هجرتهما فقال: إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام"[٢٥٥]. ومن المهاجرين كذلك جعفر ابن أبي طالب، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن مسعود، والمقداد بن عمرو، وأبو عبد الله عامر بن الجراح وغيرهم.

وقد خرج المهاجرون متسللين في جنح الظلام حتى لا يعرف بهم المشركون، حتى وصلوا إلى ميناء شعيبة على البحر الأحمر، وركبوا في سفينتين تجاريتين حتى وصلوا إلى الحبشة. إلا أن قريشاً أخرجت من يطاردهم، ويتعقب آثارهم إلا أنهم نجحوا في ركوب القارب قبل أن يصل متتبعوهم إلى الشاطئ.

هجرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

وتذكر كتب السير أن ممن تضايق من إيذاء قريش واضطهادهم له أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فقد استأذن رسول الله ﷺ، فأذن له، حتى إذا خرج برك الغماد-وهو موضع على بعد خمسة أميال من طريق مكة إلى اليمن [٢٥٦]- لقيه أبن

---

(٢٥٤) ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص٦٩، بإسناد حسن وقد صرح ابن إسحق في هذه الرواية بالتحديث، انظر رواية مقاربة ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٧/ ١٨٩

(٢٥٥) ابن القيم، زاد المعاد. ص٢٤

(٢٥٦) انظر فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ٧/ ٢٣٣

الدَغِنَّة وهو سيد القارة-وهم حلفاء بني زهرة من قريش- قال له: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربي. قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يَخرُج ولا يُخرّج، فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار فارجع فاعبد ربك ببلادك. فرجع أبو بكر مع ابن الدغنة الذي أعلن في قريش جواره له، فوافقت قريش على أن يعبد أبو بكر ربه في داره ولا يستعلن. فمضى وقت على ذلك ثم أخذ أبو بكر يجهر بقراءة القرآن في فناء داره، فيجتمع نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون له وينظرون إليه، وكان رجلاً بكاءً لا يملك دمعه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك قريشاً، وطلبوا من ابن الدغنة أن يكفه، فخيره ابن الدغنة بين الإسرار بعبادته أو أن يردّ عليه جواره. فردّ أبو بكر عليه جواره قائلاً: إني أردّ إليك جوارك وأرضى بجوار الله. وبقي أبو بكر يتحمل الأذى مع رسول الله ﷺ[٢٥٧] ولم يفكر أبو بكر بعدها بالهجرة إلى الحبشة.

انزعاج قريش من الهجرة إلى الحبشة:

وهنا بدأت قريش تشعر أن ثمة تخطيطاً جديداً لمحمد ﷺ ودعوته، وأنه قد أخذ يشق صفهم بصورة غريبة فها هم أبناؤهم ونساؤهم يتركون مكة.

وفي ظل مجتمع قبلي، الخروج فيه من العشيرة إلى مضارب عشيرة أخرى لا يكون إلا لأمر هام وهو الشعور بالضعف والخوف والاضطرار، بسبب ظلم واستجارة بمجير، فالهجرة مرفوضة اجتماعياً لدى العرب لما فيها من التشتيت والتوهين للتماسك القبلي ولذا فقد عُدَّ هذا العمل من المهاجرين جريمة لما فيه من تصديع رهيب لكيان المجتمع الجاهلي بما لم يألفه من قبل، فالمهاجرون ليسوا من

---

[٢٥٧] انظر ابن هشام، السيرة النبوية٢/ ٣٧٢ بإسناد حسن كما ساق الرواية وحكم عليها أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص١٧٠-١٧١.وانظر سياق القصة في صحيح البخاري بشرح فتح الباري٤/ ٤٧٥-٤٧٦ وانظر فتح الباري ٧/ ٢٣٠-٢٣١ والبيهقي في الدلائل٢/ ٤٧١-٤٧٢ وأحمد في المسند٦/ ٣٤٦.إبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص٩٢

قبيلة واحدة وإنما هم من جميع القبائل.

كما خافت قريش أيضاً أن يحقق محمد لدعوته أنصاراً من خارج مكة وخارج الجزيرة العربية، مما يحقق العالمية لدعوته. فأخذت تخطط لإفشال هذه الخطة مع أنها هي التي دفعت المسلمين لمثل هذا الخروج بسبب الاضطهاد.

خطة ماكرة لإرجاع المهاجرين:

ولهذا كله فقد أرسلت قريش رجلين جلدين قادرين على المفاوضة والمراوغة والخداع، وهما عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي والبطارقة- وهم رجال الدين المسيحي من حول النجاشي-.

تحدثنا أم سلمة رضي الله عنها وقد كانت مهاجرة مع زوجها أبي سلمة عن خبر هذا الحوار الذي دار بينهما وبين النجاشي، وإقناعهما للبطارقة بالرشوة والهدايا فتقول: "لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار-النجاشي-، أمِنّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جَلْدين، وأن يهدوا للناس هدايا مما يستطرف- أي مما هو طريف وجميل وغريب ونادر- من متاع مكة، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم. ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم اسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي -ونحن عنده بخير دار عند خير جار- ؛ فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي. وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم. وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردَّهم إليهم. فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهم إلى النجاشي، فقبلها منهم، ثم كلماه فقالا

له: أيها الملك، إنه لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي- (يبدو أنها كانت تحسن الظن بعبد الله بن ربيعة وأنه كان مكرهاً على الخروج) قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقاً أيها الملك. قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليردوهم إلى بلادهم وقومهم، فغضب النجاشي ثم قال: لا هاالله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يُكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَن سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم؛ فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني"(٢٥٨).

تحليل:

ونتوقف هنا لنسجل بعض الملاحظات على هذه الرواية:

١- فقريش مستضعفة للمسلمين وتلاحقهم حتى في غير أراضيها، لأن الجاهلية تعلم مَكْمن الخطر في دعوة الله عليها، فهي تفضل أن يعيشوا معها في مكة حتى تتمكن من التأثير عليهم بكل الأساليب، وأن يبقوا على الأقل تحت سيطرتها، أو تُحجّم تأثيرهم ما أمكن إلى ذلك سبيلاً.

٢- ولا تريد قريش لهم الأمن والطمأنينة حيث حرية الفكر في الحبشة، والأمن

---

(٢٥٨) ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص ٨٧ ورواية أم سلمة من طريق ابن إسحق رواها أحمد في مسنده ٥/ ٢٩٠-٢٩٢ بسند صحيح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٦/ ٢٤-٢٧"رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير ابن اسحق، وقد صرح بالسماع" فالحديث بهذا صحيح، وقد صحح هذه الرواية أحمد شاكر في تعليقه على المسند حديث رقم١٧٤٠، انظر التوثيق في إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص٧٦.

السياسي، وشعورهم بحريتهم وإنسانيتهم يعزز الثبات على الدعوة ويمكنهم من حرية الحركة، وانتشار الإسلام. ولذا فقريش تبعث رجلين قويين حجة وبياناً ودهاء وأجساماً يستردان المهاجرين. وهذه قضية يجب أن ينتبه إليها من يعمل للإسلام، ومن يدعو لدين الله، وهي درس لا بد من إعطائه أهمية قصوى وهي قضية الأمن السياسي وضرورته للدعوة والدعاة، حتى يتمكنوا من نشر الخير والدعوة إليه. وأن الإخلال بالأمن وفقدانه يفتح عيون الظالمين على المسلمين، ويفقد المسلمين حرية العمل وحرية نشر مبادئهم إذ سيتعرضون للتضييق والضغط والمراقبة والمتابعة وإساءة الظن، وانتحال المعاذير باسم حفظ الأمن، والتخوف من الفوضى والمندسين ومن الإرهاب. وقد يُفقد الطغاة والملأ المستكبرون الدعاة إلى الله جمهورَ الناس، ويعبئون الجماهير ضدّ الدعوة، ويخوّفونهم باسم التخوف على الأمن من الدعوة إلى الإسلام ومن الدعاة. وقد يختلط الحابل بالنابل، ويعمل بعض الذين يجهلون فقه الحركة وفقه الدعوة وفقه الأولويات، ويستعجلون الأمور، أو تحفر لهم الحفر، ويوجهون بصورة غير مباشرة، فيوقعون الدعوة والدعاة في أوضاع لا يستطيعون فيها التفكير والتخطيط، ويؤلبون الرأي العام ضد الإسلام، ويستغلون جهل الجماهير ويؤلبونهم على الإسلام، ويصبح خنق الحريات والتوقف عن العمل للإسلام ضرورات وطنية وأمنية!

٣- ويبدوا أيضاً أن قريشاً لا تقيم وزناً للمسلمين، فالمهاجرون على أقل تقدير في الهجرة الأولى كانوا اثني عشر رجلاً وأربع نسوة. بل وإن عدد الذين جاءوا يستردونه ليسوا هؤلاء فحسب فإنه وإن كانت الدفعة الأولى هم هذا العدد، فإنه قد لحق بهم أعداد أخرى سواء بصورة فردية أو في تجمعات صغيرة حتى بلغ هذا العدد كما تروي كتب السير اثنين وثمانين سوى أولادهم ونسائهم، وكيف تفكر قريش أن اثنين يستطيعان أن يسوقا هذا العدد سواء كانوا على أقل تقدير أو على أعلى تقدير؟ إنها الغطرسة والشعور بالانتفاشة والغرور!!

٤- ثم تعال إلى رد الجميل بالجميل في رواية أم سلمة؛ حيث تذكر حسن جوار النجاشي، وتقدر لهؤلاء القوم حُسن صنعهم في تأمين المستجيرين. وهذا أدب للداعية لا بد أن يظهر على لسانه.

٥- ثم لنلفت أنظارنا إلى الأسلوب الجاهلي في الضغط "الدبلوماسي" على النجاشي وبطارقته، فوفد قريش مُحمّل بالهدايا للبطارقة وللنجاشي تمهيداً لأن يجدوا عندهم استجابة لطلبهم، وهي رشوة مكشوفة لم تستطع الدبلوماسية أن تخفيها.

٦- بل انظر إلى أسلوبهم الخبيث في استرضاء الحاشية والأتباع قبل الوصول إلى الملك، حتى تكون لهم يد عند البطارقة في طريق الضغط عليه ممن حوله والمؤثرين عليه، ومن خلال مستشاريه. ولذا فقد كانت نصيحة سادة قريش للوفدين أن: قدما أولاً إلى كل بطريق هديته قبل أن يكلما النجاشي. وفعلا سنجد أثر هذا عند بداية الحديث معه إذ يشير هؤلاء البطارقة على الملك أن يردّ المهاجرين مباشرة قبل أن يستفصل منهم قضيتهم بحجة أن قومهم أعلى عيناً بهم، وأعلم بما عابوا عليهم، وأننا لا علاقة لنا بشؤون الأقوام الأخرى، وأن إجارتنا لهم تدخل في الشؤون الداخلية للغير، مما أثار غضب النجاشي وهو رجل عاقل، وحاكم طيب، مجير لمن استجار به، فكيف يسلمهم دون أن يفهم المحق من المبطل؟! ولذا شعر بالحيلة والمكر عليه في تقديم هذه الاقتراحات من البطارقة، وشكك في الهدية التي قدمت إليه وأن قيمه العادلة في موضع الامتحان وأن ثمة نية مبيتة للتأثير عليه.

٧- ثم لننظر إلى هذا الأسلوب الخبيث من الرجلين: فهما لا يريدان تفاصيل الخلاف، ولا يعرضان شيئاً منه، ولا يعرضان تفاصيل الخلاف بين هؤلاء المهاجرين وبين أقوامهم، حتى لا يفسحوا فرصة لتعرُّف البطارقة والملك على ما معهم من دين، إذ يوقنان أن الذي معهم حق ويؤثر في النفوس لو سمعه الغير. ولكنهما يقولان متهمين للمهاجرين أنهم خرجوا على دين قومهم،

ومحَرِّضين بلمسة خفيفة ولكنها قوية للبطارقة والنجاشي عليهم إذ يقولان: فارَقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين لا نعرفه نحن ولا أنت وكأنهم حريصون على دين النجاشي وهو النصرانية. وكأنهم يوهمون النجاشي أن هؤلاء المسلمين المهاجرين لو تركوا دينهم الأول ودخلوا في دين الملك لم يكن ذلك ليزعج قريشاً. وهم يريدون بهذا تحريض النجاشي وتحريض بطارقته على المهاجرين، ويصفون هؤلاء المسلمين بأنهم إرهابيون وخارجون على القانون، ويزعزعون الأمن الوطني والاجتماعي لقومهم، فلماذا يُقبلون في الحبشة ويُعطون الأمن مع أنهم لم يحترموا قومهم ولم يحافظوا على دين أهلهم فلا داعي لحماية النجاشي لهم.

٨- ومع كل هذا التحريض والتحريش وشراء ضمائر البطارقة بالهدايا وقف النجاشي موقف رجل الحكم والدولة الذي بفطنته وحنكته أدرك الخديعة، حتى من بطارقته، وأدرك أن الهدايا المقدمة له رشوة، فغضب وطلب أن لا يضغط عليه أحد لاتخاذ موقف غير سليم، وغير مبني على الحق والعدل. فلا بد من أن يستفصل منهم؛ فهو قاض سمع من طرف واحد وهم وفد قريش؛ فلا بد أن يسمع من الطرف الآخر الذي قدر له الفضل في أن اختاروه مجيراً على من سواه. وهو بهذا يقدّر قيمة القضاء، ويسجل للمهاجرين لا فضله عليهم في أن أجارهم وأمنّهم، ولكنّه يُقدّر لهم أنهم مؤملون فيه، ومحسنو الظن به؛ إذ اختاروه على من سواه واختاروا بلده على ما سواها من البلدان للهجرة، فلا أقل من أن يسمع منهم قضيتهم ومرافعتهم عن أنفسهم، وينصفهم.

الأمر بين يدي النجاشي:

أثبت النجاشي أنه حاكم منصف كفؤ لحمل الأمانة، فلم يتخذ موقفاً سريعاً، بل غضب من البطارقة حينما حاولوا الضغط عليه ليفصل في القضية قبل الاستماع للطرف الآخر المدعى عليه، وليبعد هؤلاء المهاجرين مع وفد قريش، وأرسل

للمهاجرين في محضر بطارقته ليعطي درساً في سياسة الأمور.

وتكمل أم سلمة رضي الله عنها قصة هذا الحوار فتقول: "ثم أرسل لأصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، قال بعضهم لبعض، ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله في -جلسة القضاء والصحف الدينية تذكر بالعدل- سألهم: فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلّمه جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: أيها الملك؛ كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا **بصدق الحديث**، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت: فعدد عليه أمور الإسلام- فصدّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، **ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك**"[٢٥٩].

التحليل:

المرجع السابق ج٢ ص ٨٧-٨٨

وفي هذا المقطع من القصة نجد إشعاعات لطيفة منها:

١- إن هؤلاء المسلمين - وقد كانوا في أرض الهجرة وفي غربة - كانت بينهم العلاقات الأخوية بحيث يحترمون فيها غربتهم، فهم ليسوا متناثرين ، حسبهم أنهم حققوا الأمان واستراحوا من عناء التعذيب والاضطهاد، وذابوا في الحبشة البلد الكبير، مترامي الأطراف، متعدد الأجناس كثير السكان، أو بحثوا عن منافع اللجوء السياسي، أو الجنسية أو المواطنة، أو التجارة وتجميع الأموال. ولكنهم كانوا جماعة مترابطة سهل على النجاشي أن يدعوهم، فما كان منهم إلا أن اجتمعوا فوراً وأجابوه إلى طلبه دون تأخير. فكانوا إذن على علاقة منظمة بعضهم ببعض، لهم أمير، وفيهم شورى، بحيث اجتمعوا فوراً حينما أرسل إليهم النجاشي. وكان لهم ناطق رسمي باسمهم جميعاً هو جعفر بن أبي طالب لمواصفات يمتاز بها، من حسن المدخل، وحلاوة الأسلوب، وقوة البيان، حيث تكلم باسمهم وهم ساكتون، ومقرون ما يقول. ولهذا أثر كبير في نفوس القوم. ولدى متحدثهم حسن التأني في الخطاب، واحترام الملك الذي يكلمه مخاطباً إياه بمقامه في قومه "أيها الملك".

٢- ثم لننظر هذه الإشارة اللطيفة الجميلة القوية، فجعفر يجيب النجاشي قاضياً كطرف آخر في الخصومة بلا انفعال، ولا توتر أعصاب، ولا تركيز على إثارة جزئية أو خلافات خاصة، مع تخوفه وتخوف المسلمين جميعاً من مغبة هذه المؤامرة التي أرادتها قريش بهم.

٣- ثم هو يوضح تعاليم الإسلام عقيدة وخلقاً ونظاماً للحياة مقارناً له بتعاليم الجاهلية وأوضاعها وقيمها الفاسدة، بحيث لا يسمع عاقل ما كان عليه حال القوم وما آلوا إليه بفضل دعوة الإسلام إلا وأدرك أن هؤلاء المهاجرين أصحاب حق، وأن قومهم مبطلون. فكيف والسامع هو ملك عاقل صاحب دين لا يقر الفواحش ولا عبادة الأوثان!

٤- ولا تنس أن لهجة جعفر قدر ما كانت لهجة دفاع عن نفسه وعن المسلمين

وعن دعوة الإسلام وأحقيتها كانت لهجة داعية إلى ربه، واتته فرصة رائعة لأن يُسمع النجاشي وبطارقته وأساقفته دعوة الإسلام، مما لم يكن متيسراً له قبل هذه اللحظة، إذ ليس مناسباً أن يطلبوا منه الجوار ثم يعلنوا له عن حركة منظمة تريد أن تحول الناس حتى من النصرانية إلى الإسلام. ولكنها الآن اللحظة المواتية لعرض دعوة الإسلام على النجاشي وأساقفته. وذلك ما اتفقوا عليه جميعاً أن يقولوا الحق وما تعلموه من النبي ﷺ وليكن ما هو كائن.

٥- ولكنها الدعوة: الاستمالة للقلوب إلى هذا الدين وتعاليمه دونما إثارة وتعريض بمعتقدات النصرانية الفاسدة، فضلاً عن أن التركيز في الحديث وفي الدفاع عن دينهم كان قائماً على عبادة الله وحده لا شريك له **وصدق الحديث**، مما يؤكد أن ما يقولونه في تصوير حقيقة الخلاف مع قومهم هو صدق علّمهم إياه دينهم ويُذكّرون النجاشي بأسلوب غير مباشر أن نبيهم دعا إلى **حسن الجوار** مما يذكّر النجاشي بفضله عليهم في حسن الجوار، وإنصافهم باستمرار حسن الجوار.

كسب المسلمون القضية:

ويبدو أن الله سبحانه وتعالى قد فتح قلب النجاشي لحقيقة الإسلام، مع أنه لم يقصد إلى هذا أصلاً. وهذه قوة الحق الذاتية لدعوة لا إله إلا الله، وقوته في مخاطبة الفطرة السليمة فهو دين الفطرة، مما جعل النجاشي يطلب من جعفر أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به هذا الدين الجديد. قالت أم سلمة: "فقال النجاشي: هل معك مما جاء به الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال النجاشي: فاقرأه علي، قالت: فقرأ عليه من"كهيعص" (أي سورة مريم) فبكى والله النجاشي: حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة،

انطلِقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون[٢٦٠].

محاولة كيد جديدة:

ولما فشل الرجلان في إفساد طيب الإقامة للمسلمين، دفعتهم العصبية والجاهلية إلى عدم اليأس مما يريدون. وهنا لا بد أن تقف عند هذه القضية فلا يظن المسلم أن أعداءه سينامون حتى لو فشلوا في مبتغاهم من النيل منه، ولكنها المعركة المستمرة بين الحق والباطل. والمسلم يعمل بكل ما آتاه الله من قوة، ويعلم أن عدوه لا ينام فلا يصح له أن ينام، بل يبذل جهده، ويتصرف مع كل أزمة ومفاجأة تصرف المؤمن الواعي العامل لدين الله في إطار خلقي **أساسه وضوح الدعوة إلى الله، وحافظه سلامة المسار** وفق ما يرضي الله.

خرج عمرو بن العاص مصمماً أن يتجاوز فشله، تدفعه جاهليته أن ينتقم من المسلمين، رغم نصيحة صاحبه عبد الله بن أبي ربيعة له أن يقف عند حدود الكيد بهم، وأن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفوها، إلا أن عمرو بن العاص أخذته العزة بالإثم لأنه هُزم أمام النجاشي، وفشل في تحقيق مطلبه ومهمته، ولا يريد أن يعود إلى قريش وقد فشلت مهمته، فأبت عليه عزة نفسه إلا أن يُحكم خيوط مكره بالمؤمنين المهاجرين وقال لعبد الله بن ربيعة: والله لآتينه غداً بما استأصل به خضراءهم، فجاء النجاشيَّ، وقال له: يا أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، وأنه عبد، وهو بهذا يريد استعداء النجاشي؛ فهو نصراني، والنصارى يعتقدون أن عيسى إله وابن رب وليس بشراً. فأرسل إليهم النجاشي فسألهم عما يقولون في عيسى.

وضوح وصراحة:

وهنا يواجه المسلمون فتنة جديدة كيف بهم يقررون عقيدة عبودية المسيح

---

(٢٦٠) المرجع السابق ص ٨٨

وبشريته في ظل مجتمع يعتقد بألوهيته؟ إلا أن **عقيدة المسلم** وطبيعة دعوته لا تقبل منه إلا الصراحة **ووضوح المفاهيم** كائنة العاقبة ما كانت. فأجابوا النجاشي: نقول ما قال الله وما جاء به نبينا ﷺ: **هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول**"[٢٦١]

التحليل:

وهذه حصافة من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حيث أفشل المكيدة، فأظهر حقيقة عيسى بأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم العذراء البتول، وهذا الكلام يرضي النصارى من ناحية أنه كلمة الله، وأن مريم عذراء وطاهرة، وهو في الوقت نفسه لا يثير النجاشي إذ لم يدخل في إثارة موضوع ألوهية المسيح وأنه ابن الرب أم لا وأنه بشر أم لا، والكلام الذي قاله من وجهة نظر النصارى مقبول، وهو في فهم المسلمين ينفي عن عيسى عليه السلام أنه ابن رب، وهو يؤكد بشريته فهو ابن امرأة حملت به، وهي طاهرة وليست زانية، وهنا تظهر حصافة الداعية الذي يختار التأثير في السامع من خلال الكلام المؤثر. وإن هذه الإجابة مما قال الله في عبده، وليس من عندهم، ولا يختار الإثارة فيصطنع المشاكل، ويدخل في المتاهات، ولهذا كانت النتيجة في هذه المرافعة في الإجابة على سؤال النجاشي:- ماذا يقول دينكم في عيسى-؟ محبطة لآمال عمرو بن العاص في استئصال شأفة المسلمين المهاجرين، وكانت مؤثرة بل عميقة التأثير في النجاشي، الملك العاقل، إذ جعلته يقف الموقف الصادق مع المعلومة الصحيحة.

ولنعد إلى استكمال الرواية كما تقول أم سلمة رضي الله عنها: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قال هذا العود. فتناخرت بطارقته – أي تعالت أصواتهم، مستغربين ومستهجنين ومعترضين حوله – حين قال ما قال، فقال النجاشي: "وإن نخرتم والله. اذهبوا

---

(٢٦١) المرجع السابق

فأنتم(شيوم) بأرضي-أي آمنون- من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي (دبرا)من ذهب – أي جبلاً من ذهب- وأني آذيت رجلاً منكم"[٢٦٢].

وإذا بالنجاشي يقف موقف من صدق فيه حدس رسول الله ﷺ أنه لا يظلم عنده أحد، فيرد على هؤلاء مبتغاهم، وأكثر من ذلك يرد عليهم هداياهم ويقول: "**ردوا عليهما هداياهم فلا حاجة لي بها** ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه".[٢٦٣].

وهو يشير هنا إلى حادثة وقعت له من مؤامرة على حكمه بحيث طُرد وبيع بيعة العبيد إلا أن الله قدر عودته للحكم وقد فرح المسلمون لعودته إلى الحكم. حتى قال بعض المهاجرين: "فدَعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له في بلاده. وبعثوا الزبير يستطلع أخبار الفتنة وعاد يقول: ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوه، ومكّن له في بلاده"[٢٦٤].

وهنا تجد كيف فرح المسلمون لانتصار النجاشي على عدوه؛ فهم لم يكونوا يطمعون، وليس في خطتهم وقتها أن يقيموا حكم الإسلام في الحبشة؛ لأن الهجرة يومها كانت **هجرة أمان**. وماذا يمكن للمهاجرين يومها أن يفيدوا أنفسهم ودعوتهم من خلخلة الأوضاع الأمنية في الحبشة، بل ربما كانوا يخسرون فيها أكثر مما يربحون مما ينعكس سلبياً عليهم إذا جاءهم ملك ظالم جائر، بدل ذلك الملك العادل الذي مدحه النبي ﷺ، وقال عنه إن فيها ملكاً عادلاً لا يظلم عنده أحد. هذا فضلاً عن أن

---

(٢٦٢) المرجع السابق

(٢٦٣) المرجع السابق

(٢٦٤) اخرج هذه القصة ابن اسحق في المغازي عن ابن هشام وأحمد في المسند رقم ١٧٤٠ من طريق ابن اسحق بسند صحيح من حديث ام سلمة رضي الله عنها. انظر، الألباني في تخرجه لأحاديث فقه السيرة للغزالي هامش ص١٢١، كما ذكرها ابن سعد في الطبقات الكبرى ج ١ ص١٣٨

الرجل الآخر الذي جاء بالفتنة على النجاشي كان سيئاً؛ سيؤثر حكمه في تقديرهم على وجودهم وأمنهم. وهذا إحساس سليم منهم بالأوضاع السياسية من حول المهاجرين فيما ينعكس عليهم أمنياً في تلك الظروف. بل هذا هو منتهى الوعي الأمني والوعي السياسي، والإحساس بالواقع، والتعامل مع المستجدات المحلية والقطرية، على طريق الإحساس بالأحداث العالمية طبقاً لعالمية الإسلام.

المبحث الحادي عشر
إسلام عمر رضي الله عنه

تشتد الأزمات بالمسلمين، بين مهاجرٍ في سبيل الله إلى الحبشة، يبتغي أمنا وبعداً عن التعذيب، ومعذبٍ في أهله وقومه، تلهب ظهره السياط، ولا يستطيع لها دفعاً، ولا يمنع ذلك كله من أن تنفتح قلوبٌ لهذا الدين؛ فتؤمن به على خوف، ويتزايد المؤمنون بالإسلام رغم كل الاضطهاد.

وبعد إسلام شخصية كبيرة، اختُرم بها صناديد قريش وهو حمزة، تجد شخصية أخرى ذكية لماحة تعيش في صراع داخلي تسلم نفسها في هدوء إلى تفكير فطري في هذا الإسلام الذي يدعو إليه محمد ﷺ.

وها هو ذا يسبق إلى الدخول فيه شخصية لها وزنها وهو حمزة رضي الله عنه.

وتسلم نفسها مرة أخرى إلى ضجيج المجتمع الجاهلي وهو أحد زعمائه، ولذا تجد منه تصرفات وأقوالا تجعلك تحكم بهذا الصراع الداخلي تعتلج به مشاعره وتتضارب به أقواله وتصرفاته إنه عمر بن الخطاب.

طمع رسول الله في إسلام عمر رضي الله عنه :

ولقد كان رسول الله ﷺ، بعد إسلام حمزة يطمع ويأمل أن ينصر الله هذه الدعوة بإسلام أحد الرجلين: رجل طالما وجد المسلمون منه بأساً شديداً وهو شديد العداوة للإسلام وأهله، وإذا أسلم كان حل كبير لقضية الصراع وهو أبو الحكم عمرو بن هشام الذي غير النبي ﷺ كنيته إلى "**أبو جهل**"، ورجل قوي يستطيع أن يقف في وجه أبي جهل، وينضم إلى حمزة ابن عبد المطلب الذي أسلم وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وإن مما يقوي نفس حمزة أن يرى شخصية قوية لحقت به في الإسلام، بالإضافة لما لهذا من تصديع لكيان الجاهلية بدخول زعماء منها في الإسلام فينفرط عقدها؛ إذ أن اجتماعهم كزعماء على حرب الإسلام له أثر في صمودهم جميعاً، كما أن في

إسلام بعض الزعماء ما يزيد المؤمنين قوة وثباتاً. ولذا فإن رسول الله ﷺ يـدعو الله سبحانه وتعالى أن يعز الإسلام بهؤلاء الزعماء فيقول: "اللهم أعـز الإسـلام بأحـب الرجلين إليك: بأبي جهل بن هشام أو بعمر"[٢٦٥].

أما تحديد زمن إسلامه فيرى العمـري أنـه لم تصـح فيـه روايـة بدقـة، في حـين جعلها ابن إسحق بعد هجرة الحبشة الأولى، بينما حددت رواية الواقدي أنها كانت في ذي الحجة من السنة السادسة للبعثة، وأنه كان ابن ست وعشرين سنة، وأن عدد المسلمين كان أربعين أو خمسين، منهم عشر نسوة أو إحدى عشرة"[٢٦٦]

صراع داخلي يؤرق عمر رضي الله عنه:

وتؤكد الروايات هذا الصراع الداخلي في شخصية عمر، فهو يلتقي أسـرة مـن المسلمين مهاجرة في سبيل الله إلى الحبشة، ومع أنه قوي الشـكيمة جـاف الطبـع إلا أن له رقَّة إذا ما ابتعد عن جو الزعماء تسجلها المرأة المهاجرة أم عبد الله بنـت أبـي حتمة فتقول:" والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا إذ أقبل عمر بن الخطاب، حتى وقف عليَّ وهو على شِركه، قالـت: وكنـا نلقـى منـه البلاء أذى لنا، وشدة علينا، قالـت: فقـال: إنـه للانطـلاق يـا أم عبـد الله! قالـت: فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجا. قالت: فقال: صحبكم الله. ورأيت له رقة، ولم أكن أراها، ثم انصرف وقـد أحزنـه فيما رأى خروجنا. قالت فجاء عامر بحاجته تلك، فقالت لـه: يـا أبـا عبـد الله، لـو

---

[٢٦٥] الترمذي، الجامع الصحيح ج٥ ص ٦١٧ وقال حسن صحيح غريب أخرجه من طريق ابن عمـر وتتمته :قال...وكان أحبهما إليه عمر" قال ابن حجر أخرجه الدارقطني من طريق القاسم بن عثمـان عن أنس....وفي رواية عن ابن مسعود بلفظ:" اللهم أيد الإسلام بعمر"ومن حديث علـي مثلـه بلفـظ "أعز.." وصححه ابن حبان وفي إسناده خارجة بن عبد الله صدوق فيه مقال لكن له شاهد من حديث ابن عباس وأخرجه الترمذي أيضاً وله شاهد مرسل أخرجه ابن سعد من طريـق سـعد بـن المسـيب والإسناد صحيح ، انظر ابن حجر ، فتح الباري ج٧ ص٤٨ ابن سعد ، الطبقات ج٣ قسـم ١ ص ١٩١.

[٢٦٦] انظر العمري ، السيرة النبوية الصحيحة، ص١٧٧، وانظر فتح الباري ٧/ ١٨٧

رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم. قال فلا يسلم الذي رأيتِ (يعني عمر) حتى يسلم حمار الخطاب! يأساً منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام"[٢٦٧].

ولعل ما كان يراه عمر من خروج المسلمين من مكة مهاجرين ما يجعله يتألم بينه وبين نفسه بعيداً عن سائر المشركين، وكانت تزيد رِقَّته وتجعله يناقش في نفسه لماذا يهاجر هؤلاء ويهجرون مسقط رؤوسهم وأعز الأرض على العرب قاطبة؟ ثم أليس من الظلم أن تضيق الحرية على الناس بالقهر والظلم والأذى حتى يخرجوا من ديارهم؟ وقد كان رأي المرأة صادقاً في تصوير ما اختلج عمر من مشاعر ظهرت على وجهه مما لم يدركها زوجها الناظر للأمر عن بُعد دون أن يرى وجه عمر، ولم يسمع رقته في الكلام، ولقد شاء الله سبحانه أن يجيب دعوة رسول الله ﷺ بإسلام أحب الرجلين، إليه وأن يصدق حدس المرأة، فيسلم عمر بن الخطاب ويدفع يأس زوجها عامر من إسلامه.

رواية في إسلام عمر:

تذكر كتب السير ، قصة إسلام عمر، التي كانت نهاية الجولة مع ابن عمه سعيد بن زيد وزوجته -أخت عمر- فاطمة بنت الخطاب. ويبدو أن عمر فعلاً كان يريد وضع حدّ لما يتنازعه من صراع داخلي؛ هل يستجيب لنداء الحق وهتاف الفطرة فيسلم؟ أم يبقى هكذا يعيش هذا الصراع؟ إن إسلامه يكلفه أن ينتزع نفسه من الجاهلية وزعامتها. وهذا أمر صعب وراءه تكاليف باهظة. وانتهى تفكيره إلى أن يضع حلا لهذا النزاع بأن يصفي الدعوة الإسلامية بالإقدام على قتل رسول الله ﷺ، مع أن هذا التفكير بقتل محمد ﷺ إن كان يراود الجاهليين إلا أنهم لم يكونوا

---

(٢٦٧) ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص٩٥

ليجهروا به أو يجرؤوا عليه، فضلاً عن أن يتخذوا فيه موقفاً جدياً بالإقدام عليه.

وفعلاً خرج عمر ليحسم القضية فيما يروي ابن اسحق القصة فيقول: "فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه، وقد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر وعلي في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ في مكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نُعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال أريد محمداً هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها، وسب آلهتنا فأقتُله. فقال نُعيم: والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال:أي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه-زوج أخته- وعندهما خباب بن الأرتّ معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما إياها. فلما سمعوا حِسَّ عمر تغيب خباب في مخدع لهم- أو في بعض البيت-، وأخذت فاطمة الصحيفة، فجعلتها تحت فخذها. وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما. فلما دخل قال: ما هذه الهينمة[٢٦٨] التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً. قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكُفّه عن زوجها فضربها، فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد- وكان عمر كاتباً-. فلما قال ذلك قالت أخته: إنا نخشاك عليها قال: لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إليها فلما قال ذلك طمعت في إسلامه،

---

[٢٦٨] الهينمة، الصوت الخفي غير المفهوم

فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر، فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها فلما قرأ صدراً منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع خباب خرج إليه فقال له : يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه؛ فإني سمعته وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب. فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب: هو ببيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف، فرجع الى رسول الله ﷺ وهو فزع فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه. فقال رسول الله ﷺ: إئذن له. فأذن له الرجل ونهض اليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ حجزته أو بمجمع ردائه، ثم جبذه[٢٦٩] جبذة شديدة. وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة.

فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله. فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم." [٢٧٠].

وهكذا نجد كيف يحول الله سبحانه الأحداث ويقلبها؛ فعمر خرج ليقتل رسول

---

(٢٦٩) هكذا وقت في ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض) ج٢ ص٩٦ ووقعت في ابن كثير ، النهاية ج٣ ص٨٠ جذبه جذبة. وقد رجح الفيروز آبادي أن معنى جبذ هو جذب وأنها لغة صحيحة وليست مقلوبة انظر الفيروزآبادي، القاموس المحيط ط٢ مصطفى البابي الحلبي القاهرة سنة ١٩٥٢ ج١ ص ٣٦٤

(٢٧٠) ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص٩٥

الله ﷺ، وانتهت رحلته تلك على غير ما خرج من أجله، فإذا به يجد نفسه يسلم بين يدي رسول الله ﷺ طائعاً مختاراً. وهذا تحول خطير وكبير في حياة عمر، بل وفي سيرة الدعوة إلى الإسلام مما يشعر المسلمون بتباشيره، إذ ارتفعت أصواتهم بالتكبير فرحاً بإسلامه.

رواية أخرى في إسلام عمر:

تروي كتب السيرة حادثة أخرى متعلقة بإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يرويها هو نفسه فيقول: "كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأسر بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة عند دور آل عمرو بن عمران المخزومي. قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمّار- وكان بمكة يبيع الخمر- ، لعلي أجد عنده خمراً فأشرب منها. قال: فخرجت فجئته فلم أجده، فقلت: لو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين، فجئت أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام. وكان مُصلاه بين الركنين الركن الأسود والركن اليماني، فقلت حين رأيته والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأروعنه، فجئت من قبل الحِجر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رويداً ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مُستقبِله، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: لما سمعت القرآن رقّ له قلبي، فبكيت، ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف، فتبعته بين دار عباس ودار ابن أزهر حتى أدركته، فلما سمع رسول الله حِسي عرفني، فظن رسول الله ﷺ أنما تبعته لأوذيه، فنَهمني ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قلت: جئت لأؤمن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله. قال فحمد الله رسول الله ﷺ، ثم قال: هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ

بيته"[٢٧١].

القرآن وأثره:

نعم إنه القرآن الكريم، نور هذه الدعوة الذي يجب أن لا يغفل الداعية عنه قراءة وتدبراً، وقراءة للغير حتى يسمعه الناس؛ فإن له أثراً كبيراً لا يدانيه حديث الداعية الشخصي عن أمر من الأمور، وإن لهذا القرآن جاذبيته التي لا يستطيع أن يتجاهل أثرها حتى عتاة الأرض قال إبن اسحق:"وحدثني محمد بن مسلم ابن شهاب الزهري أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا"[٢٧٢].

وها هو ذا ابن مسعود يجيب طلب أصحاب الرسول ﷺ، في أن يجهر فيهم بالقرآن قال إبن اسحق: "اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود:أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني فان الله سيمنعني. فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في

---

[٢٧١] ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص٩٧

[٢٧٢] المرجع السابق ج٢ ص ٦٦

الضحى، وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ**بسم الله الرحمن الرحيم**" رافعاً بها صوته، (**الرحمن علم القرآن**) ثم استقبلها يقرأها فتأملوه يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا :إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن. ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً. قالوا: لا قد سمّعتهم ما يكرهون"[٢٧٣].

وها هو ذا أبو بكر رضي الله عنه يدرك أثر هذا القرآن فيصر على أن يجهر به لما يرى من أثره في النفوس، حتى ولو أدى ذلك إلى رد جوار ابن الدغنة ، خرج أبو بكر ليهاجر إلى الحبشة، فلقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش فقال له: أين أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي. قال: ولم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم. ارجع وأنت في جواري، فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرضن له إلا بخير فكفوا عنه. وكان لأبي بكر مسجد باب داره في بني جمح فكان يصلي فيه، وكان رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن بكى فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء لما يرون من هيئته. فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة فقالوا: يا ابن الدغنة إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا. إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي، وكانت له هيئة، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفائنا أن يفتنهم. فأمره أن يدخل بيته، فليصنع فيه ما شاء. فمشى ابن الدغنة إليه فقال له: يا أبا بكر: إني لم أجرك لتؤذي قومك. إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت قال: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله؟ قال فاردد علي جواري قال: قد رددته عليك"[٢٧٤].

---

(٢٧٣) المرجع السابق ص٤٧

(٢٧٤) ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص١٢٢ وإسنادها حسن

عمر يتحدى الجاهلية بإسلامه:

نعود مرة أخرى إلى عمر بن الخطاب الذي أسلم، وكان إسلامه بعد طول مراودة لنفسه، وكان يحسب لكل أمر حسابه. ومع هذا التحول تتجه رجولته وقوته إلى التحدي لكل زعامة قريش؛ فإذا به يتحرك ليبلغهم بنفسه خبر إسلامه وما يحمله هذا الخبر بعد ذلك من تبعات. وها هو ذا يحدّث عن نفسه فيقول:"لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت؟ قال: قلت أبو جهل- وهو خال [٢٧٥] عمر بن الخطاب إذ أن أم عمر هي حنتمة بنت هشام بن المغيرة. قال: فأقبلت حتى أصبحت، حتى ضربت عليه بابه. قال: فخرج إليّ أبو جهل، فقال: مرحباً وأهلاً بابن أختي ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي. وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به [٢٧٦].

وعمر هنا في فرحة إسلامه وإيمانه وهو مستشعر أثر دعاء رسول الله ﷺ أن يسلم أحد الرجلين أبو جهل أو عمر، بل إنه في قمة السرور في أنه أحب إلى الله من أبي جهل؛ ذلك أن كلمات الرسول ﷺ التي ذكرها له خباب ما زالت ترن في أذنيه وهي في رواية ابن عمر رضي الله عنهما: "اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر ابن الخطاب"[٢٧٧]، فقد أعز الله الإسلام بعمر بن

---

(٢٧٥) هكذا وقع في سيرة ابن هشام ج٢ ص ٩٨ ويرجح ابن حجر أن أم عمر هي حنتمة بنت هاشم ابن المغيرة ابن عم أبي جهل ذلك أن أبا جهل هو عمرو بن هشام بن المغيرة. ووقع عند ابن مندة أنها بنت هشام وهو تصحيف نبه عليه ابن عبد البر وغيره انظر ابن حجر، فتح الباري ج٧ ص٤٤ في ترجمته لعمر.

(٢٧٦) ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص٩٨

(٢٧٧) أخرجه أحمد بن حنبل، نظر الساعاتي، الفتح الرباني، ٢٠/ ٢٣٠، ومسند الإمام أحمد ٢/ ٩٥، والترمذي، الجامع الصحيح رقم٢٦٨٢، ٢٦٨٤ وقال حسن صحيح غريب، ابن ماجة في المقدمة رقم١٠٥، والبيهقي في الدلائل، ٢ ، ٢١٥ – ٢١٦، الحاكم في المستدرك، ٣/ ٨٣ وقال صحيح الإسناد. انظر إبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية ص٧٩

الخطاب حتى رأى المسلمون بعد ذلك أثر إسلامه في قوة الدعوة الإسلامية، فأخذ المسلمون يخرجون مجتمعين ليصلوا على ملأ في الكعبة، يسيرون في صفين على رأس أحدهما حمزة أسد الله وسيد الشهداء، وعلى رأس الصف الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنها. ويقدر هذا صحابي جليل هو ابن مسعود فيقول: "ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر"[٢٧٨]. ويقول: "إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة. ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر"[٢٧٩]. وفي رواية: " إن إسلامه كان نصراً"[٢٨٠].

ولقد كان وقع إسلام عمر شديداً في نفوس الجاهليين، فها هو ذا يتوقع إيذاءهم له، يروي البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر عن أبيه:" بينما هو في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي، أبو عمرو، عليه حلة حبر وقميص مكفوف بحرير- وهم من بني سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية – فقال: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت. قال: لا سبيل إليك. بعد أن قالها أمنت، فخرج العاص، فلقي الناس قد سال بهم الوادي. فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ، قال: لا سبيل إليه فكرَّ الناس"[٢٨١].

وخرج عمر يتحداهم أنه قد أسلم فثاروا إليه. قال ابن إسحق: وحدثني نافع

---

(٢٧٨) صحيح البخاري، بشرح فتح الباري، ج٧ كتاب فضائل الصحابة رقم ٣٦٨٤ ص٤١ وكتاب مناقب الأنصار رقم ٣٨٦٣ ص ١٧٧

(٢٧٩) ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص٩٥.قال البكائي:حدثني مسعر بن كدام عن سعد ابن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود ويذكر ابن حجر في كتابه فتح الباري عن ابن أبي شيبة والطبراني من طريق القاسم بن عبد الرحمن قال: قال عبد الله بن مسعود مع استبدال كلمة فتحاً بكلمة عزا.انظر فتح الباري ج٧ ص٤٨ وجاء في رواية القاسم بن عبد الرحمن عن ابن مسعود بزيادة "فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا انظر هذه الزيادة في ابن سعد، الطبقات الكبرى ج٣ قسم ١ ص١٩٣بإسناد صحيح والزيادة من محمد بن عبيد وهو ثقة زيادته صحيحة

(٢٨٠) الطبراني، المعجم الكبير، ٩/ ١٨١ بإسناد حسن

(٢٨١) صحيح البخاري، بشرح فتح الباري ج٧ رقم ٣٨٦٤ ص ١٧٧

مولى عبد الله بن عمر عن ابن عمر قال: "فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم وطَلَح (أي وقع على الأرض من التعب غير قادر على القيام)، فقعد، وأقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم. فأحلف بالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل لتركناها لكم أو لتركتموها لنا. فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش- أي العاص- حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم قالوا: صبأ عمر، فقال: فَمَه، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلّوا عن الرجل. فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه"[٢٨٢].

---

(٢٨٢) ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص٩٧-٩٨ وخرجه إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص٨١ وقال: أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادته على فضائل الصحابة٣٧٢ ، وابن حبان رقم ٦٨٤٠، والبزاز رقم٢٤٢٩، والحاكم في المستدرك٣/ ٨٥ وصححه ووافقه الذهبي، وفي السيرة النبوية للذهبي ص ١٠٤، ١٠٥ وقال : رواه ابن جبان في صحيحه ٩٨٧٩ من حديث جرير بن حازم عن ابن إسحق، وابن كثير في السيرة ٢/ ٣٨-٣٩ وقال : هذا إسناد جيد قوي وقال الهيثمي في المجمع ٩/ ٦٥ رواه البزار والطبراني باختصار ورجاله ثقات وابن إسحق مدلس قلت: صرح ابن إسحق بالتحديث وإسناده صحيح وإجارة العاصي بن وائل السهمي لعمر صحيحه في البخاري بشرح فتح الباري ٧/ ١٧٧.

المبحث الثاني عشر
عودة بعض المهاجرين من الحبشة إلى مكة

الشوق إلى الوطن:

ورغم الأمان الذي حصل عليه المسلمون المهاجرون في الحبشة، إلا أن قلوبهم كانت تشتاق إلى العودة إلى الوطن، فالحر لا ينسى وطنه، فضلاً عن أن يكون هذا الوطن هو مكة، البلد الحرام، وفيها حبيبهم رسول الله ﷺ، ففراقه كان صعباً على نفوسهم. وحصلت هناك حادثتان ربما كانتا من أسباب عودة بعض هؤلاء المهاجرين إلى مكة:

إحداهما: حادثة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة السادسة من البعثة، ووصل إلى مسامع المهاجرين أن المسلمين قويت شوكتهم، وارتفع عزّهم بإسلامه، وكان قبل ذلك إسلام حمزة. وهما رجلان قويان خرجا يقودان المسلمين صفين جهاراً نهاراً يريدان الصلاة بالبيت على مرأى ومسمع من المشركين، وظن المسلمون أن هناك هدنة بين المسلمين والمشركين حصلت.

والحادثة الأخرى: ما سمعا عنه من أن المشركين لانت قلوبهم وأنهم لما سمعوا النبي ﷺ يقرأ في صلاته جهراً سورة النجم، فسجد في موضع السجود، وسجد كل من كان حاضراً في المكان إلا اثنين من المستكبرين، فشاع أن قريشاً قد أسلمت[٢٨٣].

"وطارت الأنباء إلى الحبشة بأن المشركين هادنوا المسلمين وتركوا لهم حرية تدينهم، ولم يعد أحد من المسلمين يتعرض للأذى. كانت هذه الأنباء ملفقة مدسوسة لتبرير هدوء قريش، ووصلت الأنباء إلى الحبشة بعد عودة مندوبي قريش خائبين. فلم يكن مستبعداً أن تكون قريش مصدرها، وقد تكون قد نقلت عن حسن نية في فترة هدأة قريش لإعادة حساباتها بعد إسلام عمر. وبغض النظر عن

---

(٢٨٣) ساق هذا الخبر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ووثقه من صحيح البخاري بشرح فتح الباري٢/ ٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٦٠ ، ٥٦٥ ، ٨/ ٦١٤ وصحيح مسلم ١/ ٤٠٥.

مصدر الأخبار ودوافعها، فإن المسلمين في الحبشة تلقفوها متعطشين تعطش الأرض الجرداء لوابل المطر. فما من إنسان يترك وطنه ليعيش في غربه من بلاد الله إلا مكرهاً. لذلك قرر كثير منهم العودة إلى مكة[٢٨٤].

عثمان بن مظعون:

ومن الصحابة الذين عادوا من الحبشة إلى مكة عثمان بن مظعون رضي الله عنه[٢٨٥] ومما يذكر فيه بعد عودته إلى مكة ولم يجد الأخبار صحيحة فدخل في جوار الوليد بن المغيرة بن شعبة. ولما رأى نفسه آمناً، ورأى إخوانه المسلمين معذبين، وفي البلاء قال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة، وقال: يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، قد رددت إليك جوارك، وبرّر ذلك للوليد الذي نصحه ألا يرد عليه جواره بأنه يكتفي بجوار الله، وردّ عليه جواره على ملأ من الناس عند الكعبة. وبعدها حضر عثمان مجلساً للشعر قال فيه الشاعر لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. قال عثمان: صدقت. وعندما قال: وكل نعيم لا محالة زائل. قال عثمان: كذبت، فإن نعيم الجنة لا يزول. فاستعدى لبيد الحاضرين من المشركين، فلطموا عثمان وآذوا عينه، فقال له مجيره السابق الوليد: أما والله يا ابن أخي، لقد كانت عينك عمّا أصابها لغنية، لقد كنت في ذمّة منيعة. (أي في جواره ولو لم يرد عنه جواره لحماه ومنعه من القوم) فقال عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس[٢٨٦].

قضية الغرانيق وسجود المشركين:

ثمة قضية وهي: لماذا سجد المشركون عندما سمعوا آية السجدة في سورة

---

(٢٨٤) الأسمر، القدوة في السيرة النبوية، ص١٣٦

(٢٨٥) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ٧/ ١٨٩

(٢٨٦) ابن هشام، السيرة١/ ٣٧٠-٣٧١ وصرّح فيه بالسماع، وسنده منقطع، وأخرجه البيهقي في الدلائل، ٢/ ٢٩٢ والطبراني في الكبير مرسلاً ٩/ ٢١-٢٤

النجم عندما سمعوا قراءتها من النبي ﷺ وسجد؟ يقال: إنهم سمعوا في القراءة عند ذكر اللات والعزة ومناة الثالثة الأخرى أنهم سمعوا: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهم لترتجى. وقام علماء السنة بنسف هذه الرواية وعدّوها مختلقة، وأنها فرية افتراها المشركون ليبرروا سجودهم، أي أنهم لم يتأثروا بالقرآن فسجدوا، إنما سجدوا لاستماعهم لمدح أصنامهم، وكتب الألباني كتاباً لنسف هذه الفرية، سماه"نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق". وقد علّق الباحث المدقق في السيرة النبوية الصحيحة أكرم ضياء العمري على القصة وروايتها بقوله: "وقد ذهبت روايات مرسلة صحيحة السند إلى مرسليها، وهم سعيد بن جبير وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو العالية إلى أن الشيطان ألقى على لسان الرسول ﷺ في قراءته في صلاته العبارة (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهم لترتجى) كما ذهبت روايات مرسلة أخرى ضعيفة الأسانيد إلى مرسليها إلى أن العبارة قالها الشيطان، وسمعها المشركون دون المسلمين، فسجد المشركون بسجود المسلمين. وما قالته المراسيل المعتبرة يصطدم مع عصمة النبوة في قضية الوحي، ويعارض التوحيد، وهو أصل العقيدة الإسلامية، لذلك فإنها مرفوضة متناً حتى لو ثبت تعدد مخارجها. ولم يأخذها الثلاثة التابعون عن شيخ واحد"[٢٨٧]. ورد العمري على المستشرقين بأنهم أصحاب أهواء وإن اعتمدوا على روايات صحيحة قبلها رواتها من المسلمين، ولم يشيروا إلى رفض جماهير الأمة المسلمة لهذه القصة التي فهمت رواياتها على غير معناها.

وساق العمري عبارة الألوسي المفسر لسجود المشركين مع الرسول ﷺ بأنه بسبب ما اعتراهم من خوف ودهشة وهم يستمعون إلى أخبار الأمم السالفة[٢٨٨].

---

(٢٨٧) العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص١٧١

(٢٨٨) انظر المرجع السابق ص١٧٢، والألوسي، روح المعاني١٧/ ١٧٨



المبحث الثالث عشر
خبر الصحيفة

المقاطعة العامة -مخطط تجويع جماعي

بعد أن فشلت كل الأساليب السلمية والمفاوضات والمساومات التي عرضتها قريش على الرسول ﷺ، ولم تفلح كل محاولات الاحتواء وكل محاولات التلويح بالضغط على عمه أبي طالب، السند الاجتماعي القوي له، عليه الصلاة والسلام. وبعد أن رأت قريش خطورة وجود ملجأ آمن للمسلمين في الحبشة، وأنها فقدت السيطرة، وأن ثمة مسلمين تجاوزوا حدود الجزيرة إلى الحبشة، وفشلت في استردادهم وتخوفت قريش من عواقب انتشار الإسلام خارج الحدود، ولا تدري ما تخبىء لها الأيام القادمة من مفاجآت في الداخل والخارج، وبعد أن أسلمت شخصيتان بارزتان، حمزة وعمر، فتصدع بسبب إسلامهما كيان المجتمع الجاهلي. بعد كل هذا فقدت زعامة قريش أعصابها، فعزمت على قتل رسول الله ﷺ، "فأجمع بنو المطلب أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ويحموه فيه، فدخلوا الشعب جميعاً مسلمهم وكافرهم"[289] فأسقط في يد قريش وأحكمت خطة من أبشع الخطط في التعامل الإنساني، مما سمي في كتب السيرة بالمقاطعة العامة، أو خبر الصحيفة[290]. ذلك أنه لا بد من تطوير الخطط في مواجهة محمد ﷺ.

ونفهم من هذا أن الإسلام يعد شخصاً مسلماً يضطهد، يعذب أو يفتن في دينه للرجوع عنه، أو رسولاً شخصاً يساوم أو يضغط على عمه للتخلي عنه، وإنما أصبح في نظر المشركين قوة جماعية، ومبادئ لها أصحاب يثبتون عليها رغم الاضطهاد، ورسول قائد لا يقبل المساومة والاحتواء ولا التنازل عن شيء ولا السكوت عن الدعوة، ولا التوقف عن الحركة، فلا بد في نظر زعامات الشرك إذن

---

(289) العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ١٨٢

(290) انظر ابن هشام السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص١٠١ .ابن القيم، زاد المعاد، ج٢ ص ١٠١.الغزالي فقه السيرة ص ١٢٣.وأبو زهرة ، خاتم النبيين ج١ ص٥٤٠

من مواجهة جماعية ينخرط فيها كل المجتمع، وجميع أهل مكة في حربهم لهذه الدعوة برسولها والمؤمنين معه، بل وللمتعاطفين مع رسوله من غير المؤمنين كبني هاشم وبني المطلب، وهم أهله وعشيرته ومن يقف منهم معه لحمايته وعلى رأسهم أبو طالب حتى ولو كان زعيم قريش، من أجل الضغط عليه وعليهم ليرفعوا الحماية عن النبي ﷺ بعد أن فشلت المفاوضات مع أبي طالب لرفعها، وتلك المواجهة هي هذه الصحيفة، صحيفة المقاطعة وهي كما يلي:

تروي كتب السيرة أن قريشاً اجتمعت في هلال المحرم من السنة السابعة للبعثة في خيف بني كنانة(٢٩١)، وتحالفت على المسلمين وبني هاشم وبني المطلب؛ أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم حتى يُسلِّموا لهم رسول الله ﷺ للقتل. وكتبوا في ذلك صحيفةً فيها عهود ومواثيق أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة وعلقوا هذه الصحيفة القاطعة الظالمة المنكرة في جوف الكعبة(٢٩٢).

التحليل:

وهنا لا بد أن نقف لنحلل هذا الحدث فننبه إلى ما يلي:

أولاً: إن الجاهليين هم الذين لا يصمدون للحجة، ولا يُعملون فكرهم في قبول ما يقبلون، أو رفض ما يرفضون؛ فالرسول ﷺ كان يخاطبهم بالقرآن، ويدعوهم إلى إعمال عقولهم بمنتهى الرويّة والحكمة، بينما كان منطقهم الجاهلي يقوم على الخداع

---

(٢٩١) حدد رسول الله ﷺ هذا المكان الذي تقاسمت فيه قريش على الكفر- يعني على مقاطعة بني هاشم، فذكر أنه خيف بني كنانة، أنظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ١٨١ ووثق الخبر من صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ٧/ ١٩٢، ٨/ ١٤. وقال النووي: والمحصب والأبطح والبطحاء وخيف بني كنانة اسم لشيء واحد، انظر النووي، شرح صحيح مسلم، ٩/ ٥٩

(٢٩٢) انظر ابن هشام السيرة النبويةج٢ ص ١٠١ وابن القيم ، زاد المعاد، ج٢ ص ٥١ وابن كثير ، البداية ج٣ ص٨٤ -٨٦

والمكر الذي ينتهي إلى فقدان الأعصاب، وإحكام الخطط الشريرة التي لا تليق بالإنسان في معاملته لأخيه الإنسان، ولو كان من ألد الخصوم إذ أن خطة كهذه من أبشع الخطط في تجويع جماعي للإنسان لإفقاده طعامه وشرابه وصحته، والضغط على أعصابه بالأطفال الذين يتضاغون من الجوع، ويموتون من سوء التغذية، بل بانعدام الغذاء، ولا يملك آباؤهم أن يشتروا لهم طعاماً، وما ذنب هؤلاء الأطفال؟!

فالجاهليون يفقدون أعصابهم، وعقولهم، ويفقدون شرف الخصومة، فيتفقون على الحصار، وليس مجرد حصار يمنع دخول أسلحة للمسلمين مثلاً، أو حصار اقتصادي يقتصر على تجميد أموالهم، ولكن حصار شامل؛ اقتصادي يمنع بيع الطعام والشراب واللباس وسائر السلع، واجتماعي بعدم المجالسة وبالهجران ليقطع أوصال العلاقات الإنسانية فيقطع الأرحام والأوصال والمصاهرة بعدم الزواج والتزويج لتصبح النساء من المسلمين عوانس بلا أزواج، والشباب بلا زواج في مجتمع تنتشر فيه الرذيلة والعلاقات الجنسية غير المشروعة، والتي هي في منتهى الفوضى كما وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها بأن العلاقة بين الرجال والنساء كانت علاقة واحدة منها صحيحة مشروعة وهي الزواج وثلاثة أنواع منه زنا بمختلف صوره من نكاح الرهط والرايات والاستبضاع، وحصار إنساني بقطع العلاقات الإنسانية التي لا بد أن تعمها الرحمة والتعاطف والشعور بالآخر مما يصنع الكراهية والحقد بين قطاعات الناس في بلد طاهر، وأرض مباركة من حول بيت الله عز وجل، والكعبة المشرفة، التي تأتي إليها أفواج العرب من أجل الحج والاعتمار والاستغفار والطهر.

ثانياً: في قمة تحديات الخصم يظهر سمو إيمان المؤمنين وقمة يقينهم بأن الأجل والرزق بيد الله وأن الأذى الذي يلقاه الداعية إنما هو ضريبة لتمحيص الإيمان تمحيصاً واقعياً كما قال سبحانه: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ (آل عمران١١١). فيثبت المؤمنون في هذا الامتحان لأن قيمهم الإيمانية تقوم على أن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنهم لا تلوى أيديهم، ولا تقطع أعناقهم بما يتوهم المشركون أن يضاروا المسلمين في أرزاقهم في المقاطعة؛ فالرزق محدود كما

الأجل محدود لا يزيدهما جبن ولا تنقصهما شجاعة.

ثالثاً: إن الخصم لا يكتفي باضطهاد المسلم وتعذيبه، وإنما يتجاوز أصحاب الحق إلى كل من يتعاطف معهم من الجماهير حتى ولو لم يكونوا على دينهم في محاولة للضغط على هذا الصف المتعاطف، وحتى لا يفكر بالالتحاق بصف المسلمين، ولتلقين الجماهير بهذا الضغط درساً مسبقاً محذّراً له خطورة مستقبله ومستقبل مصالحه وتجارته وأوضاعه الاجتماعية إن هم استمروا في ترك محمد يدعوا إلى هذا الدين الجديد.

رابعاً: إن ثبات أصحاب الحق على حقهم، واحتمالهم الأذى في سبيل الله، والتحكم في أعصابهم لصالح دعوتهم خير رد على الجاهلية الحمقاء، وهو زاد لهم على الطريق، بل وعلامة بارزة على صدق دعوتهم أمام الجماهير، وفرصة مربّية من خلال المواقف العملية الجادة على طريق تأهيلهم لاستنزال رحمة الله ونصره لهم ولدينه على أيديهم.

وهكذا اشتد الحصار ثلاثة أعوام[٢٩٣] في شعب بني هاشم، وقطع عنهم التموين؛ فقد كان الجاهليون يسامون عليهم في السوق، ويرفعون الأسعار للتجار فلا يستطيع المحاصرون أن يعودوا بشيء إلا ما كان يصلهم من قليل الطعام تهريباً من بعض الأرحام وذوي النفوس الإنسانية المتعاطفة، حتى سمع بكاء الأطفال، وعويل النساء من الجوع، وحتى وصل الحال بهم إلى أكل أوراق الشجر وما لا يستساغ أكله. روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنه خرج لحاجته وكان جائعاً فوجد نعلاً يقرقع تحت رجله، فأخذه وغسله وحرقه وسفه مع الماء وتقوت به ثلاثة أيام[٢٩٤].

---

[٢٩٣] قيل: كان ابتدأ حصرهم في المحرم سنة سبع من المبعث قال ابن إسحق: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، وجزم موسى بن عقبة بأنها كانت ثلاث سنين، انظر فتح الباري ٧/ ١٩٢، والعمري، السيرة النبوية الصحيحة ، ١/ ١٨٢

[٢٩٤] الغزالي، فقه السيرة ص ١٢٤

وهذا يعطينا درساً: أن المؤمن ما خلق ليملأ بطنه بأطايب الطعام على حساب دينه، وإنما خلق ليعيش إيمانه ويدعو لربه، ولا يهمه ما يملأ هذا البطن؛ لا في نوعه ولا في كمّه، **فالشعوب لا تقاد ببطونها وإنما تقود وتقاد بإيمانها وفكرها ومبادئها**. فالمؤمنون يقررون قاعدة صحيحة مضادة لمفاهيم الجاهلية. ففي منطق الجاهلية قاعدة **نحن نعيش لنأكل** أما منطق الإيمان فنحن **نأكل لنعيش**؛ فليس الطعام غاية في حد ذاته، وبالتالي فلا يهمنا بصفتنا مؤمنين نوع الطعام الذي نأكله ولا كثرة ألوانه وأنواعه، ولا نفاسة الثياب التي نلبسها ولا نعومتها، وهل هي فاخرة أم لا؟ إنما الطعام الذي يسد جوعتنا ونستعين به على عبادة الله، واللباس الذي يستر الجسم، فمفاهيم الجمال مختلفة في الإسلام عنها في منطق الكفار والمشركين، ومفاهيم الحياة مختلفة كذلك فلا قيمة لدى المسلمين لكل متاع الدنيا على حساب الحرية، فإن من فقد حريته لا يجدها في طعام الدنيا ولا متاعها ولا ذل شهوة الزعامة في هذه الأرض. ومن ثم ثبت المسلمون على المقاطعة كي لا يقبلوا رهن إرادتهم بلقمة العيش؛ فهم أصحاب إرادة وعزيمة، تؤمن بالله، وتبتغي مرضاته، وتضحي بكل شيء في سبيل الحرية وإقامة دين الله في الأرض، وكل متاع الدنيا عندها رخيص في سبيل غايتها العظمى.

ورغم كل هذه الضغوط فإن رسول الله ﷺ كان يربي المسلمين في الحصار على ضرورة الثبات، ويقودهم لدعوة الوافدين إلى مكة في مواسم الحج مؤكداً تربيته لأصحابه على ضرورة استمرار الدعوة مهما ضاقت الظروف وقلت الموارد.

خامساً: ولقد أعجبتني تلك الفكرة الأمنية الرائعة التي انتهجها أبو طالب في سبيل تأمين ابن أخيه، رسول الله ﷺ فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم – أي ناموا – يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه حتى يرى ذلك أي راصد يريد سوءاً فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله

ﷺ وأمره أن يأتي بعض فراشهم.[٢٩٥]. فيتبادلون الفراش حتى لا يصل الأذى لرسول الله ﷺ.

سادساً: الكفر عناد، والمشركون معاندون رغم ما يرون من الآيات، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ رأى ما لحق بالمؤمنين من الجوع وأثر الحصار دعا على قريش فحدثت فيهم مجاعة حتى أكلوا الميتة والجلود، **فالجزاء من جنس العمل**، فجاء أبو سفيان يسأل رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم ويناشده الرحم، فقرأ الآيةَ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ (الدخان١٠-١٥). فكان الرجل من المشركين يرى ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان. فدعا رسول الله ﷺ ربه فكشف عنهم العذاب، ومع ذلك فلم يؤثر ذلك فيهم، ولم يتعظوا ولم يرعووا بل زادوا عناداً، وعادوا إلى الكفر واشتدت مقاطعتهم[٢٩٦].

نقض الصحيفة:

وبعد ثلاث سنوات كاملة ، تعاهدت مجموعة من المشركين على نقض هذه الصحيفة، لأنك لا تعدم من في قلبه إنسانية أو شعور بالظلم فيما بينه وبين نفسه، وإن كان المجتمع الجاهلي وسطوة الظالمين، تحول دون أن يتحول هذا الشعور إلى جو جماعي. "جاء هشام بن عمرو وكان ممن يبعث الطعام بالليل سرا إلى من في الشعب، جاء إلى زهير بن أمية المخزومي، ابن عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وقال: زهير! أرضيت أن تأكل الطعام، وتشرب الشراب وأخوالك بحيث تعلم؟ أما إني أحلف بالله لو كان أخوال أبي الحكم-أبي جهل- ثم دعوته إلى مثل

---

(٢٩٥) انظر ابن كثير، البداية والنهاية ج٣ ص ٨٤. الماركفوري، الرحيق المختوم ص ١٢٦. أبو زهرة خاتم النبيين ج ١ ص٥٤١

(٢٩٦) انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ١٨٣ ووثق القضية من صحيح البخاري، بشرح فتح الباري، ٨/ ٥١١ ، ٥٤٧ ، ٥٧١-٥٧٤ ، ٢/ ٤٩٣ ، ٥١٠ .صحيح مسلم بشرح النووي، ١٧/ ١٤٠ - ١٤٢

ما دعاك إليه ما أجابك أبداً فقال زهير فماذا أصنع وأنا رجل واحد؟ فوالله لو كان معي رجل آخر لنقضتها. فقال: قد وجدت رجلاً. قال ومن هو. قال أنا. قال زهير:ابغنا ثالثاً، فذهب إلى المطعم بن عدي وقال له: أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك وموافق عليه؟ فقال: ما أصنع وأنا رجل واحد؟ فقال له هشام وقد وجدت ثانياً وهو أنا، وثالثاً هو زهير. فقال ابغنا رابعاً، فذهب إلى البختري بن هشام، فالتحق بهم، ثم إلى زمعة بن الأسود، فأصبحوا خمسة، واجتمعوا في البيت؛ وبعد الطواف أعلن زهير على الناس فقال يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم؟ فوالله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. فقال أبو جهل: كذبت والله لا تشق. فقال زمعة بن الأسود؛ أنت والله أكذب، ما رضينا بها حتى كتبت. ثم قال أبو البختري صدق والله زمعة لا نرضى ما كتب فيها. فقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. وقال هشام بن عمرو مثل قولهم، فجُنّ جنون الطاغية أبي جهل وقال: هذا أمر قضي بليل"[٢٩٧].

وكان أبو طالب جالساً في ناحية من المسجد، ذلك أن رسول الله ﷺ أخبره بوحي من الله عز وجل أن الصحيفة قد أكلتها الأرضة [٢٩٨]-دودة الأرض- وأنه لم يبق منها سوى افتتاحيتها (**بسمك اللهم**)، وما كان فيها من ذكر الله عز وجل، فأخبرهم أبو طالب بذلك، فلما شقوا عن الصحيفة وجدوا الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ.

ولكن أنى لهؤلاء الأشقياء أن يؤمنوا بالرغم مما رأوا بأم أعينهم من آية عظيمة ودلالة صادقة على أحقية هذا الدين وصدق رسوله عليه الصلاة والسلام، وقد

---

[٢٩٧] ابن هشام، السيرة النبوية(مع الروض)ج٢ ص١٢٣ بتصرف وانظر ابن كثير البداية والنهاية ج٣ ص ٩٦

[٢٩٨] ابن هشام ، السيرة النبوية ج٢ ص١٢٤ وابن كثير البداية ص٩٧

صدق فيهم قوله سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ (القمر٢-٥).

ما بعد نقض الصحيفة وفك الحصار:

خرج رسول الله ﷺ والمسلمون من الشعب منتصرين، رغم ما لحق بهم من لأواء المقاطعة العامة، لأن أول درجات النصر أن لا يحقق عدوك غايته وأهدافه من حربك. وقد خسرت قريش المعركة لأن أهدافها لم تتحقق، فلم يتراجع المسلمون عن دينهم بل زاد ثباتهم عليه، وصقلت المقاطعة إرادتهم وقوّت عزائمهم. كما لم تحقق المقاطعة – كما أرادت لها قريش- تخلّى أبي طالب وبني المطلب وبني هاشم عن حماية رسول الله ﷺ فلم يكشفوا ظهره، بل زادت حمايتهم له. كما انتزع ثبات المؤمنين على إيمانهم احترام بني هاشم وبني المطلب من غير المسلمين، ورفض هؤلاء فلسفة الابتزاز التي مارستها زعامات الشرك في مكة. فوقفوا مع المؤمنين في محنتهم وأزمتهم، ولم يتخلوا عن رجولتهم مع أنه أصابهم من آثار المقاطعة مثل ما أصاب المؤمنين المحاصرين معهم وفي شعبهم.

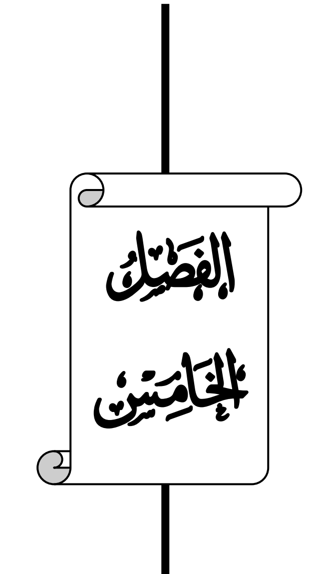
وأما أبو طالب فقد زادت حمايته لرسول الله ﷺ، وزاد حبه له، ولم يزل يحوط ابن أخيه برعايته وحمايته مع أنه قد تجاوز الثمانين من عمره، وقد أثر فيه كبر السن وآلام الحصار، وضغوط القوم، وقد قارب على نهاية عمره.

وأما قريش فقد رأت نفسها بعد فشلها، وقوّمت علاقاتها السلبية مع محمد ﷺ والمسلمين، وانتهت إلى يأس بعدما بذلت كل ما في وسعها، وبعد أن مارست جميع ضغوطها، ولكن المسلمين في ازدياد، والنبي تزداد صلابته ويزداد استعصاؤه على التطويع أو الاحتواء، "فحاولوا أن يفاوضوا النبي ﷺ في محاولة أخيرة مستغلين ضعف أبي طالب في صحته وكبر سنه ولعلهم يسترضونه ليتوسط لهم لدى ابن أخيه بعد كل الذي حصل، وهم مستعدون ليعطوه ما لم يرضوا إعطاءه من قبل.

ويروي ابن عباس خبر ذهابهم إلى أبي طالب لهذا الغرض، يقول ابـن إسـحق: "فحدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس قال: مشـوا إلى أبي طالب فكلموه وهم أشراف قومه عتبة بنت ربيعة وشيبة بن ربيعـة وأبـو جهـل وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشرافهم: فقالوا يا أبـا طالـب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخّوفنا عليك، وقد علمـت الـذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه، فخذ لنا منه ليكف عنا، ونكـفّ عنـه وليـدعنا وديننـا، فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومـك قـد اجتمعـوا لك ليعطوك وليأخذوا منك فقال رسول الله ﷺ: نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بهـا العـرب، وتـدين لكـم بهـا العجم.قـال فقـال أبـو جهـل: نعـم وأبيـك عشـر كلمات.قال: تقولون لا اله الله وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيـديهم ثـم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن أمرك لعجيب"[٢٩٩].

(٢٩٩) السيرة النبوية ، ابن هشام (مع الروض) ج٢ ص ١٦٦





المرحلة الجهرية الثانية من عام الحزن إلى هجرة الرسول ﷺ



المبحث الأول
دعوة الإسلام تتحرك خارج مكة

كان الإصرار على حمل دعوة الله عز وجل رغم كل الصعوبات عنوان حياة رسول الله ﷺ، ذلك أنه كان مؤمناً أن الله سينصر دعوته، ويعز أولياءه، وأن راية هذه الدعوة الخاتمة قد انعقدت وارتفعت ولن تفل ولن تسقط وأنه لا بد أن تقام الحجة على الخلق مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء١٦٥). وبالتالي: "فإن ما يلقاه الرسول ﷺ وصحبه من أذى واضطهاد إنما هما بسبب حمل هذه الرسالة، وهو في حد ذاتها تكليف، وفيهما الدليل على أنهم على الطريق الصحيح.

الرسول ﷺ يغزو تجمعات الحجيج بدعوته :

ولهذا كان ﷺ يغزو تجمعات الجاهليين، ولما رأى إعراضهم طمع في أن يدخل هذه الدعوة قبائل من العرب تأتي تحج البيت، فكان يختار موسم الحجيج ليعلن فيه دعوته، وكان ذلك في ذي القعدة من موسم حج السنة العاشرة للبعثة.

وكان من جملة هذه الأقوام التي بلّغها رسول الله ﷺ هذه الدعوة فيما يروي ابن إسحق: كندة، وبنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وبنو نضر، وبنو البكاء، والحارث بن كعب، والحضارمة، وسليم، وعبس.

فمنهم من لم يقبل ما عرض عليهم ومنهم من رده رداً قبيحاً، ومنهم من اشترط عليه مغانم وسيادة بعد النصر.

وعرض نفسه على بطن من بطون كلب يقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله، وقال لهم: يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم، فلم يقبلوا منه ما عرض

عليهم[300].

روى ابن إسحق عن ابن شهاب الزهري أن النبي ﷺ: "أتى كندة في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له مُليح، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه"[301].

وكذا عرض نفسه على قبيلة كلب فأبوا. كما عرض نفسه على بني حنيفة في منازلهم فلم يكن أحد من العرب أقبح منهم ردا منهم"[302].

كما أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم "يقال له بحيرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر بعدك؟ قال الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك. فأبوا عليه"[303].

ولما قصّوا القصة بعد عودتهم على شيخ كبير فيهم، أدرك ذلك الشيخ عن بعد صدق دعوة رسول الله ﷺ إذ لما قالوا له: "جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلاف. والذي نفس فلان بيده، ما تقوّلها إسماعيليّ قط، وإنها لحق فأين رأيكم كان عنكم؟"[304].

---

(300) انظر المباركفوري، الرحيق المختوم، ص١٤٧

(301) ابن هشام ،السيرة النبوية (مع الروض) ج٢ ص١٧٤

(302) المرجع السابق .

(303) المرجع السابق.

(304) المرجع السابق.

المبحث الثاني
إسلام الطفيل الدوسي

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن تتحقق عالمية هذه الدعوة رغم ضعف المسلمين، وذلك بأن يسهم أعداؤها بتوجيه أنظار الغير إليها بطريقة غير مباشرة، بل وبغبائهم وصلَفهم في حربهم لها ومهاجمتهم الإعلامية لها، وبالتالي يشاركون في نشرها موزورين غير مأجورين.

فها هو ذا رجل يمني بل شيخ قبيلة شاء الله سبحانه أن تسلم قبيلته على يده دفعه إلى الإسلام حقد الجاهليين على دعوة الإسلام، أما الرجل المسلم فهو الطفيل بن عمرو الدوسي، وأما القبيلة فهي قبيلة دوس.

ويروي الحادثة الطفيل نفسه فيقول: "إنه قدم مكة- ورسول الله ﷺ بها- فمشى إليه رجال من قريش- وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنّه ولا تسمعنّ منه شيئاً. قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً -أي القطن- فرْقا – أي خوفاً- من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن اسمعه. قال: فغدوت المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة. قال: فقمت منه قريبا فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله. قال: فسمعت كلاماً حسنا، فقلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قالوا لي كذا وكذا- للذي قالوا- فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع

قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمـرك قال: فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليّ القرآن. فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه. قال: فأسلمت، وشهدت شهادة الحق. وقلت يـا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل آية تكون لي عوناً عليهم. فيما أدعوهم إليه. فقال اللهم اجعل لـه آيـة، قـال فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر وقع نور بين عينيّ مثـل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي. إني أخشـى أن يظنـوا أنهـا مُثلـة وقعـت في وجهي لفراق دينهم. قال فتحول فوقـع في رأس سـوطي. قـال فجعـل الحاضـرون يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إلـيهم مـن الثنيـة. قـال: حتى جئتهم فأصبحت فيهم"[٣٠٥].

التحليل:

١- وهنا نجد كيف يسوق الله الأنصار لهذا الدين؛ فالرسول يقوم بالحركة والانتقال لعرض هذه الدعوة على الناس. والله يسوق الطفيل باحثاً عن الحق حينما كان صد الجاهليين عنه حافزاً للبحث عنه ليأتي هـو الـنبي ﷺ في بيتـه، ليسـمع منـه وليعرض عليه الرسول ﷺ دعوته.

٢- وهنا تجد هذا الداعية الذي ما إن انقدح في قلبه نور الحق حتـى شـعر أنـه مكلف بتوصيل هذه الدعوة وهذا الخير لقومه، فهو سيد بني دوس، ويريد لهـم الخير الذي أكرمه الله به. ولذا فإنه يطلب من النبي ﷺ أن يدعو لـه ليجعـل لـه آية صدق دالة على صدق هذه الدعوة تسهيلاً لدخول قومه فيها. ولقـد أكرمـه الله بهذه العلامة نوراً على رأس سوطه يراه الناس.

٣- ثم حينما وصل الطفيل قومه أخذ يتعامل معهم بجدية، فها هو ذا يرفض جميع العلاقات والولاءات الجاهلية السابقة، ويريد أن يقيم علاقـات إيمانيـة جديـدة

---

(٣٠٥) المرجع السابق ج٢ ص ١٣٠-١٣١

مع الناس ابتداء من أسرته وذويه، فهو يفاصل أباه وزوجته، يروي ذلك فيقول: "فلما نزلت أتاني أبي - وكان شيخاً كبيراً - قال: فقلت إليك يا أبت فلست منك ولست مني. قال: ولم يا بني؟ قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ. قال: أي بني فديني دينك. قال: فقلت فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ما عُلمت. قال: فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم. قال ثم أتتني صاحبتي، فقلت: إليك عني، فلست منك ولست مني قالت: لم بأبي أنت وأمي؟ قال: قد فرق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ﷺ قالت: فديني دينك. قال قلت: فاذهبي فتطهري فذهبت، فاغتسلت، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت"[٣٠٦].

وهنا نجد لفتة قوية دقيقة، حيث أن الطفيل صارحهم فوراً بإسلامه، وكأنه استغل فرصة شوقهم إليه ولعودته من سفر، فضرب على الحديد وهو ساخن. وهو يريد أن يكسب أهله وبيته أولاً.

٤- ثم انتقل بعد ذلك إلى قومه فأخذ يدعوهم إلى الله عز وجل إلا أنه رأى أن دخولهم في الإسلام بطيء وليس بسرعة دخول والده وأهل بيته، فعاد إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه حال قومه، يقول:" ثم دعوت دوساً إلى الإسلام، فأبطؤوا عليّ، ثم جئت لرسول الله ﷺ بمكة، فقلت له: يا نبي الله إنه قد غلبني على دوس الزنا، **فادع الله عليهم** فقال: **اللهم اهد دوساً**. ارجع إلى قومك **فادعهم وأرفق بهم**. قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم الى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ ومعي قومي، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس"[٣٠٧].

وهنا إشعاع هادئ ينطلق من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ **فهو يدعو**

---

[٣٠٦] المرجع السابق ص١٣١.

[٣٠٧] المرجع السابق ص١٣١-١٣٢.

الله أن يهدي دوساً لا أن يدعو عليهم كما طلب الطفيل بعد أن تعب معهم فأبطؤوا عليه. وهذا فيه درس **لكل داعية أن يدعو للناس لا أن يستعجل بهم العذاب.** ثم يأمر النبي ﷺ الطفيل بأن يرفق بالقوم، ولا يتعجلن بهم، ولا يغلظن لهم القول، فإن الدعوة استمالة لقلوب أراد الله لها الخير.

المبحث الثالث
عام الحزن

نقف الآن في أواخر السنة العاشرة من البعثة حيث يأتي عام عرف **بعام الحزن** في حياة رسول الله ﷺ؛ وذلك لما حصل فيه من موت شخصيتين قويتين في حياة رسول الله ﷺ؛ وهما أبو طالب عمه والحاني عليه، والمانع له والحامي له، وزوجه خديجة رضي الله عنها، سنده القلبي والأسري التي وقفت معه في أزماته؛ تخفف عنه ما يلقى من أعدائه فيما حققت له من هدوء بيتي وطمأنينة أسرية.

موت أبي طالب:

نعم يشاء الله تعالى أن ينتهي أجل أبي طالب في تلك السنة رغم محاولة النبي ﷺ أن يجعله ينطق بالإسلام، ولكنه مع هذا الإلحاح عليه بقي على دينه.

خرج إبراهيم العلي الأحاديث التالية الواردة في وفاة أبي طالب [٣٠٨]:

حديث المسيب رضي الله عنه قال: "لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة فقال رسول الله ﷺ "يا عم! قل لا إله إلا الله. كلمة أشهد لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! ترغب عن ملة عبد المطلب! فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم، هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة١١٣)، وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص٥٦) [٣٠٩].

---

(٣٠٨) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص٨٦-٨٧.

(٣٠٩) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب قصة أبي طالب حديث رقم،٣٨٨٤، فتح الباري،

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لعمه: قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة. قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص٥٦) [٣١٠].

وحديث علي بن أبي طالب: " أنه أتى النبي ﷺ فقال: إن أبا طالب مات فقال له ﷺ: اذهب فواره. فقال: إنه مات مشركاً فقال: اذهب فوراه، فلما واريته رجعت إلى النبي ﷺ فقال لي: اغتسل [٣١١].

وما تمر أيام ثلاثة حتى يفقد النبي ﷺ زوجته خديجة [٣١٢].

١٩٣/٧، مسلم بشرح النووي ٢١٣/١-٢١٦ كتاب الإيمان باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت حديث رقم ٢٤، النسائي،٤/ ٩٠-٩١ الجنائز باب النهي عن الاستغفار للمشركين، أحمد ،٥/ ٤٣٣ ابن جرير في التفسير ،١١/ ٤١

[٣١٠] أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت حديث رقم٢٥، الترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القصص حديث رقم ٣١٨٨ وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث، يزيد بن كيسان، أحمد ،٢/ ٤٤١، ابن خزيمة،٣٤٣-٣٤٤ البيهقي في شعب الإيمان ١٠٦/١ رقم ٩١.

[٣١١] أخرجه أحمد،١/ ٩٥، ١٠٣، ١٣٠، ١٣١ ، أبو داود رقم، ٣٢١٤ الجنائز باب الرجل يموت له قرابة مشرك، النسائي في الطهارة باب الغسل من مواراة المشرك، ١/ ١١٠ ، كتاب الجنائز باب مواراة المشرك، ٤/ ٧٩ – ٨٠ وقال الذهبي في السيرة النبوية، ١٥٠، وقال هذا حديث حسن متصل. وقال الساعاتي في الفتح الرباني،٢٠/ ٢٣٥، أخرجه أحمد والنسائي وأبو بكر بن أبي شيبة والبزار والبيهقي قال الحافظ رواته ثقات وقال الساعاتي، وإن تكلم فيه بعضهم فكلامه لا يؤثر فقد قال الشوكاني: ذكر الماوردي أن بعض أصحاب الحديث خرج هذا الحديث مائة وعشرين طريقاً. ولا يخفى أن كثرة الطرق تقوي الحديث الضعيف فما بالك بحديث رواته ثقات.

[٣١٢] البداية والنهاية ج٣ ص ١٢٧ نسبة إلى البيهقي ذكره عبد الله بن منده في كتابه المعرفة وأبو عبد الله الحافظ ويرجح المباركفوري هذا انظر الرحيق المختوم ص ١٣٢ وكذا أبو زهرة ، خاتم النبيين ج١ ص ٥٧١

وفاة خديجة رضي الله عنها:

وخرج إبراهيم العلي الأحاديث الآتية: في وفاتها وزواجه ﷺ من عائشة وسودة [٣١٣].

حديث هشام بن عروة عن أبيه قال: "توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين، فلبثت سنتين أو قريباً من ذلك، ونكح عائشة وهي بنت ست سنين ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين" [٣١٤].

وحديث عائشة رضي الله عنها قالت: "لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون: يا رسول الله ألا تزوج؟ قال: "نعم، فما عندك؟" قالت: بكر وثيب. البكر بنت أحب خلق الله إليك عائشة، والثيب سودة بنت زمعة. فدخلت على أبي بكر فقال: إنما هي ابنة أخيه، قال: "قولي له أنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي فجاءه فأنكحه" ثم دخلت على سودة فقالت لها: أخبري أبي، فذكرت له فزوجه" [٣١٥].

تعقيب:

وجدير بالذكر أن وفاء رسول الله ﷺ مع خديجة كان وفاء خاصاً حيث ظهرت فيها مروءته في أنه لم يتزوج عليها في حياتها قبل بعثته وبعد إسلامه، في مجتمع عربي كان تعدد الزوجات فيه أمراً عادياً لا إنكار فيه ولا ضوابط له مع كونها ليست بكراً، وهي تفوقه سناً خمسة عشر عاماً! فكيف بالرجل الشهم الذي تصنع الزوجة معه هذا المعروف من الحب والعناية، والإنفاق على بيته، وإغنائه عن العمل قبل

---

[٣١٣] إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص٨٨.

[٣١٤] أخرجه البخاري في مناقب الأنصار باب تزويج النبي عائشة وقدومها المدينة، وبنائه بها رقم٣٨٩٦ فتح الباري،٧/ ٢٢٣

[٣١٥] قال الحافظ في الفتح،٧/ ٢٢٥، رواه أحمد والطبراني،٢٣/ ٢٣، رقم ٥٧، بإسناد حسن ، وانظر السيرة النبوية ابن كثير ،٢/ ١٤٢-١٤٣- وقال الهيثمي في المجمع،٩/ ٢٢٥، رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث

الإسلام، وبعده ليتفرغ للدعوة، ولتنفق معه على مطالب الحياة والدعوة رغم الحصار، فكيف لشهامته تقبل أن يضرّها بزوجه وبمالها؟! نعم تزوج بعد موتها، فالرجل يصعب عليه أن يعيش بلا زوجة، وعدّد الزوجات بعدها حتى على عائشة رضي الله عنها، فلقد تزوج سودة ودخل بها، بعد أن عقد زواج عائشة ولم يدخل بها لصغر سنها، وتزوج بعد ذلك زوجات أخريات مع حبه لعائشة. وكما شرع الإسلام تعدد الزوجات.

وكما شرع الله له على وجه الخصوص أن يزيد على أربع زوجات لحِكَم مختلفة، من تشريعية وسياسية واجتماعية. فقد بقي لخديجة في نفسه احترام وتقدير خاص حتى بعد وفاتها؛ إذ كان يهدي الهدايا إلى صديقاتها، ويَهَشُّ لهن ويحترمهن إذا قدمن إلى بيته زائرات، مما جعل عائشة تغار من ذكر رسول الله ﷺ لخديجة، فتقول له: ما زلت تذكر امرأة جيفت، فلقد رزقك الله خيراً منها، فيغضب رسول الله ﷺ ويقول: "ما رزقني الله خيراً منها، فلقد آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمت ولد غيرها".

وثمة روايات تقدم وفاة خديجة على أبي طالب حيث يفهم من نص ذكره ابن كثير عن الواقدي: "أن خديجة رضي الله عنها وأبا طالب ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين، عام خرجوا من الشعب وأن خديجة رضي الله عنها توفيت قبل أبي طالب بخمس وثلاثين ليلة"[٣١٦] ويبدو أن سياق النص عند ابن إسحق يرجح هذا حيث يقول: "ثم إن خديجة رضي الله عنها وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهَلك خديجة رضي الله عنها، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، وبهلك عمه أبي طالب وكان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه، وذلك قبل مهاجره بثلاث سنين"[٣١٧].

---

(٣١٦) ابن كثير ، البداية ج٣ ص ١٢٧.

(٣١٧) السيرة النبوية ،(مع الروض) ج٢ ص ١٦٦.

وأرجح هذا الرأي مع أنه لا يترتب عليه كثير فائدة، حيث نجد تلك الحادثة التي كانت بعد موت أبي طالب ، ولم تظهر فيها خديجة رضي الله عنها، حيث قال ابن إسحق: "فحدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عروة بن الزبير قال : لما نثر ذلك السفيه – يعني عقبة بن أبي معيط- على رأس رسول الله ﷺ التراب دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها:"لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك"[٣١٨]. فلو **كانت خديجة حية لظهرت مواساتها له وغسيلها للتراب عن رأسه**. كما أن خديجة توفيت في رمضان ويذكر ابن سعد أن أبا طالب توفي في منتصف شوال وأن بينهما خمسة وثلاثين يوماً[٣١٩].

---

(٣١٨) المرجع السابق.وقد خرج الألباني هذا الحديث يقال ضعيف أخرجه ابن إسحق بسند صحيح عن عروة بن الزبير مرسلاً انظر هامش فقه السيرة للغزالي ص ١٢٩.

(٣١٩) الطبقات ج١ قسم ١ ص٧٩ مع أنه ادعى أنها ماتت بعده . ويروي ابن كثير فيما نسبه إلى البيهقي وذكره عبد الله بن مندة في كتاب المعرفة أنها توفيت بعده بثلاثة أيام كما في ابن كثير،البداية والنهاية، ج٣ص١٢٧ ورجح هذا المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم ص١٣٢ وأبو زهرة في كتابه خاتم النبيين ج١ ص٥٧١. في حين ذكر الواقدي فيما نقله عن ابن كثير أنها ماتت قبله بخمسة وثلاثين يوماً.انظر البداية ج٣ص١٢٧ وأنا أرجح أنها ماتت قبله بخمسة وثلاثين يوماً للأسباب التالية: أولاً: سياق ابن اسحق يفهم منه هذا حيث يقول: "ثم إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد. فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة..وبهلك عمه" فيقدم موت خديجة على موت أبي طالب كما ترى.أنظر ابن هشام، السيرة النبوية مع الروض ج٢ص١٦٦. ثانياً:وقع عند ابن سعد في الطبقات أن بين موتهما خمسة وثلاثين يوماً في حين رجح أنه مات قبلها، وأنه مات في النصف الأول من شوال وهذا الرأي لا يستوي للمشهورين أنها ماتت في رمضان وحينئذ يمكن أن تحدد المدة بهذه إذ ماتت هي في أوائل رمضان وهو في منتصف شوال، وتكون المدة فعلاً خمسة وثلاثين يوماً. وهذا يجعلنا نقول بتقدم موتها رضي الله عنها على موته. ثالثاً: يروي ابن اسحق فيقول: "فحدثني هشام بن عروة عن أبي الزبير قال لما نثر ذلك السفيه – يعني عقبة بن أبي معيط- على رأس رسول الله ﷺ التراب دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي.." ابن هشام السيرة النبوية ج٢ ص١٦٦ وهذا يرجح أن خديجة كانت ميتة وهذا حصل بعد موت أبي طالب حيث تجرأت قريش على ايذائه عليه الصلاة

وبهذا فإن الرسول ﷺ يفقد سندين ومانعين من البشر هما:

سنده القلبي، والعاطفي خديجة رضي الله عنها التي طالما وقفت معه وواسته وصبرت معه وأزاحت عنه هموم إعراض قومه.

وسنده الاجتماعي، عمه أبو طالب: الذي ساقه الله إليه لحمايته، وقد تحمل في سبيل ذلك ما تحمل من إحراجات قريش له، ومحاصرتهم له في الشعب مع بني هاشم وبني المطلب. وهو إلى آخر لحظة حتى في مرض موته لم يفرط بشيء من حمايته لمحمد ﷺ وحبه له.

وهكذا ينكشف ظهره من حماية هذا العم في ظل مجتمع مليء بالطغاة الذين طالما فكروا في إيذائه، ولكنهم لم يقدموا على ذلك خوفاً من أبي طالب، وبسبب حماية بني هاشم المرتبطة بزعامة أبي طالب. ويقف النبي ﷺ في لحظات عصيبة؛ فأصحابه بين مهاجر إلى الحبشة، وبين داخل في جوار، وبين مضطهد معذب، وها هو ذا يتوقع صدمات الطغاة. وفعلا اجترؤوا عليه فأحدهم يحثو التراب على رأسه، وذلك المجرم عقبة بن أبي معيط يضع الأذى على ظهره وهو ساجد، يروي البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض:" أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد فانبعث أشقى القوم(٣٢٠) فجاء به فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر إليه لا أغني عنه شيئاً، لو كانت لي منعة! قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض(٣٢١)- أي يتمايل بعضهم على بعض من الضحك والسخرية به-، ورسول الله ﷺ ساجد

والسلام. وكذلك جاءت فاطمة لترفع الأذى عنه وهو يصلي حيث وضعوا على ظهره سلا الجزور، ولو كانت خديجة حية لما جاءت فاطمة والله أعلم.

(٣٢٠) هو عقبة بن أبي معيط، كما صرح باسمه في صحيح البخاري بشرح الباري ج ٧ رقم ٣٨٥٤ ص١٦٥.

(٣٢١) أي يميل بعضهم على بعض.

لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره، فرفع رأسه ثم قال: "اللهم عليك بقريش- ثلاث مرات- فشق عليهم إذ دعا عليهم. قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمّى: اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعدَّ السابع فلم نحفظه قال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ في القليب، قليب بدر"(٣٢٢).

ونجد في هذا الحديث كيف كانت حالة المسلمين؛ فابن مسعود لم يجرؤ أن يزيل الأذى عن ظهر رسول الله ﷺ خوفاً منهم، بل لم يجرؤ رجل أن يتقدم لنصرة رسول الله ﷺ حتى جاءت فاطمة، ودعت على من صنع ذلك(٣٢٣).

كما أنه "لم يبق في هذه القلوب مكان لذرة من الخير، والبنت في المجتمع العربي تعيش في كنف أبيها، وتفخر بقوته، وتأنس بحمايته، فمما يحز في قلب الرجل أن يرى نفسه في وضع تدفع عنه ابنته، وتشعر بالعجز وقلة الناصر"(٣٢٤).

ولقد قدّر النبي ﷺ هذا الوضع، وتذكَّر أن حماية أبي طالب قد انتهت، وأن قريشاً تجرأت عليه وأن المرحلة المقبلة فيها من الأحداث ما فيها، حيث قال:"**ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب**"(٣٢٥).

وقد سمي ذلك العام **بحق عام الحزن**، بسبب حزن النبي ﷺ لوفاة زوجته خديجة رضي الله عنها وعمه أبي طالب.

---

(٣٢٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج١ رقم ٢٤٠ ص٣٤٩.

(٣٢٣) المرجع السابق ج٧ رقم ٣٨٥٤ص١٦٥.

(٣٢٤) الغزالي فقه السيرة ص١٣٠.

(٣٢٥) ابن هشام، السيرة النبوية ج٢ ص ١٦٦ .قال الألباني في تخريج هذا الحديث ضعيف أخرجه ابن إسحق بسند صحيح عن عروة ابن الزبير مرسلاً انظر هامش فقه السيرة للغزالي ص١٢٩.

المبحث الرابع
المؤمنون من غير أهل مكة (٣٢٦)

سويد بن صامت:

كان شاعراً لبيباً من سكان يثرب يسميه قومه الكامل لجَلَده وشعره وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجاً أو معتمراً، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال: لعل الذي معك مثل الذي معي. فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك. قال: حكمة لقمان. قال: اعرضها علي، فعرضها، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى علي، هو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام ، فأسلم، وقال: إن هذا لقول حسن. فلما قدم المدينة لم يلبث أن قتل يوم بعاث (٣٢٧). وكان إسلامه في أوائل سنة ١١ من النبوة (٣٢٨).

إياس بن معاذ:

كان غلاماً حدثاً من سكان يثرب، قدم في وفد من الأوس جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وذلك قبيل حرب بعاث في أوائل سنة ١١ من النبوة، إذ كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين القبيلتين، وكان الأوس أقل عدداً من الخزرج، فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم، وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له فقالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع رجل كان في الوفد حفنة من تراب البطحاء

---

(٣٢٦) انظر الرحيق المختوم ص١٤٨-١٤٩-١٥٢.

(٣٢٧) رحمة العالمين ١/ ٧٤ نقلاً عن المباركفوري، الرحيق المختوم ، ص١٤٨-١٤٩.

(٣٢٨) تاريخ إسلام للنجيب آبادي١/ ١٢٥نقلاً عن الرحيق المختوم ص١٤٩.

فرمى بها وجه إياس، وقال دعنا عنك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش. وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك، وكان يهلل ويكبر ويحمد، ويسبح عند موته، فلا يشكون أنه مات مسلماً [٣٢٩].

ضماد الأزدي:

كان من أزد شنوءة من اليمن، وكان يرقي من الريح، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، فلقيه، فقال : يا محمد، إني أرقي من الريح، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أما بعد. فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه [٣٣٠].

---

[٣٢٩] ابن هشام ١/ ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، وتاريخ إسلام للنجيب آبادي ١/ ١٢٦، وانظر الرحيق المختوم ص١٤٩.

[٣٣٠] رواه مسلم، مشكاة المصابيح، باب علامات النبوة ٢/ ٥٢٥.

المبحث الخامس

دعوته ﷺ لأهل الطائف

بعد عام الحزن ووفاة أبي طالب تجرأت قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتابع إيذاؤها له.

ولقد كانت حماية أبي طالب حماية شريفة صادقة لابن أخيه دون أن تمس تلك الحماية شيئاً من ثوابته عليه الصلاة والسلام.

وفي هذا درس لكل داعية أن يفيد من ظروف الحماية المتاحة له، ما لم تكن هذه الحماية قائمة على تنازل عن شيء من الدين.

ولقد حرص رسول الله ﷺ بعد أن انكشف ظهره وتجرأت عليه قريش على أن يبحث عن بديل لحمايته، ولم يستسلم لظروف الحزن. ومن ثم نظر حوله فوجد أن قريشاً قد أعلنت عداءها التام لهذا الدين، ولأهله ولرسوله، وأنه لا أمل في أن يعوض حماية أبي طالب بحماية أحد من قريش. ولهذا قرر أن يعرض نفسه على **ثقيف في الطائف**، يطلب منها الحماية والنصرة والمنعة من قومه من ناحية، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل فيسلموا فخرج إليهم وحده [٣٣١]. وقد أرخ الواقدي لهذا الخروج للطائف بأنه كان في شوال في السنة العاشرة من المبعث [٣٣٢].

وهذا موقف إصرار منه ﷺ، ذلك أن مكة وإن أغلقت فيها الأبواب دون هذه الدعوة إلا أنها دعوة الله لا بد أن تبحث عن قوم جدد، وعن أرض جديدة. والداعية ليس بيده أمر النصرة وإنما هو حسبه أن يقوم بواجب عرض دعوته، وليتسلح بالصبر، وضبط الأعصاب، وليفعل الله ما يشاء، فالداعية يبذل الأسباب، والنتائج على الله سبحانه وتعالى.

---

[٣٣١] ابن هشام ، السيرة ج٢ ص١٧٢.

[٣٣٢] العمري، السيرة النبوية الصحيحة،١/ ١٨٥ وخرج الخبر من طبقات ابن سعد١/ ٢٢١، والواقدي متروك الحديث.

انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، وعمد إلى نفر من سادة ثقيف، وهم أخوة ثلاثة: "عبد يا ليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه"[٣٣٣].

وهنا ماذا تتوقع من قوم عرب يأتيهم رجل يطلب نصرتهم؟ فلا أقل من أن يُقروه- يضيفوه- على عادة العرب في إكرام الضيف. ولكن السادة والكبراء لا يعودون يراعون أصول المجاملات، ولا قوانين العادات إذا ما شعروا أن الخطر محدق بزعاماتهم وسيادتهم، كيف لا، وهذه الدعوة التي يعرضها عليهم محمد ﷺ تريد أن ترد أمر السيادة والأمر لله وحده لا شريك له. ومن ثم انبرى له ثلاثتهم يسيئون استقباله، ويسفهون آراءه، ويستهزئون بشخصيته، فقال له أحدهم: "هو يمرط ثياب الكعبة- أي ينزعها ويرمي بها – إن كان الله أرسلك! وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك!وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك"[٣٣٤].

وما كان من رسول الله ﷺ وقد رأى موقفهم، إلا أن طلب منهم أن يكتموا خبره على الأقل، لئلا تسمع قريش بما جرى معه، فيثيرهم عليه، ويتشفون به. ولكن أولئك النفر الذين لا عهد لهم، ولا أمانة، لم يكتفوا بهذه الإساءة لأكرم ضيف نزل بهم، ولم يكتفوا برده وتركه، بل أغرَوا به سفهاءهم وصبيانهم، ومجانينهم، يسبونه ويصيحون به، ويرمونه بالحجارة حتى ألجؤوه إلى حائط لعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه[٣٣٥]. وقدماه الشريفتان تدميان وهو في حالة التعب والآلام الجسمية والنفسية ما لا يعلمها إلا الله.

---

(٣٣٣) المرجع السابق.
(٣٣٤) المرجع السابق.
(٣٣٥) المرجع السابق.

وهنا ترى صبر الداعية على أذى قومه وآلامه وجراحه لا تمنعه من أن يخاطب ربه سبحانه، ويدعوه، ويستمد منه العون، ويطلب منه القبول، ويرفع يديه إلى السماء: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك"[٣٣٦].

ويبدو أن عاطفة عتبة وشيبة ابني ربيعة، قد تحركت تجاه رسول الله ﷺ لما رأوا من حاله ، فأرسلا إليه قطفاً من العنب في طبق مع غلام نصراني لهما اسمه عدّاس. ولما رأى عداس يد رسول الله ﷺ تمتد إلى قطف العنب ليأكله وإذا به **يسمي الله عز وجل**، استغرب هذا الغلام ما سمعه من التسمية؛ ذلك أن أهل هذه المنطقة لا يبدأون أكلهم ببسم الله وقال: "والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: ومن أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ قال نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى. فقال له رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى؟ فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه"[٣٣٧].

---

(٣٣٦) المرجع السابق ص١٧٢-١٧٣.والحديث بتمامه أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ص ٢٦-٢٧ وهو في جزء من الطبراني من طريق ابن إسحاق وقد عنعنه، انظر الطبراني٢٥/ ٣٤٢٦. ومن حديث عبد الله ابن جعفر ولفظه كما في المتن ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، طبعة دار الفكر، ٦/ ٩٨٥١ وعزاه للطبراني وقال: وفيه ابن إسحق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات انظر التخريج في ابن القيم، زاد المعاد، تحقيق عرفان العشا،ط٢، دار الفكر،بيروت/ ١٩٩٨. ١/ ٥٤ - ٥٥

(٣٣٧) المرجع السابق.

ولما رأى عتبة وشيبة ذلـك عـزَّ عليهمـا أن يرجـع محمـد بأحـد يقتنـع بصـدق دعوته[٣٣٨]. حتى ولو كان غلاماً نصـرانياً، فنـدما علـى مـا فعـلا، وقـال أحـدهما لصاحبه:"أما غلامك فقد أفسده عليـك. فلمـا جاءهمـا عـدّاس قـالا لـه:"ويلك يـا عداس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سـيدي مـا في الأرض شيء خير من هذا. لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالا له: ويحك يا عداس! لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير مـن دينـه [٣٣٩]. وهنـا نجـد المقـاييس الجاهليـة المقلوبة، فهما يطلقان اسم الفساد على دعوة رسـول الله ﷺ وكأنهمـا همـا اللـذان على صلاح! بل أكثر من ذلك فإنهما يُصدران أحكامـاً وكأنهمـا عالمـان بالأديـان، ومقارنان بينها! وينصحان عداساً أن لا يغتر بالإسلام، وأن دينه خير من دين محمد ﷺ!.

حِلم رسول الله ﷺ:

وبعد ذلك الدعاء من رسول الله استجاب الله لرسـوله وهـو يعلـم ويسـمع ويرى ما يقع لرسوله من الإعراض والصدود والاستهزاء فيعرض عليـه أن يهلـك القوم الكافرين؛ روى البخاري بسنده عن رسـول الله ﷺ حينمـا بعـث إليـه ملـك الجبال لتنفيذ ما يريد فإن شاء أطبق الله عليهم جبلي مكـة، فعـن عـروة أن عائشـة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليـك مـن يوم أحد؟ قال لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يـوم العقبـة، إذ عَرضتُ نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت- وأنا مهموم- على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالـب [٣٤٠]- فرفعـت رأسـي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع

---

[٣٣٨] الغزالي،فقه السيرة ص ١٣٢.

[٣٣٩] ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)ج٢ ص ١٧٣

[٣٤٠] قرن الثعالب هو قرن المنازل، ميقات أهل نجد تلقاء مكة كما في ياقوت الحموي معجـم البلـدان، ٤/ ٣٣٢، انظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ١٨٦

قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلَّم عليّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً"[٣٤١].

وهنا نجد سعة قلب الداعية رسول الله ﷺ الذي لا ينتقم لنفسه رغم آلامه وجراحاته، ولكنه يحدوه الأمل، ولا يدعو على قومه بالهلاك، فهو إن كاد ييأس من عِلية القوم إلا أنه يؤمل أن يخرج الله من أصلابهم- ظهورهم- مؤمنين موحدين؛ إذ أن دعوة الله سبحانه خالدة، وليست ملك جيل من الأجيال آمن بها أو كفر. وفعلاً فقد وقع ما أمله رسول الله ﷺ، فأولاد ذلك الجيل من المشركين ومن قادتهم، قد آمنوا بالله ودخلوا الإسلام، وجاهدوا في سبيل الله. ألم يهلك أبو جهل كافراً مشركاً؟ وألم يسلم عكرمة بن أبي جهل ويقضي في سبيل الله شهيداً.

---

[٣٤١] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج٦ كتاب بدء الخلق رقم ٣٢٣٠ ص٣١٢-٣١٣ وطرفه في رقم٧٣٨٩. وأخرجه مسلم في الجهاد رقم ١٧٩٥ واللفظ هنا لمسلم. وورد لفظ آخر."لا بل استأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده، لا يشرك به شيئاً"

المبحث السادس
الإسراء والمعراج

ضيق وشدة:

اشتدت الظروف العصيبة من حول رسول الله ﷺ، وزادت الاضطهادات له ولجماعته المؤمنة، والمسلمون بين مضطهد ومهاجر إلى الحبشة، وبين من لا يستطيع الحركة، إلا في جوار أحد من كبار شخصيات مكة، حتى أنه عليه الصلاة والسلام لم يستطع أن يدخل مكة بعد رجوعه من الطائف وأقام بنخلة أياماً، فقال له زيد بن حارثة: "كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟- يعني قريشاً-. فقال "يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصرٌ دينه ومظهر نبيَّه"[٣٤٢].

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى الأخنس بن شريق ليجيره. فقال: "أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو. فقال: إن بني عامر لا تجير على بني كعب فبعث إلى المُطعم بن عدي فأجابه إلى ذلك، فقام المطعم بن عدي، وتسلح هو وأهله، ونادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمداً فلا يُهجْه أحد منكم. فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن، فاستلمه، وصلى رَكعتين، وانصرَف إلى بيته ومطعم بن عدي وولده مُحدقون به بالسلاح حتى دخل بيته"[٣٤٣].

وقد شعر رسول الله ﷺ بهموم نفسه وجماعته ودعوته شعوراً عجيباً فلم يعد يجد من يسليه ويواسيه؛ فقد ماتت خديجة رضي الله عنها، ولا يجد من يسنده ويؤمّنه؛ فقد مات عمه أبو طالب. وإذا بالحقّ تبارك وتعالى يعوضه عمن فقد، ويسليه، ويمسح عنه آلام المعاناة من صدود قومه وأذاهم له، فينقله **في رحلة جميلة** – هي معجزة– من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وإلى السماوات العلا، ويريه من المَشاهد ما يُقر به فؤاده، ويؤنس به قلبه، وترتاح له روحه. تلك الرحلة المسماة برحلة الإسراء والمعراج. والتي سجلها الله سبحانه في سورتين من سور القرآن الكريم؛ سورة الإسراء وسورة النجم .

---

[٣٤٢] ابن القيم ، زاد المعاد ج٢ ص ٥٢

[٣٤٣] المرجع السابق، وابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض)ج٢ ص ١٢٥

فقد ثبت أن الله سبحانه هيأ له البراق [٣٤٤]، ليركب عليه في رحلته، وصحبه جبريل عليه السلام ، فنزل بيت المقدس، وعُرج به تلك الليلة إلى السماوات ، ورأى هناك - وهو يعلو في السماوات - الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، حيث يوجد في كل سماء رسول. وأخذ جبريل يُعرّفه إليهم ويعرفهم به." فرأى آدم عليه السلام أبا البشر، فسلم عليه فرحب به ورد عليه السلام وأقر بنبوته وأراه أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره، ثم عرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم فلقيهما، وسلم عليهما فردّا عليه ورحبا به، وأقرا بنبوته. ثم عرج إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف عليه السلام، فسلم عليه فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته. ثم عرج إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس فسلم عليه ورد عليه ورحب به، وأقر بنبوته. ثم عرج إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه ورحب به، وأقر بنبوته. ثم عرج إلى السماء السادسة فلقي فيها موسى عليه السلام، فسلم عليه ورحب به، وأقر بنبوته. فلما جاوزه بكى موسى فقيل له ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلاماً بُعث من بعدي؛ يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي. ثم عرج إلى السماء السابعة فلقي فيها إبراهيم عليه السلام، فسلم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته. ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جل وعلا، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى" [٣٤٥].

---

(٣٤٤) البراق:دابة وصفها الرسول ﷺ بأنها فوق الحمار ودون البغل.انظر ابن حجر، فتح الباري ج٧ ص ١٩٩

(٣٤٥) ابن القيم ، زاد المعاد ج٢ ص ٥٣ كما وردت تفاصيل هذه الرواية صحيحة كما في صحيح البخاري ، بشرح فتح الباري ج٧ كتاب مناقب الأنصار رقم ٣٨٨٧ ص ٢٠١ -٢٠٢ .وستأتي الرواية كاملة بعد قليل.

الإسراء والمعراج معجزة حسية:

وتأتي هذه المعجزة في منتصف فترة الدعوة تقريباً، بعد السنة العاشرة للبعثة وقبيل الهجرة بستة عشر شهراً[٣٤٦]. والهجرة كانت في السنة الثالثة عشرة للبعثة.

وهي معجزة من حيث كونها خارقة للعادة، ولما ألفه الناس من قوانين الانتقال؛ إذ أن الرسول ﷺ قطع الرحلة ذهاباً وإياباً مع كثرة ما رأى وشاهد فيها من مشاهد ومناظر يحتاج بعضها إلى سنوات، كل ذلك في فترة زمنية قُدّرت بأنها قبل أن يبرد الفراش، مع أن قطع المسافة فقط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى كان يحتاج إلى شهرين على الأقل بوسائط النقل المعروفة آنذاك.

وللمعجزات أهداف إذ هي أدلة على صدق النبوة، ذلك أن الله سبحانه لا يخرق قوانين الكون والأشياء إلا لأمر مهم. والنبوة أمر مهم جداً في حياة البشرية.

طبيعة الرسالة تنعكس على نوع المعجزة:

إذا استقرأنا معجزات الأنبياء والرسل السابقين لمحمد ﷺوجدنا أن المعجزات التي جعلها الله لهم كانت جميعها حسية أو مادية، وهي أدلة تصديق نبواتهم، في حين أن المعجزات في حياته ﷺ نوعان: معجزة قرآنية عقلية ومعجزات حسية. والمعجزة القرآنية هي المعجزة الرئيسية التي اقترنت بها النبوة، وقارنت الدعوة من أول لحظة، في حين تأخرت المعجزات الحسية بعد ذلك، وكانت لها أهداف التسلية والتطمين للرسول ﷺ، ودلائل ثانوية على نبوته، ولم يكن يعتمدها عليه الصلاة والسلام معجزة رئيسة أساسية يرتبط بها التصديق أو يتحدى بها القوم. وما **ذلك إلا لأن طبيعة الرسالة تنعكس على طبيعة المعجزة** فالرسالات السابقة للإسلام كلها كانت رسالات خاصة لأقوام مخصوصين، ومحدودة في زمان، ولم يكتب الله سبحانه لها العموم والخلود، ولذلك كانت معجزات تلك الرسالات حسية أو مادية تجري على أيدي الأنبياء والرسل عليهم السلام في زمانهم فقط، وحياتهم شرط

---

[٣٤٦] وردت مجموعة روايات أقواها هذا الرأي وقيل قبل الهجرة بسنة وشهرين أو قبلها بسنة كما وردت روايات ضعيفة أنها كانت سنة مبعثه أو بعد البعثة بخمس سنوات أو في السنة العاشرة.انظر زاد المعاد ج٢ ص٥٥ والرحيق المختوم ص ١٥٥

لإجرائها، في حين أن رسالة الإسلام عامة للبشرية تتجاوز من يعيش مع الرسول ﷺ إلى كل إنسان على وجه الأرض في زمان نزول الدعوة، وخالدة تتجاوز زمان نزول الدعوة إلى كل إنسان إلى قيام الساعة. ورسالة هذه طبيعتها بحاجة إلى دليل تصديق لرسولها بحيث يناسب هذا الدليل طبيعتها هذه، وبحيث تتحدى بهذا الدليل هذا الإنسان على وجه الأرض إلى قيام الساعة. وبالتالي فلا بد أن تكون هذه المعجزة **صالحة في طبيعتها لهذا الانتقال المكاني والزماني ولا ترتبط بحياة الرسول لإجرائها،** إذ حياة الرسول محدودة بصفته بشراً، وينتهي أمره إلى الموت. ولهذا كانت معجزة هذه الرسالة **القرآن**، وتكفل الله سبحانه بحفظ هذا القرآن إلى قيام الساعة كي يكون دليلاً خالداً على صدق نبوة رسول الله محمد ﷺ، ومقيماً الحجة على ذلك ومتحدياً للبشرية في كل زمان ومكان.

تطمين وتسلية:

ولقد بين القرآن الكريم الهدف من المعجزات الحسية عامة ومعجزة الإسراء والمعراج منها خاصة، وهو يسجل هذه المعجزة في سورة الإسراء إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١) **فالإراءة هي المقصودة** من قوله تعالى: (لنريه من آياتنا)، وكما قال سبحانه أيضاً في سورة النجم: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ (النجم ١١-١٨).

الإسراء ليس استجابة لطلب الكفار:

أصبح رسول الله ﷺ يُحدِّث عن هذه الرحلة، فما كان من المشركين حين سمعوا بالإسراء إلا أن كذّبوها، فهم لا ينقصهم دليل، ومع ذلك طلبوا منه أن يصف لهم بيت المقدس تحدياً رغم أنه لم يكن قد رآه قبل ذلك. فوصفه لهم بدقة، ومع ذلك فلم يصدقوا، فقد ثبت عنه ﷺ قوله: "لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه"[٣٤٧]. بل لقد أخبرهم بقافلتهم التجارية التي رآها في طريقه وهو عائد من بيت المقدس إلى مكة، وأن فيها جملاً أورق وأنها ستقدم يوم كذا، وتَحقّق كل ما قاله عليه الصلاة والسلام.

الحادثة كما يسجلها لنا رسول الله ﷺ:

سجل لنا رسول الله ﷺ رحلته، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري بسنده[٣٤٨] عن أنس بن مالك بن صعصعة رضي الله عنه: أن نبي الله ﷺ حدثه عن ليلة أسري به قال: بينما أنا في الحطيم- وربما قال في الحجر- مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ، فَقد قال سمعته يقول فشق ما بين هذه إلى هذه. فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته-، وسمعته يقول من قَصِّه إلى شعرته، فاستخرج قلبي ثم أتيت بطَست من ذهب مملوءة إيماناً فغُسل قلبي ثم حُشي، ثم أُعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم- يضع خطوة عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد . قيل وقد أرسل إليه؟ قال نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح. فلما خلصت فإذا فيها آدم. فقال: هذا أبوك آدم فسلم

---

[٣٤٧] صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص ٢١٧. صحيح البخاري، بشرح فتح الباري ج٧ رقم ٣٨٨٦ ص ١٩٦

[٣٤٨] المرجع السابق رقم ٣٨٨٧ ص ٢٠١-٢٠٢ صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص ٢٠٦-٢٣٣

عليه فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى - وهما ابنا خالة-. قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال نعم. قيل نعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا بيوسف. قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال نعم: قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح. فلما خلصت فإذا بإدريس فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال، مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا هارون قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: من معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قال مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلم عليه. فسلمت عليه، فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح فلما تجاوزت بكى. قيل: ما يبكيك؟ قال أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي. ثم صعد بي إلى السماء السابعة. فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك. قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال نعم. قال مرحباً به ونعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن

الصالح والنبي الصالح. ثم رفعت إلى سدرة المنتهى وإذا **أربعة أنهار**: **نهران باطنان ونهران ظاهران**. فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران **فالنيل والفرات**. ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل. فأخذت اللبن. فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك. ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم. فرجعت فمررت على موسى فقال: بما أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت، إلى موسى فقال مثله، فرجعت، فأُمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت، فأُمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال بما أمرت؟ قلت: أمرت **بخمس صلوات كل يوم**. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأُسلم، قال: فلما جاوزت نادى مناد: **أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي**.

تحليل الرواية:

١- شق الصدر مرة أخرى:

نلاحظ من هذه الرواية تكرر حادثة شق الصدر للرسول ﷺ. وهي وإن كانت لا تخضع لمنطق التجريب، ولكنها تخضع لمنطق إيمان المؤمن بقدرة الله سبحانه وتعالى، وإذا ما رويت القصة السابقة في صغره فإن هذه الحادثة رواها رسول الله ﷺ وهو على وعي بها، وبما يجري له، وهو في سن الخمسين.

وهي- والله أعلم- ذات علاقة بإعداده للانتقال عبر الأمكنة، واجتياز حواجز الزمان والمكان في رحلة الإسراء والمعراج، وليتأهب للمناجاة ورؤية مشاهد الإسراء والمعراج. وهذا ليس تعليلاً؟

٢- موكب تكريم:

كما نأخذ منها كذلك هذا الموقف المُوحّد لموكب التكريم من جميع الأنبياء والمرسلين لمحمد ﷺ؛ إذ كلّ رحّب به، ومدحه بأنه الأخ الصالح، والنبي الصالح، وكل قد سأل: وقد أرسل إليه؟ مما يؤكد اعترافهم جميعاً عليهم الصلاة والسلام برسالته الخالدة الخاتمة، ومعرفتهم السابقة بأنه سَيُبعث بل وتبشيرهم بمبعثه. وأكثر من ذلك معرفة موسى عليه السلام أنه سيدخل من أمة محمد ﷺ الجنة أكثر ممن يدخلون من أمته.

٣- تحول في قيادة البشرية:

كما نلاحظ أن عدداً كبيراً من الأنبياء ممن التقى بهم رسول الله ﷺ كانوا من أنبياء بني إسرائيل. ومع أن الكثرة من الرسل والأنبياء كانت في بني إسرائيل، إلا أن بني إسرائيل لم يقوموا بأداء الأمانة، وكانوا أعداء الحق، وقتلة الأنبياء، ولذا فإن الله تعالى قد أفقدهم هذه الكرامة، فنزع منهم القيادة، وحوّل القيادة الدينية كاملة منهم إلى قيادة عالمية[٣٤٩]، وعلى أساس عالمي جديد إلى محمد ﷺ، الذي يرجع نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

---

(٣٤٩) انظر الغزالي، فقه السيرة ص ١٣٧.

هذا المعنى تشع به تحية إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمحمد ﷺ حينما رآه فنسبه إليه فقال: "مرحباً بالابن الصالح، والنبي الصالح". وهو أيضاً ملاحظ من موقف موسى عليه السلام حينما بكى، وعلل بكاءه بأن غلاماً بعث بعده- يقصد محمداً ﷺ- ويدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمته.

٤-إمام الرسل:

كما نلاحظ كذلك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد أسلموا قيادتهم وإمامتهم لمحمد ﷺ؛ إذ كل واحد منهم امتدح مجيئه ودعوته قبل امتداح شخصه: نعم المجيء جاء.

كما ثبت في روايات أخرى أن رسول الله ﷺ صلى بالأنبياء جميعاً جماعة وكان إمامهم في تلك الصلاة، ففي الحديث الصحيح قال ﷺ: "فحانت الصلاة فأممتهم" [٣٥٠].

٥-حكمة الإسراء إلى بيت المقدس:

لقد كانت هذه المعجزة تسلية وتطميناً لرسول الله ﷺ مع أن في قدرة الله سبحانه وتعالى أن يعرج برسوله مباشرة من المسجد الحرام إلى السماوات العلا. ولكن حكمته سبحانه اقتضت أن يمر في رحلته بمحطة أرضية هي بيت المقدس والمسجد الأقصى، وما ذلك – والله أعلم- إلا ليبشر الرسول ﷺ، ويبشر المؤمنين وهم في هذه الرحلة من الاضطهاد والمعاناة أن الله سيفتح عليهم فتحين، وسيرضيهم إرضاءين:

أولهما: انتصار بعالمية دعوة الإسلام ودخولها إلى أهم منطقة صراع بين الحق والباطل على مر التاريخ، وهي منطقة بيت المقدس وما حولها.

وثانيهما: إكرامهم بالجنة وسدرة المُنتهى التي رفعت لرسول الله ﷺ.

وقد كان المسجد الأقصى يرزح وقتها تحت نير الدولة الرومانية، وكان منطقة

---

[٣٥٠] كما ورد بعدة روايات مع اختلاف يسير.انظر ابن حجر فتح الباري ج٧ ص٢٠٨-٢٠٩ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص ٢٣٨

تتجمع فيها القاذورات – للأسف - عند قوم لا يحترمون أماكن العبادة، ولا ينزهون مساجد الله عن الأذى؛ إذ أن من يلوّث عقيدة التوحيد بالشرك لا يمكن أن يحترم الأرض المقدسة.

والغريب في الأمر أن القدس خاصة وفلسطين عامة لم يكن فيهما يهود أو سلطة ليهود في تلك الفترة. ومع ذلك حينما سجل الله سبحانه وتعالى رحلة الإسراء والمعراج في سورة الإسراء ذكر قصة بني إسرائيل مع المسجد الأقصى وما حوله، وكيف أن الله سبحانه كتب عليهم أن يفسدوا في الأرض مرتين، وأن يعلوا علواً كبيراً، وأن الله سبحانه كتب عليهم العقوبة على هذا الإفساد بأنه بعث عليهم من يجوس خلال الديار، ويمزقهم. وأنه سيبعث عليهم إذا جاء وعد الآخرة عباده، ليسوؤوا وجوه بني إسرائيل المتغطرسة، ويدمروا ما بنوا من الأبنية العالية والحصون والمستعمرات التي أقاموها على ما اغتصبوا من أرض فلسطين.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (سورة الإسراء٤-٩).

الأمة والأقصى وبنو إسرائيل:

وإن هوية من توعدهم بهم في وعد الآخرة تظهر من خلال قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (سورة الإسراء ٧). وهذا يعني أن قضية المسجد الأقصى هي محور الصراع بين

هؤلاء المسلمين وبين اليهود. إذن فالأمة المسلمة معنية بالإسراء معجزة، وهم مبشرون بنصر الله في سورة الإسراء ولهذا فإنه وفي آخر سورة الإسراء أعاد القرآن وعيده وتهديده لبني إسرائيل، حيث سيجمعهم من الأرض ولم يجعل لهم في الأرض استقراراً، سواء كانت الأرض من العالم كله، أو الأرض المباركة، وذلك ليلقوا مصيرهم فيما توعدهم في ما يسمونه حسب معتقداتهم في الأرض التي يجمعهم فيها، أرض الميعاد، فهي أرض ميعاد أو توعد وتهديد وليست أرض وعد وتبشير، وهو واضح من صيغة (ميعاد) وليس (وعد) وإنه قال لهم (اسكنوا الأرض) ولم يقل لهم (اسكنوا في الأرض)، لأن حرف الجر يفيد التمكين والاستقرار، والله عز وجل فيما توعدهم ألا يجعل لهم استقراراً في الأرض، بل يسكنون الأرض ليرحلوا عنها، ولا يتمكنوا فيها لوعيد أعدّه الله لهم، وهذا ما يعتقده بعض حاخاماتهم ومتدينيهم، وما لا يعير له الانتباه سياسيوهم. وكل هذا من إعجاز القرآن في آخر السورة إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (الإسراء١٠٤-١١١).

وهذا هو السر في هذا الذكر لقضية بني إسرائيل والأقصى في مثل هـذا الوقـت الذي لم يكن فيه يهودي واحد في فلسطين، وهذا فيه إشعارٌ للرسول ﷺ ولأمته مـن بعده ممن سيحملون هـذا القـرآن ويقرؤونـه، أن يعـدوا أنفسـهم ليكونـوا الطـرف الحاسم في قضية الصراع في فلسطين مع اليهودية العالمية، وأن المسجد الأقصى وما حوله مرتبط بعقيدتهم، وبمعجزة رسولهم الكبرى وهو القـرآن، وبمعجـزة الإسـراء والمعراج وأنـه مـرتبط كـذلك بقرينـة المسـجد الحـرام؛ إذ أن المحطـة الأولى لمرحلـة الإسراء والمعراج كانت المسجد الحرام، والمحطة الثانية المسجد الأقصى. وأن الحفـاظ على المسجد الأقصى حفاظ على المسجد الحرام، وأن التفريط فيه تفـريط بالمسـجد الحرام، وأن التفريط فيهما تفريط بنهاية الرحلة وهي الجنة، وأن من طرق الجنـة أن يجاهد المسلمون لاسترداد المسجد الأقصى.

ولقد ذكرت الآية الكريمة المسجد الأقصى متجاوزاً إيـاه إلى مـا حولـه، إذ قـال سبحانه (الذي باركنا حوله) ولم يقـل باركنـا فيـه أو باركنـاه، وذلـك أن مـا حـول الأقصى من ديار هي مباركة، وأن لها حكم المسجد الأقصى في قضية الصراع، وأن الاعتـداء عليهـا اعتـداء علـى الأقصـى، وأن قضـاياها وحياتهـا، وعزّهـا مـرتبط بالأقصى.

٧-النيل والفرات في رحلة المعراج:

ذكرت رواية المعراج أن رسول الله ﷺ رأى [٣٥١] بعد أن رُفعت له سدرة المنتهـى أربعة أنهار، نهرين باطنيين في الجنة، ونهرين آخرين ظاهرين في الحيـاة الـدنيا همـا النيل والفرات.

وفي هذا إشارة واضحة إلى هـذين الطـرفين مـن حـول الأقصـى ومـا حولـه، وأنهما مرتبطان بضرورة أن يصل إليهما الإسلام، وأن يتحملا واجب الـدفاع عـن الأقصى ، مع ما حول المسجد الأقصى.

---

[٣٥١] صحيح مسلم بشرح النووي ج٢ ص ٢٢٤

كما أن في ذلك إشارة واضحة إلى جميع المنطقة العربية المركزية للعالم الإسلامي، من حول بؤرة الصراع وقلب التحدي للمسلمين وهو المسجد الأقصى.

وعلى هذا فإن رحلة الإسراء والمعراج جمعت المناطق التالية: الجزيرة العربية ومركزها (المسجد الحرام)، وفلسطين والأردن وسوريا (المسجد الأقصى الذي باركنا حوله)، ومصر والسودان (النيل)، والعراق وتركيا والخليج (الفرات)، وكل المناطق التي ينبع منها ويسير فيها ويصب فيها هذان النهران. كما أن فيه إشارة إلى ضرورة عودة هذه المناطق التي كانت لحظة الإسراء والمعراج مشتتة الولاء مشتتة التبعية لحكم الدولتين الكافرتين الروم وفارس، إلى الإسلام والوحدة عليه والارتباط بالمسجد الأقصى وقضية الصراع في فلسطين الأرض المباركة.

وقد ورد ذكر نهرين آخرين، فقد روى أبو هريرة: "أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات، وسيحان وجيحان" [٣٥٢]. وفي هذا إشارة إلى انتشار الإسلام في العالم وتحقق عالميته. كما أن لتلك البلدان الإسلامية ولشعوبها من الأمة المسلمة علاقة بالأقصى وفلسطين.

٨- الأمة المسلمة أمة الفطرة:

حين قُدِّم للنبي ﷺ في رحلته آنية من اللبن والخمر والعسل حيث ثبت في الحديث الصحيح قوله ﷺ: "...ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن. فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك" [٣٥٣]. اختار الرسول ﷺ إناء اللبن ليطفىء ظمأه كما قال له جبريل، وهو بهذا اختار الفطرة لما للّبن من الميزات عن غيره من الأشربة، ولما فيه من توجيه لصفاء هذه الأمة وبياض صفحتها.

---

[٣٥٢] ابن حجر : فتح الباري ج٧ ص ٢١٣

[٣٥٣] وهو قطعة من الحديث الصحيح السابق، حديث أنس بن مالك بن صعصعة في الإسراء.

٩-**فرض الصلوات الخمس:**

وقد اختار الله سبحانه هذه الليلة، وهذه الرحلة ليفرض فيها الصلاة المفروضة على رسول الله ﷺ وعلى أمته، وفي هذا توجيه نحو أهمية هذه الفريضة.

وهذه الليلة كل ما فيها مُميّز لرسول الله ﷺ على سائر الأنبياء والرسل، ومميز لأمته على سائر الأمم. والصلاة المفروضة فيها- شكلاً ومضموناً- مميزة لأمته عن سائر الأمم.

وإذا كانت رحلة المعراج عروجاً للرسول ﷺ إلى السماوات العلا ليريه الله سبحانه ما أراه مُطَمئِناً قلبه، ومواسياً نفسه، ومثبتاً له على الطريق، ومُشعراً له بلذة الصلة به، فإن الرسول ﷺ لا تقتصر الحوادث في حياته على شخصيته، وإنما تتجاوزه إلى أمته، فالصلاة من ثم معراج روحي للأمة، تعرج فيها لربها سبحانه، وتتذوق فيها لذة الصلة بالله ومناجاته سبحانه.

١٠- منهج اليسر للأمة المسلمة:

كما أن طلب رسولنا الكريم التخفيف في عدد الفرائض في اليوم واستجابة ربنا سبحانه وتعالى للتخفيف في الصلاة هو عنوان منهج اليسر، وعدم المشقة في التشريع لهذه الأمة، إذ عنوانه قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ (الحج٧٨) وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (البقرة١٨٥). وهكذا ورد في حديث الإسراء والمعراج: "أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي".. وهي صلوات خمس بأجر خمسين صلاة، فيما غنيمة من غنم، ويا ندامة ويا خسارة من فرط فخسر وغرم!

١١- مشاهد ليلة الإسراء والمعراج:

لقد أرى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ مجموعة من المرائي والمشاهد، ذات ارتباط بدعوة الإسلام، وبمهمة رسوله وأمته في الأرض.

من هذه المشاهد كما ذكرها ابن إسحق:

قال أبو سعيد الخدري في حديثه: "إن رسول الله ﷺ قال: لما دخلت السماء الدنيا، رأيت بها رجلاً جالساً تعرض عليه أرواح بني آدم، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيراً، ويُسر به، ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب، ويقول لبعضها إذا عرضت عليه: أف، ويعبس بوجهه، ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث. قال: قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم، تعرض عليه ذريته. فإذا مرت به روح المؤمن منهم سُرَّ بها وقال: روح طيبة خرجت من جسد طيب، وإذا مرت به روح الكافر منهم أَفّف منها وكرهها وساءه ذلك. وقال: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث.

قال: ثم رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأفهار، يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً.

قال: ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون، يمرّون عليهم كالإبل المهيومة (المهاجمة والمطارة) حين يعرضون على النار، يطؤونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قال: قلت: من هؤلاء يا جبريل. قال: أكلة الربا.

قال: ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم ثمين طيب، إلى جنبه لحم غثٌّ منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون السمين الطيب. قال: قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن.

قال: ثم رأيت نساء معلقات بثُديهن. فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء

اللاتي أدخلن على الرجال ما ليس من أولادهم"[٣٥٤].

ووقع في كتب السنة رؤيته ﷺ هذه المشاهد وغيرها؛ ففي حديث أبي هريرة عند الطبراني والبزار: "أنه مر بقوم يزرعون ويحصدون، كلما حصدوا عاد الزرع كما كان. قال جبريل: هؤلاء المجاهدون. ومر بقوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت. قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة. ومر بقوم على عوراتهم رقاع يسرحون كالأنعام. قال: هؤلاء الذين لا يؤدون الزكاة. ومر بقوم يأكلون لحَماً نيئاً خبيثاً، ويدعون لحماً نضيجاً طيباً. قال: هؤلاء الزناة. ومر برجل جمع حزمة حطب لا يستطيع حملها ثم هو يضم إليها غيرها. قال: هذا الذي عنده الأمانة لا يؤديها وهو يطلب أخرى. ومر بقوم تقرض ألسنتهم وشفاههم كلما قرضت عادت. قال: هؤلاء هم خطباء الفتنة. ومر بثور عظيم يخرج من ثقب صغير يريد أن يرجع فلا يستطيع. قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة فيندم ويريد أن يردها فلا يستطيع"[٣٥٥].

تحليل المشاهد والمرائي:

أولاً: تأتي هذه المشاهد في مرحلة لم يكن قد نزل فيها بعدُ تشريع، وإنما كانت مرحلة بناء العقيدة، وتوطيد أركانها في نفوس المسلمين، ومرحلة بناء اجتماعي جديد قوامه مؤمنون من أخلاط القبائل. وفي هذا إشارة واضحة إلى المرحلة القادمة الزاخرة بالتشريعات المبطلة لما عليه المجتمع من مظالم كالربا، وأكل مال اليتيم، والسير في الفتنة، والزنا، وغير ذلك.

ثانياً: كما أن في الجمع بين هذه المشاهد وفرضية الصلاة في هذه الليلة، إشارة كذلك إلى هذا المفهوم الدقيق للعبادة، والمفهوم الشامل لها، فالعبادة ليست شعائر تعبدية كالصلاة فحسب، وإنما هي شعائر وشرائع ، تنظم صلة العبد بربه سبحانه كما في الصلاة وغيرها من أركان الإسلام وتنظيم صلة العبد بالناس، وفي رعاية

---

(٣٥٤) ابن هشام، السيرة النبوية (مع الروض) ج٢ ص ١٥٤ -١٥٥

(٣٥٥) وقع عند الطبراني ذكر بعض هذه المشاهد كما ذكرها ابن حجر في كتبه فتح الباري ج٧ ص ٢٠٠

أموال اليتامى والتسامي عن أكلها، وفي إنماء المال حلالاً بعيداً عن الربا، وفي قضاء الشهوات حلالاً طيباً بالزواج والبعد عن الزنا، وفي حفظ الأمانة وأدائها لأصحابها، والالتزام بالكلمة الطيبة التي لا تثير الفتنة. وما هذه الإشارات إلى تنظيم العلاقات إلاّ أمثلة على تشريع متكامل نزل بعد هذه الفترة، في العهد المدني.

ثالثاً: إن هذه الأمة هي أمة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، التي تحمل رايات الجهاد في سبيل الله حتى يصل هذا الإسلام للعالم كله. ولذا فإن رسولها ﷺ أُريَ أجر المجاهدين، فهم يزرعون ويحصدون، وكلما حصدوا عاد الزرع كما كان.

وما هذا الارتباط بين فعل المجاهد في سبيل الله وبين الزراعة؟ فالزراعة فتح للأرض واستثمار لما فيها من قابلية الإنبات بما يبذر فيها من حب لتثمر للناس يقتاتون عليه فهو طعامهم وفيه حياتهم، فكذا فتح القلوب وهي أرض للدعوة، ودين الله وشريعته بذور تزرع في قلوب الناس، لتثمر خيراً في واقع الناس إذ به حياة الأرواح والفكر الذي يخرج الناس من ضنك الحياة ويحرر البشر من ربقة الطواغيت، وشهوات النفوس، وتسلط القيم الفاسدة.

والزراعة فيها إنماء كثير ، فأنت تزرع الحبة، والحبة تثمر السنبلة، والسنبلة مملوءة بالحبوب، وهكذا الجهاد في سبيل الله يقدم كلمة الخير، لتنمو في واقع الناس، وليهتدي بها الكثيرون، ومن ثم كان أجر الجهاد في سبيل الله ممثّلاً في زيادته وتضاعفه بمحصول الزارع الذي يزرع ويحصد، وكلما حصد عاد الزرع كما كان، وقد أشار الله سبحانه إلى هذا بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة٢٦١).

رابعاً: إن مصير الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، أن تكون لهم مشافر كمشافر الإبل، وأن يكون الذي يأكلونه جمراً من نار جهنم، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء١٠).

خامساً: ثم إن هؤلاء المرابين يوطؤون بأرجل آل فرعون الذين يعرضون على

النار بكرة وعشيا، لما لهذه الجريمة التعاملية والمالية من إخلال بالحياة الاقتصادية، ومن ظلم لجهد الإنسان، واستغلالٍ لحاجته، ونَهَمٍ يشع في نفسية المرابي الذي يريد لماله أن ينمو ويزيد بسعي الناس دون عناء منه، ولا تحمل لمسؤولية الربح والخسارة.

سادساً: ثم تشير بعض هذه المرائي إلى البناء الخلقي للأمة المسلمة بالتحذير من آفة الزنا، وتصف الفاعل لهذا الفعل الشنيع بالذي يترك اللحم النضيج الطيب، إشارة للمرأة الحلال، ويأكل اللحم المنتن الخبيث، إشارة للمرأة المحرمة.

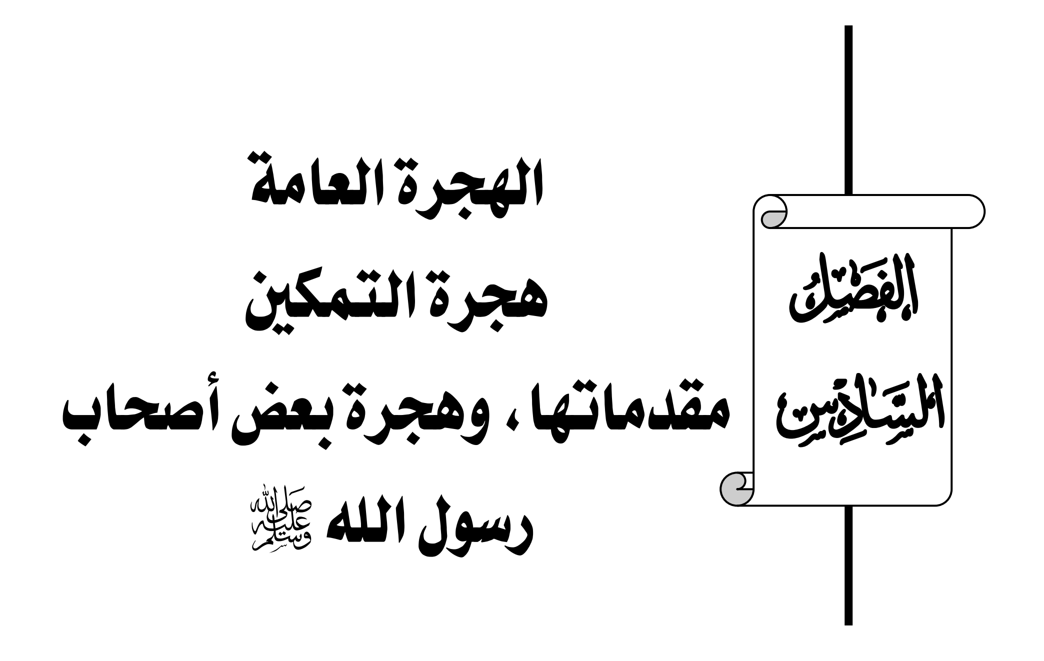
سابعاً: ثم تشير بعض هذه المرائي كذلك إلى نظام الانضباط للأفعال والأقوال من المأكل والمشرب والمنكح، والاستثمار للأموال والقتال، والانضباط في الرأي والقول، وإلى أن الانفلات في الفعل باقتراف المحرمات خطير، والانفلات في القول بالدعوة إلى الفتنة خطير كذلك، وهذا ظاهر في مشهد بشاعة الذين يخطبون مثيرين للفتنة بين الناس فيقرضون حياتهم فها هم أولاء تقرض ألسنتهم وشفاههم، وكلما قرضت عادت كما كانت فالجزاء من جنس العمل.

ثامناً: ثم تشير بعض هذه المشاهد إلى التحذير من عدم المحافظة على العبادات جميعاً بمفهومها الواسع، ويضرب المثل للذين لا يؤدون الزكاة وللذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة فالمتثاقل عن الصلاة يرضخ رأسه بالصخر حتى يفيق، وتارك الزكاة خائف من الفقر يخشى أن ينقص ماله وينكشف حاله، فهو يسرح كالأنعام ولا يستره سوى رقاع على عورته.

وبهذا فإن رسول الله ﷺ أري مشاهد من نوعين:

نوع: آنسه شخصياً وقوّى عزيمته وأشعره برضى ربه سبحانه عنه.

ونوع آخر: تعلق بأمته موجهاً لها ومكلفا لها ومحذراً إياها من سوء العاقبة.


الفصل السادس
الهجرة العامة
هجرة التمكين
مقدماتها، وهجرة بعض أصحاب
رسول الله ﷺ



المبحث الأول
دخول الإسلام إلى المدينة

اشتدت عزيمة رسول الله ﷺ بعد رحلة الإسراء المُطمئِنة المثبتة، وواصل دعوته للقبائل القادمة إلى موسم الحج. وقد كان عليه الصلاة والسلام حاضر البديهة، مستوعباً تركيبة المجتمعات الجاهلية، مستغلاً كل فرصة يشعرهم فيها أن سبب بلائهم هو شركهم وعدم عبادتهم لله وحده لا شريك له. كما لم يمنعه ما هو فيه من اضطهاد وابتلاء من مبادرة القوم، ومبادأتهم بما عنده من حق. يدل على ذلك أنه عليه الصلاة والسلام سمع بقدوم قوم من الأوس يطلب الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وقد كانت بينهم إحَن وحروب أهلكت الألوف من أهل المدينة فضلاً عن العشرات من ساداتهم، أتاهم رسول الله ﷺ: "فجلس إليهم فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي الكتاب. قال: ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. قال: فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له. قال: فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ وقال: دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا. قال: فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج [٣٥٦]. ويقال إن إياس بن معاذ خرج في تلك الحرب، وقتل" وكان قومه يسمعونه وهو يحتضر يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه مات مسلماً، فقد استشعر الإسلام في لقائه مع رسول الله ﷺ في ذلك المجلس" [٣٥٧].

وتعد هذه بداية اتصال الرسول ﷺ بأهل المدينة سوى ما كان يعرض نفسه على

---

[٣٥٦] السيرة النبوية (الروض الأنف) ج٢ ص ١٧٥-١٧٦.

[٣٥٧] المرجع السابق، إسناده حسن، وقال ابن حجر أنه من صحيح حديث ابن إسحق.انظر الإصابة١/ ١٤٦ ومسند أحمد ٥/ ٤٢٧ من طريق ابن إسحق أيضاً.نظر العمري، السيرة النبوية الصحيحة ،١/ ١٩٦

مواسم الحجيج، وكان أهل المدينة منهم، ثم قام رسـول الله ﷺ في موسـم الحـج في السنة الحادية عشرة للبعثة فلقي نفراً مـن الخـزرج، فعـرض علـيهم الإسـلام عنـد العقبة. قال ابن إسحق بسنده:" لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنـتم قـالوا نفـر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا نعم. قال أفلا تجلسون أكلمكـم؟ قـالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا علـيهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم بـه في الإسـلام، أن يهـود كـانوا معهـم في بلادهـم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكـانوا هـم أهـل شـرك وأصـحاب أوثـان، وكـانوا قـد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهـم: إن نبيـاً مبعـوث الآن، قـد أظل زمانه، نتبعه، فنقتلكم معه قتـل عـاد وإرم. فلمـا كلـم رسـول الله ﷺ أولئـك النفر، ودعاهم إلى الله. قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمـون والله إنـه للـنبي الـذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صـدقوه، وقبلـوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنـا، ولا قـوم بيـنهم مـن العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم علـيهم، فنـدعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عـن رسـول الله ﷺ راجعـين إلى بلادهـم، وقـد آمنـوا وصدقوا" [٣٥٨].

(٣٥٨) المرجع السابق السيرة النبويةج٢ ص ١٧٦.إسناده حسن كما في تخـريج الألبـاني لأحاديـث فقـه السيرة .الغزالي ص ١٥٤

تحليل:

١- نجد من هـذه الروايـة، معرفـة رسـول الله ﷺ بالنـاس وأقـوامهم، وهـذا أمـر ضروري للداعية الذي لا يتحرك في فراغ وعن جهل بالناس.

ثم هو يعلم علاقة يهود بهم، ويتلطـف معهـم في طلـب الحـديث إلـيهم، ولا يفرض وجوده عليهم، بل يستأذنهم في أن يجلسوا فيكلمهم.

٢- ثم نجد كذلك هذا التصور الدقيق لنفسية يهود، إذ كانوا يثيرون الفتن بين الأوس والخزرج، تفتيتاً للصفوف من حولهم. وهي سياسة السيادة بالتفرقة أو (فرق تسد)- كما يقولون -. ثم إنهم كانوا يتهددون من يخالفهم من أهل المدينة، بأنهم أصحاب كتاب، وأنه سيبعث نبي من العرب، وأنهم سيكونون في صفه ومعه ضد العرب الوثنيين. ولكنهم مع معرفة الحق لم يفوا بما كانوا يعِدون به، إذ لما جاءهم رسول الله ﷺ كذّبوا به، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأنعام٢٠).

٣- ثم نجد طبيعة هذه الـدعوة لأول وهلـة، فإنهـا دعـوة إلى عبـادة الله وحـده لا شريك له، وإلى الأخوة فيه والتحاب فيه. ودعوة هذه طبيعتها، مـن شـأنها أن تلامـس القلـوب الـتي أكلتهـا الإحـن والعـداوات، وأن تـروي ظمـأ أنـاس متعطشين لعلاقات الأخوة والمودة، ولذا فقد أدرك القوم بدون تكلف أن هذه الدعوة هي دواؤهم الذي يشفي العليل. وقـد أملـوا فيهـا وفي رسـولها الخـير الكثير، حينما قالوا: إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك. وبهذه نجد أن الداعية هو طبيب أمتـه، وأن دعوتـه هي داؤها. وحينما تلامس الدعوة قلوب الجماهير، وينجح الداعية في عرضها على الناس مـن واقـع حـاجتهم إلى الإصـلاح بشـكل يشـعرهم بأهميتهـا في حياتهم، يتحرك الإسلام فعلا ليصبح واقعاً عمليا، وليس مجرد عـرض فكـري

ونظري؛ فإن الناس يريدون الحلول الواقعية مع الحيوية مع التأصيل الفكري والنظري.

وفعلاً فقد عادت هذه المجموعة المؤمنة التي تمثلت دعوة الله، واستوعبت طريق الخلاص لأهل يثرب - خزرجهم وأوسهم - مما يعانون ، عادت لتعرض الإسلام على الناس في يثرب بحيث وصلت دعوة الله إلى كل بيت من بيوتها، وكما يقول ابن إسحق: "فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر من رسول الله ﷺ" [359].

---

[359] ابن هشام ، السيرة النبوية (مع الروض) ج٢ ص ١٧٧

المبحث الثاني
بيعتا العقبة

أولاً: بيعة العقبة الأولى:

حرك هذا النفر الأول من المؤمنين قضية الإسلام والإيمان في المدينة، وأخذوا يبشرون بدعوة تنقذ الأوس والخزرج من واقعهم المتفرق المرير، حتى إذا كان العام المقبل، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فاجتمعوا برسول الله ﷺ عند جمرة العقبة الأولى، فبايعوه ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفرض عليهم الحرب وقد كان هذا النفر من الأوس والخزرج ملتئماً لأول مرة [٣٦٠].

وأما نص هذه البيعة فقد كان كما رواه عبادة بن الصامت قال: "كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب: على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأُخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سكتّم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر" [٣٦١].

---

[٣٦٠] انظر السيرة النبوية (مع الروض) ج٢ ص ١٨٤. ورد بألفاظ متقاربة في صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج١ ص٦٤.

[٣٦١] المرجع السابق السيرة النبويةج٢ ص ١٨٥ ورد بألفاظ متقاربة في صحيح البخاري بشرح فتح الباري ج١

تحليل:

وهنا نجد في سيرة رسول الله ﷺ حديثاً عن البيعة.

والبيعة مأخوذة لغة من البيع، وهي عقد فيه عهد ووفاء بين رسول الله ﷺ وبين من يؤمنون بالإسلام، والبائع يعطي السلعة والمبتاع يدفع ثمناً؛ فالمؤمنون يعطون ويقدمون ولاء لله ولرسوله ﷺ، ويلتزمون أوامر ربهم، والله سبحانه يعطيهم ثمناً بدل هذا وبرحمة منه، وهذا الثمن هو الجنة.

وهذا النوع من البيعات مشروع في كل وقت؛ فهو تعاهد على العمل لدين الله، والطاعة لله ولرسوله، والالتزام فيه أدبي وأخلاقي، يؤجر المرء على الالتزام به، ويأثم على الإخلال به، وعلى نكثه، وليس له أي التزامات سياسية أو اجتماعية في عدم كونه بيعة مع الإمام المسلم في ظل دولة إسلامية، تقوم فيها البيعة بين الفرد وبين الإمام فيما يعرف بالبيعة العامة المعروفة في فقهنا السياسي في فقه السياسة الشرعية المعروف والمبسوط في كتب الفقه الإسلامي.

وقد كان رسول الله ﷺ يأخذ البيعة من المؤمنين من أهل المدينة، حيث أنها دليل على الجندية في صفه، لما يترتب عليها من ضرورة السمع والطاعة، والاستشعار بروح الجندية، وذلك قبل قيام دولة الإسلام.

وفي هذا مشروعية إعطاء البيعة للرسول ﷺ، ولكل من يأتي بعد الرسول ﷺ في أمر المسلمين، سواء أكان رئيس دولة أم خليفة للمسلمين، كما كان يحدث في عهد الخلفاء المسلمين، وفي غير أوضاع الدول المسلمة؛ إذ أن السيرة النبوية تعطينا هذا الفقه الواسع، والأفق الواسع لهذه البيعة. ولا يقال هذا من خصوصياته ﷺ إذ لا دليل على الخصوصية.

كما أن للبيعة شروطاً معينة ومحددة، ولذلك ذكرت هنا شروط البيعة الأولى التي سمّاها الصحابي بيعة النساء، أي البيعة المشابهة في شروطها بيعة النساء في سورة الممتحنة، حيث لا ذكر فيها للبيعة على القتال والحرب، حيث لم يكن الجهاد

قد فرض في تلك المرحلة وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الممتحنة١٢ .

كما يجوز للأمير أن يأخذ البيعة في كل وقت يرى ضرورة تجديد الولاء من المسلمين لدعوتهم وقيادتهم، وتبعا للظروف؛ كما فعل رسول الله ﷺ بعد ذلك في بيعة العقبة الثانية، وحتى بعد قيام الدولة المسلمة كما فعل في بيعة الرضوان.

ثانياً: بيعة العقبة الثانية:

عاد المسلمون المدنيون من بيعة العقبة الأولى، ملتزمين أوامر الله، منفذين بيعتهم مع رسول الله ﷺ. وأخذ الإسلام ينتشر في المدينة. كما أن الرسول ﷺ كان قد بعث مع وفد العقبة الأولى مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام.

وكان ضيفاً على أسعد بن زرارة، وقد صلوا أول جمعة في الإسلام، أقيمت في المدينة، وكانوا يومها أربعين رجلا [٣٦٢].

"ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله" [٣٦٣]. وذلك في موسم الحج من السنة الثانية عشر للبعثة.

وهنا نجد كيف لجأ المسلمون من الأنصار إلى الخروج مع قومهم، دون الانحياز عنهم، في مرحلة سرية، حتى لا يثيروا ضجة من حولهم، ولا يُكتشف أمرهم، ثم

---

[٣٦٢] المرجع السابق ص ١٨٥

[٣٦٣] المرجع السابق.

واعدوا الرسول ﷺ سرا وفي زحمة انشغال الناس في أوسط أيام التشريق.

يروي كعب بن مالك خبر لقائهما بالرسول ﷺ فيقول: "فنمنا مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا، مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا؛ نسيبة بنت كعب أم عمارة، إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي ابن نابي إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع، فاجتمعنا في الشعب ننظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس كان أولَ متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج:- قال وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها- إن محمداً منا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عِزّ من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت. فتكلم يا رسول الله ﷺ فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، وقال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق. لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا(كناية عن النساء)، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر" [٣٦٤].

---

(٣٦٤) المرجع السابق الرواية من كعب بن مالك بإسناد حسن وقد صححه ابن حبان كما في فتح الباري، ٧/ ٢٢١. انظر التوثيق، العمري، السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٠١ وأخرجه أحمد في المسند ٣/ ٤٦٠ -٤٦٢ ومن طريق ابن إسحق بسند صحيح وصححه ابن حبان والحاكم، انظر تفصيل التوثيق، إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص ١١٢

وفي رواية جابر بن عبد الله:" فقلنا: حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه سبعون رجلاً منا حتى قدموا عليه الموسم، فواعدونا شعب العقبة فاجتمعوا عندها من رجل ورجلين، حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله. على ما نبايعك؟ قال:"تبايعوني على السمع والطاعة في المنشط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقوموا في الله لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت إليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة" [٣٦٥].

وهنا نرى أن المرأة المسلمة كان لها دور في البيعة، وفي العمل للإسلام فقد حضرت البيعة امرأتان.

كما نلاحظ كذلك كيف كان رسول الله ﷺ يفيد من عصبته، فالعباس جاء ليتوثق للرسول ﷺ. وهو يُفهم الأنصار أن محمداً ليس ضعيفاً ولكنه أبى إلا الخروج إليهم وأن عصبته وعشيرته مستعدة لحمايته.

كما أنه كان حذراً من أن ينكشف أمر هذا اللقاء، فهو يحتاط لنفسه، ويحفظ خط الرجعة، فيقول: "وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، ويريد بذلك أنه إذا سمعت قريش بخبر حضوره للبيعة وخبر استيثاقه لابن أخيه فإنه لم يسلم وإنما هو على دين قومه.

ولكن الأنصار، وقد ملأ الإيمان بالله ورسوله قلوبهم، يعربون عن استعدادهم

---

[٣٦٥] أخرجه أحمد ٣/ ٣٢٢، ٣٢٩ ، ٣٩٤ والبيهقي في السنن٩/ ٩ من طريق ابن خيثم عن أبي الزبير، ورجاله ثقات، وابن حبان ١٦٨٦، والحاكم في المستدرك٢/ ٦٢٤-٦٢٥ وصححه ووافقه الذهبي، كشف الأستار عن زوائد البزار، ١٧٥٦، ورجاله رجال الصحيح. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٢٢٠ رواه أحمد بإسناد حسن وصححه الحاكم، وقال ابن كثير في السيرة٢/ ١٩٦: هذا إسناد جيد على شرط مسلم. وانظر المطالب العالية باختصار ٤٢٩٠، وقال: رواه أبو بكر بن أبي شيبة وهو صحيح، وأبو يعلى: وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٤٦ رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح واللفظ لأحمد . أنظر التوثيق، إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص ١٠٨.

لحماية الرسول ونصرته، بل وهم مستعدون لإعلان الحرب على كل من يعادي رسول الله ﷺ، فهم رجال الحروب ورثوها كابراً عن كابر.

البيعة عهد وتنظيم:

لم تكن بيعة العقبة الثانية مجرد تعاهد على الإسلام ، وإنما هي عهد نظري وعملي قامت على أساسها ارتباطات جديدة بين مسلمي المدينة وقيادتهم في مكة.

ولقد قدر هؤلاء تبعة هذه البيعة ، وأنها ارتباط دم بدم ومصير بمصير، حيث هو مصير الإسلام ومستقبله. وبهذا نجد العباس بن عبادة الخزرجي يعيد إلى أذهان المبايعين، ويذكرهم بما ينتظرهم فيقول: "يا معشر الخزرج! هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت- أي أهلكت- أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم مُوفون له بما دعوتموه إليه على نهْكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة"[٣٦٦].

وحينما سأله أبو الهيثم بن التيهان بقوله: "يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها- يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ تبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم" [٣٦٧].

كما كانت هذه البيعة أساساً لتنظيم دقيق يرعى حركة الإسلام في المدينة. ولإنفاذ هذا فقد طلب رسول الله ﷺ أن يُخرج أهل المدينة منهم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم. وكان اختيارهم قائماً على معرفة دقيقة بأوضاع الناس في المدينة، بحيث يمثل هؤلاء النقباء معظم القوى الاجتماعية في المدينة، فكانوا تسعة

---

(٣٦٦) السيرة النبوية مع الروضة الأنف ج ص١٩١

(٣٦٧) المرجع السابق السيرة النبويةج٢ ص١٨٩

منهم من الخزرج وثلاثة منهم من الأوس، إذ الخزرج أكثر من الأوس في المدينة.

وفي استعراض أنساب هؤلاء النقباء نتبين هـذه المعـاني فهـم رضـي الله عـنهم (التسعة من الخزرج) هم: أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة ابن مالك بن النجار، وهو تيم الله بن ثعلية عمر بن الخـزرج بـن حارثـة، وسـعد ابـن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس بـن مالـك بـن ثعلبـة ابـن كعب بن الخزرج بن الحارث بن رواحة، وعبد الله بن رواحة بـن عمـرو بـن امـرؤ القيس بن مالك بن ثعلية بن كعب بن الخزرج، ورافع بن مالك بـن العجـلان ابـن عامر ابن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن عضب بن جشم بـن الخـزرج، والـبراء ابن معرور بن صخر بن خنساء بن سنان بن عدي بن غنم بن كعب بن سـلمة ابـن سعد بن أسد بن ساردة تزيد بن الخزرج، وعبد الله بن ثعلبة بن كعب بن غنم ابـن سلمة بن سعد علي بن أسد بن ساردة بن تزيد بن شـم بـن الخـزرج، وعبـادة ابـن الصامت بن قيس بن فهر ابن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بـن عـوف ابن الخزرج، وسعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن طريف بن الخـزرج بـن سـاعد ابن كعب بن الخزرج، والمنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن الوذان بن عبـد ود ابن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج.

والثلاثة من الأوس هم ومن الأوس أسيد بن حضير بن سماك بـن رافـع ابـن امريء القيس بن زيد بن عبيد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بـن عمـرو ابن مالك بن الأوس بن حارثة وسعد بن خيثمة بن الحارث بن مالك بن كعب ابن النماط بن كعب بن حارثة بن غنم بن السلم بن امريء القيس بن ثعلبة ابن عمـرو بن عوف ابن مالك بن حارثة، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير بن زيد ابـن أميـة بـن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.

وقد أوصى الرسول ﷺ هؤلاء النقباء برعاية العهد ونصيحة القوم، والإخلاص لدعوة الإسلام فقال:"أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بـن

مريم، وأنا كفيل على قومي- يعني المسلمين من أهل مكة- قالوا: نعم" [٣٦٨].

وفي هذا مشروعية أخذ العهد من القيادات التي يعيّنها ولي الأمر، حيث يتابعه على ولاية محددة في طريق إقامة دولة الإسلام.

ويبدو أن أخبار هذه البيعة قد وصلت إلى مسامع قريش، ونقلها إليها بعض شياطين الإنس والجن، إذ تروي كتب السيرة أن شيطاناً صرخ من رأس العقبة بأنفذ صوت قال: يا أهل الجباجب- المنازل - هل لكم في مُذمّم والصباة معه، قد اجتمعوا على حربكم، فقال رسول الله ﷺ: هذا أزب العقبة هذا ابن أزب- قال ابن هشام - ويقال ابن أُزيب- استمع، أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك[٣٦٩].

الأنصار تطلب الحرب والرسول ﷺ لا يستجيب:

بعد هذا قال رسول الله ﷺ للأنصار: "ارفضوا إلى رحالكم. فقال له العباس بن فضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا؟ فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك. ولكن ارجعوا إلى رحالكم. قال فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا" [٣٧٠].

قريش تستفسر خبر البيعة:

جاء زعماء قريش إلى زعماء الأوس والخزرج من حجيج أهل المدينة ليستفسروا عن هذا الأمر، وليتفاهموا معهم، يملؤهم الغضب، مقدرين خطورة هذه الخطوة إن كانت صحيحة حيث ستمكن لمحمد وللإسلام، وسيكون عليهم منها خطر.

يقول ابن إسحق: في مجادلة قريش للأنصار بسنده: "فلما أصبحنا غدت علينا جِلّة قريش حتى جاءونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج. إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا! وإنه والله

---

[٣٦٨] انظرالمرجع السابق السيرةج٢ ص١٨٩-١٩٠

[٣٦٩] انظر المرجع السابق ج ٢ ص١٩١

[٣٧٠] انظر المرجع السابق ج٢ ص١٩٢

ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه. وقد صدقوا لم يعلموه. وبعضنا ينظر إلى بعض" [٣٧١].

وهنا نجد كيف أن قريشاً تُؤلب الرأي العام على محمد صلى الله عليه وسلم، وتقوم بتحذير أهل المدينة، وهو تهديد مبطن لهم إذ يخوفونهم من أثر الحرب التي يتوقعونها فيما لو أسلم أهل المدينة.

ولما سار أهل المدينة قافلين إلى ديارهم تأكدت قريش أن البيعة قد حصلت، فلحقوا فلم يدركوا إلا سعد بن عبادة، والمنذر بن عمر، وكلاهما كان نقيباً. فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنِسع رحله – أي حزام جمله من الجلد - ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه وكان ذا شعر كثيف.

إن للعلاقات الطيبة أثراً كبيراً في الناس، لا بد أن يفيد منه الداعية فها هو سعد بن عبادة لا يجد من يدفع عنه الأذى ومن ينصره حتى أنه أحسن الظن برجل وهو سهيل بن عمر [٣٧٢] لينقذه، فما كان لذلك الرجل إلا أن لكمه لكمة شديدة، ثم تذكر أنه كان يجير لجبير بن مطعم وللحارث بن حرب بن أمية تجارة فيها ويعينهما حتى لا يظلما في بلاده، ويروي سعد قصته فيقول: "فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن كان معهم، فقال ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال: قلت: بلى والله لقد كنت أجير لجبير ابن مطعم، وعدي بن نوفل بن عبد مناف. قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما. قال: ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ليهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً. قالا: من هو؟ قال: سعد بن عبادة. قالا: صدق والله، إن كان ليجير لنا تجارتنا، ويمنعهم أن يظلمونا ببلده. قال: فجاءا فخلصا سعداً من أيديهم

(٣٧١) ابن هشام ج٢ ص ١٩٣

(٣٧٢) المرجع السابق

فانطلق" [٣٧٣].

ويتبين من هذه الرواية كيف أن بعض أهل الجاهلية ذوو فطر ما زالت تشعر بتفاهة الأساليب التي يتبعها الطغاة في محاربة أعدائهم، وتشعر باشمئزاز وهي تنظر إليها.

ومن أمثلة ذلك هذا الرجل الذي أشار على سعد أن يطلب جوار من يعرف من أهل مكة، بل قام بمساعدة سعد، فذهب هو نفسه إلى الرجلين يستثيرهما لإجابة طلبه من الجوار.

---

[٣٧٣] انظر المرجع السابق

المبحث الثالث
فاتح المدينة- مصعب بن عمير -

الإسلام دعوة الله سبحانه وتعالى، وهو يتحرك لا يريد أراضي الناس ولا ديارهم، ولكنه يريد قلوبهم بهداه، ومن ثم تسلم الأرض بخيراتها في أيدي أصحابها، يسخرونها لعبادة الله. ولذا فإن الفتح العسكري صورة حاسمة من طرق الجهاد لدخول الإسلام حين يستعصي دخولها بطريق نشر الدعوة بأسلوب البيان.

وها هي ذي المدينة المنورة تفتح صدرها لدعوة الإسلام. ومن دعاتها وفاتحي قلوب أصحابها مصعب بن عمير رضي الله عنه.

وقد كان قبل إسلامه شاباً تلبسه أمه الغنية أجمل الحلل، وأنفس البرد والثياب اليمانية، وحينما عرف ربه فآمن به والتحق بصف الرسول ﷺ حاربته أمه، وضغطت عليه، وحرمته نعمه السابقة؛ فبعد أن كان أكثر شباب قريش تعطراً، بحيث كان إذا مر من زقاق عرف من رائحة عطره أن مصعباً مر من هنا، أصبح منشغلاً بدعوة الإسلام. فقد تغيرت مفاهيم الجمال في نظره، وقد أمره رسول الله ﷺ، أن يذهب إلى المدينة في الفترة ما بين البيعتين: "يعلم أهلها الإسلام، ويقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين، حيث كان يسمى المقرئ(...) وكان منزله على أسعد بن زرارة" [(٣٧٤)].

وبهذا يتم التنسيق بين مسلمي مكة ومسلمي المدينة، لنشر دعوة الله سبحانه وتعالى. وتروي كتب السيرة حركة مصعب مع إخوانه في المدينة يبلغون دعوة الله سبحانه.

قال ابن إسحق: "وحدثني عبيد الله بن معيقب، وعبد الله بن أبي بكر أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير، يريد دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ بن امرؤ القيس بن زيد ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطاً – أي بستاناً- من حوائط بني ظفر(...) (أي جلسا في القيلولة) قالا على بئر يقال لها

---

(٣٧٤) السيرة النبوية لابن هشام (الروض)ج٢ ص ١٨٥

بئر قرق، فجلسا في الحائط. واجتمع إليهما رجال من أسلم، وسعد ابن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه. فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين، اللذين أتيا دارينا ليُسَفها ضعفاءنا فازجرهما، وأنهَهُما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا سعد بن زرارة مني حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدما، قال: فأخذ أسيد بن حضير، ثم أقبل إليهما فلما رآه اسعد بن زرارة قال لمصعب ابن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال:فوقف عليهما متشتماً (أي يهددهما). قال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، قال: أنصفت. ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن. فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله. ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قال: أن تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي. فقام فاغتسل وطهر ثوبه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكم الآن، سعد بن معاذ. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد، وقومه جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً. وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت وقد حُدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، فقال سعد مغضباً مبادراً تَخُوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثم خرج إليهما فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن

عمير: أي مصعب جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة، وجلس. فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن. قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله. ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل، وطهر ثوبه، وتشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، قال: فلما رآه قومه قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نفيسة. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسى في دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة" [٣٧٥].

هنا نجد كيف يجعل اسعد بن زرارة بيته موئلاً للدعوة الإسلامية؛ فهو الذي يستضيف أخاه مصعباً، وهو الذي يدله على القوم، لأن سيره معه يسهل مهمته، ويعطيه الأمن والحماية فلا يتعرض للأذى. ثم هو يختار أن يذهب به ليدعو سادة القوم لما يعلم من أن إسلامهم طريق لإسلام أتباعهم.

ثم إن الداعية يمتص نقمة الناس، ولا يتخلق بأخلاقهم ، فأُسَيد وسعد كلاهما جاء متشتماً، يغلظان القول لأسعد ومصعب، ومع ذلك يتلطف أسعد ومصعب في استئذانهما ليجلسا ويسمعا، فإن أعجبهما ذلك قبلاه، وإلا فهما مستعدان لترك ديارهما.

كما أن الداعية لا بد أن يدرك أن هدى الناس بيد الله سبحانه، وليس بيده وبمهارته، فجهد الداعية ومهارته وحسن أسلوبه عمل بالأسباب. والله تعالى هو الذي يتولى القلوب. ويقلبها كيف يشاء. ولذا فإن أسعد يطلب من مصعب أن

---

(٣٧٥) السيرة النبوية (مع الروض) ج٢ ص ١٨٦-١٨٧

يَصْدق الله في دعوته لأسيد؛ فإخلاص الداعية لله يعينه على انفتاح القلوب له.

كما أن المسلم متى عرف الحق وآمن به يجد من واجبه أن ينقله إلى من يحب، فأسيد حين أسلم يستثير سعد بن معاذ بأن يخوفه بأن بني حارثة خرجوا ليقتلوا أسعد بن زرارة وهو ابن خالة سعد. وهذه حيلة جعلت سعداً يلتقي أسعد فيسمع الحق فيسلم. وحين أسلم سعد فاصل قومه وهو سيدهم أن لا يكلمهم حتى يؤمنوا بالله وبرسوله ﷺ، وفعلاً قد أسلموا.

فرضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم ، فالمدينة بجهدهم فتحت فكرياً ولم تفتح عسكرياً.

المبحث الرابع

أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة

وبعد بيعة العقبة الثانية، بدأ رسول الله ﷺ يأذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، بل أمرهم بالهجرة.

ويبدو أن هنالك فرقاً بين تخييره المسلمين بالهجرة سابقاً إلى الحبشة، وبين أمره لهم هذه المرة بضرورة الهجرة إلى المدينة. فهجرة الحبشة كانت تحفظاً على مسلمين خافوا على أنفسهم الفتنة والأذى في مكة، بينما الهجرة إلى المدينة تمثل اليوم خطة حركية جديدة، وضرورة لا بد منها لما سيتبعها من قيام دولة الإسلام وكيان الأمة المسلمة، بعد أن أصبح طرفا هذه الأمة المؤمنون من أهل يثرب والمؤمنون من أهل مكة جاهزين ومتكاملين، فمسلمو مكة خاضوا تجربة طويلة في الدعوة إلى الله، والثبات على الفتنة. ومسلمو المدينة طاقات قوية أثر فيها الإيمان بعيداً عن الاضطهاد، بحيث وصلت في مستواها درجة عالية من الاستعداد النفسي لنصرة دين الله، وحماية رسول الله ﷺ ودعوته. وهذه الهجرة ستكون نقطة ارتكاز لمرحلة الانطلاق، ومن على أرضية صلبة بعد أن تحققت الأرضية البشرية العقدية الصلبة. وها هو ذا رسول الله ﷺ يقول للمسلمين في مكة: "إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها" [٣٧٦].

ولقد سبق أن بُشر رسول الله ﷺ وهو عائد من رحلة الإسراء والمعراج بالهجرة إلى يثرب. ويرى العمري[٣٧٧] أن النصوص الصحيحة تدل على أن اختيار المدينة مهاجراً لرسول الله ﷺ كان بوحي إلهي مستنداً إلى الأحاديث الآتية:

الحديث الأول: " أُريت في المنام أني مهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب"[٣٧٨].

---

[٣٧٦] المرجع السابق ص٢١١

[٣٧٧] العمري، السيرة النبوية الصحيحة١/ ٢٠١ وتوثيقه للأحاديث كما سيأتي.

[٣٧٨] كما في صحيح البخاري بشرح فتح الباري،٧/ ٢٢٦، وصحيح مسلم ٤/ ١٧٧٩.

الحديث الثاني: "إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين"[٣٧٩]. "وكأن النبي ﷺ أري دار الهجرة بصفة تجمع المدينة وغيرها، ثم أري الصفة المختصة بالمدينة فعيّنت" كما يرى ابن حجر[٣٨٠].

والهجرة ليست أمراً هيناً ولا سهلاً على النفوس، ذلك أن معناها أن يترك المسلمون مكة البلد الحرام، وفيها المسجد الحرام، وهي مسقط الرأس ومهبط الأفئدة، وأن يضحوا بأموالهم، وأولادهم، وأزواجهم، وكل ما في حياتهم من ارتباطات بمكة، وأن يدخلوا بلداً جديداً. وهذا الفعل قاس على النفس في نظر العربي آنذاك؛ إذ لا يخرج العربي من دياره إلى ديار قوم آخرين إلا لأمر هام، ورغما عنه. ومع ذلك فإن نفوس المسلمين لم تعد تهتم بالقيم الجاهلية، وإنما تهمها مصلحة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وتنفيذ أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدئذ تكون مصلحة المسلم الشخصية محققة في تلبية مصلحة الدعوة وتنفيذ مطالبها وطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

ثم هل تترك الجاهلية المسلمين أن يختاروا الهجرة، وأن يأخذوا حريتهم فيما يختارون دونما مضايقات؟ لا، إن ثمة روايات وقصصا كثيرة تدل على اضطهاد وظلم للمهاجرين من أخذ للأموال وضغط على الأعصاب بل وحبس وتضييق كما سنرى .

---

[٣٧٩] صحيح البخاري بفتح الباري ٧/ ٢٣١ واللابتان هما الحرتان كما في فتح الباري٧/ ٢٢٨ أي سلسلتا الجبال من الغرب والشرق .

[٣٨٠] انظر فتح الباري،٧/ ٢٣٤ نقلاً عن ابن الليث أحد شراح صحيح البخاري وانظر تفاصيل التوثيقات، العمري، السيرة النبوية الصحيحة١/ ٢٠١ وانظر إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية ص١١٥.

المبحث الخامس

هجرة أبي سلمة

هذه عائلة مسلمة هي أسرة أبي سلمة المكونة من أبي سلمة وأم سلمة وابنهما الطفل سلمة. يكتب على هذه الأسرة التشتت والمرارة والألم بسبب أذى الجاهلية لها، حينما اختارت الهجرة.

يروي ابن إسحق بسنده عن سلمة بن عمر بن أبي سلمة عن جدته أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: "لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم (أي أهلها)، قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك قد غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه. وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا:لا والله لا نترك ابننا عندها إذ انتزعوها من صاحبنا، قالت فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: فَفُرّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج من غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريبا منها، حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ قالت: فقالوا الحقي بزوجك إن شئت. قالت: ورد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني، فوضعته في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله. قالت: فقلت: أتبلّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي. حتى إذا كنت بالتنعيم لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا عبد الدار، فقال: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله إلا الله وابني هذا قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي. فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه. كان إذا بلغ المنزل

أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر بعيري، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدّمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة. فلما نظر على قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية، - وكان أبو سلمة بها نازلاً- فادخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعاً إلى مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل سلمة،وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان ابن طلحة" [٣٨١].

وهنا نجد صلف الجاهليين حيث شتتوا هذه الأسرة، وخلعوا يد الطفل بعصبيتهم. كما نرى إصرار المرأة الصالحة على دينها وثباتها على الحق حتى أشفق على حالها أحد أقاربها فنصحهم بتركها تلحق بزوجها.

ثم نجد أن المرأة الطيبة تفرض احترامها على الآخرين، ونجد كرم هذا الرجل عثمان بن طلحة وإن كان جاهلياً، ونرى حسن خلقه حيث أوصلها مكة، وهو يحترم وحشتها ويعاملها بما يحفظ كرامتها.

وهكذا تتابع المسلمون في هجرتهم حتى أغلقت أبواب وخلت مناطق كاملة في مكة من أصحابها. وكم كان هذا مؤثراً في المجتمع الجاهلي لأنه يعني اختلالاً في التركيبة الاجتماعية، ويعني من ناحية أخرى أن هؤلاء الذين خلت مكة منهم لا يمكن أن ينسوا مكة. وأنهم وهم أصحاب قضية لا بد أنهم سيعملون من أجلها. وقد عافوا من أجلها مساقط الرؤوس، وأنهم وهم بعيدون عن مكة سيأخذون حريتهم في التخطيط والتنفيذ وليس لأهل مكة سطوة عليهم ولا يد. وهذا فعلاً ما جعل عتبة بن ربيعة يقول للعباس بن عبد المطلب وهما يسيران في طرقات مكة ويريان دار بني جحش أغلقت هجرة، وقيل لما مر عتبة وأبو جهل والعباس على دار عامر بن ربيعة بعدما غلّقت، فقد هاجر رب الدار وزوجته وأخوه أحمد، ونظر عتبة إلى تلك الدار فقال للعباس: "هذا عمل ابن أخيك فرق جماعتنا وشتت أمرنا

[٣٨١] المرجع السابق ص٢١١-٢١٢.

وقطع بيننا" [٣٨٢].فهم يتهمون محمداً ﷺ أنه هو الذي جعل بيوتهم خلاء من أهلـها، أما هم فليسوا سبب هذا الذي حصـل! أليسـوا هـم الـذين اضـطهدوا المسـلمين، وخنقوا حرياتهم وألجأوهم إلى أن يبحثوا عن النصير من غير أهل مكة؟!

(٣٨٢) ابن هشام ج٢ ص ٢١٣.الرواية فيها هذا عمل ابن أخي وهو خطأ طباعي إذ لا يستقيم المعنى والقائل هنا عتبة للعباس ومحمد ابن أخ العباس وانظر الغزالي في فقه السيرة، ص١٦٥ -١٦٦ .

المبحث السادس
هجرة عمر وعياش

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يهاجرون سراً، فلا يثيرون تحدياً جماعياً للمشركين، حتى لا تقوم ملحمة تنتهي بهلاكهم، إلا أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه رأى أن هجرته سراً لا تثير قلق الجاهليين ولا تتحداهم.

روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: "ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا متخفياً، إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لَمَّا هم بالهجرة تقلد سيفه، وتنكَّب قومه، وانتضى في يديه أسهماً، واختصر عَنَزَته – أي وضع عصاه على خاصرته وهي تعبير عن العزة والتحدي- ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحِلَق واحدة واحدة فقال: شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس[٣٨٣]. من أراد أن تثكله أمه، أو يُيَتّم ولده، أو ترمله امرأته، فليلقني وراء هذا الوادي" [٣٨٤].

وتقترن بهجرة عمر قصة هجرة عياش بن أبي ربيعة المخزومي الذي هاجر مع عمر، إلا أن المشركين خدعوه وأثروا عليه. وكانت له قصة طريفة ذكرها ابن إسحق بسندها عن عمر بن الخطاب قال: "اتعدنا لما أردنا بالهجرة أنا وعياش ابن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب[٣٨٥]. (...). وقلنا أيُّنا لم يصبح عندها فقد حُبس فليَمض صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعياش عند التناضب

---

(٣٨٣) المعاطس: الأنوف ويرغم الله المعاطس كناية عن الإذلال.

(٣٨٤) أبو زهرة خاتم النبيين ج١ ص ٦٤٩ دون ذكر مصدر هذه الرواية. قال العمري:"وأما ما روي من إعلان عمر لهجرته وتهديده من يلحق به بثكل أمه فلم يصح. وذكر مصادر الرواية بأنها من ابن الأثير في أسد الغابة،٤/ ٥٢ بإسناد فيه مجاهيل ثلاثة كما ذكر الشيخ الألباني في كتابه دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ص١٤٣. وقال: انظر شرح المواهب اللدنية، ١/ ٣١٩ن والسيرة الشامية للصالحي ٣/ ٣١٥ والعمري: السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٢٠٦.

(٣٨٥) التناضب: ضرب من الشجر.

وحبس هشام، وفتن فافتتن(...)فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو ابن عوف بقباء، وخرج أبو جهل ابن هشام، والحارث بن هشام، إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فكلماه، وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا تمسَّ رأسها قط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك. فرقَّ لها فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريد القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم. ووالله لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. قال: أَبَرُّ قَسَم أمي، ولي هنالك مال فآخذه. قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي، ولا تذهب معهما. قال: فأبى إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قال. قلت له: أما إذ فعلت ما فعلت؛ فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها. فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه. قال بلى، قال: فأناخ، وأناخ ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عَدَوا عليه، فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة، وفتناه. قال ابن إسحق: فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة أنهما حينما دخلا به مكة دخلا به نهاراً موثقاً ثم قالا: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا" [٣٨٦].

---

[٣٨٦] ابن هشام ، السيرة النبوية مع الروض ج٢ ص ٢١٩وحكم العمري على هذه الرواية بأن إسنادها حسن لذاته، لأن ابن إسحق صرح فيها بالتحديث من طريق أخرجه الحاكم في المستدرك٢/ ٤٣٥، وقال صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه وأقره الذهبي، انظر العمري السيرة النبوية الصحيحة، ١/ ٢٠٦. وصححه إبراهيم العلي في توثيقه؛ فقال: قال الهيثمي في المجمع ٦/ ٦١ رواه البزار ورجاله ثقات، كشف الأسرار رقم١٧٤٦ ٢/ ٣٠٢، وابن هشام في السيرة، ١/ ٤٧٤-٤٧٥ بسند رجاله ثقات صرح فيه ابن إسحق بالتحديث، فقال : حدثني نافع مولى ابن عمر عن عبد الله ابن عمر بن الخطاب، رواه البيهقي في الدلائل، ٢/ ٤٦١ -٤٦٢، والبيهقي في السنن ، ٩/ ١٣-١٤ من طريق ابن إسحق فالحديث صحيح ، إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص١١٨.

وهنا نجد كيف أن عمر رضي الله عنه كان حريصاً على ألا يستجيب عياش إلى خدعة هذين الرجلين من قومه، ولكن عياشاً تحركت عاطفته نحو أمه، فلم يصبر على الأذى والابتلاء. وعمر ينصحه ألا تأخذه العاطفة، وأن أمه سوف لا يمنعها قسمها من أن تمشط حين ترى ضرورة الامتشاط، وسوف تستظل حينما يؤذيها حر مكة، بل إن عمر رضي الله عنه يريد أن يضحي بنصف ماله الكثير لأخيه ليعوضه عن ماله الذي ما زال في نفسه في مكة. ورغم عدم سماعه لنصيحته لم يغضب عمر، ولم يترك أخاه في الله يفعل به هؤلاء ما شاءوا، بل آثره على نفسه وأعطاه ناقته النجيبة الذلول لتعينه على الفرار منهم إن رأى منهم ما يريبه. ولكن عياشاً انطلت عليه الحيلة، وخدع وفتن.

ومع ذلك كله بعد أن انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة مهاجراً كان الصحابة يخوضون في مصير هؤلاء الذين افتتنوا فأنزل الله سبحانه آيات تفتح باب التوبة لهم.

ويتذكر عمر قصة أخيه عياش، فيرسل إليه كتاباً فيه الآيات البينات، علها تفتح له باب الإنابة والعودة وهذا مسلك من الداعية جميل، ذلك أنه لا يحقد على من افتتن، بل يسأل الله له الصلاح، بل ويفيد من كل إمكانية لإقامة صلة معه تفتح له باب العودة والإنابة؛ فإن الارتباط على الإيمان ولو للحظات لا ينساه المؤمن وإن كان هو ينعم بنعمة الإيمان والولاء لله ولرسوله، فلا تنسينه نعمته هذه ما وقع فيه غيره من الفتنة.

وعمر رضي الله عنه يستوعب هذا الدرس الدعوي فيكمل قصته مع أخيه في الله عياش فيما يروي ابن إسحق قال: "وحدثني نافع عن عبد الله بن عمر في حديثه قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً، ولا عدلاً، ولا توبة قوم قد عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم. فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسنا: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ (الزمر ٥٣-٥٥).

قال عمر: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاصي.

قال: فقال هشام بن العاصي: فلما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى أُصعِّد بها فيه وأُصوب، ولا أفهمها حتى قلت اللهم فهمنيها. قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة. قال ابن هشام: فحدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: من لي بعياش بن أبي ربيعة- وهشام بن العاص؟ فقال الوليد بن المغيرة، أنا لك يا رسول الله بهما. فخرج إلى مكة فقدمها مستخفياً فلقي امرأة تحمل طعاماً، فقال لها أين تريدين يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين- تعنيهما أي عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص الذي حبسه قومه أول ما شرع في الخروج مع عمر وعياش- فتبعها حتى عرف موضعها، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور عليهما ثم أخذ مروة[٣٨٧] فوضعها تحت قيديهما ثم ضربها بسيفه فقطعها، فكان يقال لسيفه ذو المروة لذلك، ثم حملهما على بعيره، وساق بهما فعثر فدميت أصبعه فقال:

هل أنت إلا أصبع دميت ... وفي سبيل الله ما لقيت

ثم قدم بهما رسول الله ﷺ بالمدينة[٣٨٨].

ولقد نزل كثير من المهاجرين الأوائل في قباء في مكان يسمى العُصبة قبل مقدم

---

[٣٨٧] مروة: أي حجراً صلبا

[٣٨٨] ابن هشام، السيرة النبوية مع الروض الأنف، ج٢ ص ٢١٩-٢٢٠

رسول الله ﷺ. وكان يؤمهم في الصلاة سالم بن معقل لكونه أكثرهم قرآناً[٣٨٩].

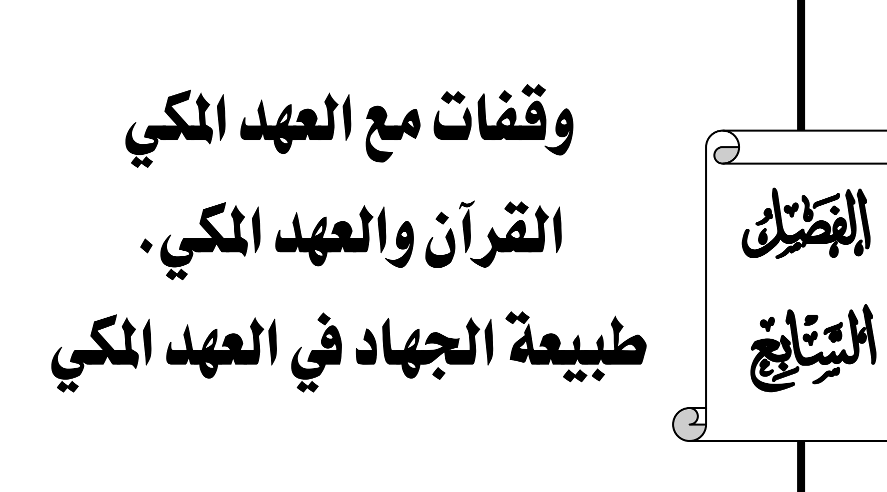
ولقد استقبل الأنصار إخوانهم المهاجرين، واستضافوهم في بيوتهم، وقاسموهم حياتهم وأموالهم. ولقد كان المهاجرون كثيرين، وكان الرجل المسلم من الأنصار يستضيف الأخ المؤمن المهاجر والمهاجرين والثلاثة والأكثر بحسب قدرته، ولقد ضحوا بأموالهم وبكثير من متع حياتهم، وآثروا إخوانهم على أنفسهم، رغم حاجات بعضهم لما آثر أخاه المهاجر به، وذلك مما سجله الله لهم من فضل وأجر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر٩).

ومما روته كتب السير أنه نزل أبو سلمة وعامر بن ربيعة وأبو أحمد بن جحش وزينب بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش وحمنة بنت جحش جميعاً على مبشر ابن عبد المنذر بقباء، ثم لحق بهم في دار الصحابي الأنصاري بشر من المهاجرين عكاشة بن محصن، وشجاع بن وهب، وعقبة بن وهب وأربد بن حمير. كما نزل عمر بن الخطاب وزيد بن الخطاب، وعمرو بن سراقة وعبد الله بن سراقة وخنيس بن حذافة وسعيد بن زيد، وبنو البكر الأربعة، إياس وعامر وعاقل وخالد، وحلفاؤهم من بني سعد جميعاً على رفاعة بن عبد المنذر. ونزل حمزة وزيد ابن حارثة وأبو مرثد على سعد بن خيثمة، ونزل عبيدة بن الحارث والطفيل ابن الحارث والحصين بن الحارث ومسطح بن أثاثة وسويبط بن سعد وطليب ابن عمير وخباب بن الأرت نزلوا جميعاً على عبد الله بن سلمة، ونزل عبد الرحمن ابن عوف على سعيد بن الربيع، والزبير بن العوام على منذر بن محمد وعثمان بن عفان على أوس بن ثابت[٣٩٠].

---

[٣٨٩] انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري ٢/ ١٨٤، ١٦٧

[٣٩٠] انظر ابن هشام ، السيرة النبوية،٢/ ٤٢٥ -٤٢٧ وانظر الأسمر، القدوة، ص١٩٩-٢٠٠.



الفصل السابع

وقفات مع العهد المكي

القرآن والعهد المكي.

طبيعة الجهاد في العهد المكي

المبحث الأول
القرآن والعهد المكي

كلمة في المنهج:

هكذا كان العهد المكي: نبيّ مرسل، مبعوث رحمة للعاملين، يبدأ من مكة التي تضم أول بيت مبارك وضع لتوحيد الله وعبادته، وجدّد منطلق التوحيد فيه جدّ محمد ﷺ إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، إذ أمرهما الله سبحانه وتعالى أن يطهراه للطائفين والعاكفين، والعابدين، ودعوا الله سبحانه وتعالى أن يبعث من نسلهما النبي الخاتم، والمعلم الناصح، والمربي للناس، والمصحح للدرب الذي يعيد البشر إلى الإسلام، ملة إبراهيم. وها هو ذا الدعاء يتحقق في مبعث محمد ﷺ حيث يقول عليه الصلاة والسلام: " أنا دعوة أبي إبراهيم" وقال تعالى مشيراً إلى هذه المعاني: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(البقرة ١٢٤-١٣١).

والمهمة أمام رسول الله ﷺ كبيرة وعظيمة، إنها دعوة الناس كافة، وتنطلق في وسط أشدّ الشعوب والأمم ترابطاً دموياً، حتى كان هذا الترابط ديناً ومرجعاً، حكماً وقانوناً،

ميزاناً وقيماً، مع نبض دم كل واحد في ذلك المجتمع يمثل ذلك قائلهم:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وهناك جبال صلبة من المفاهيم الجاهلية، شركاً في الاعتقاد، والتصورات، والقيم والمفاهيم، والأخلاق والسلوك، والارتباطات والولاءات، والأوضاع النفسية، والاجتماعية، وترابطاً على كل هذا لا يتزعزع، ولا يسمح بالاقتراب منه لمجرد مناقشته أو إعادة النظر في شيء منه. وكل من يقترب على نقد شيء منه أو التفكير بمناقشته فهو خائن وصابئ، وخارج على دين الآباء والأجداد.

وفي ذلك المجتمع سيادة قبلية عريقة، وقوية يدين لها المجتمع بالولاء والطاعة والاستسلام.

والإسلام الذي بعث به محمد ﷺ يريد أن ينسف الشرك من جذوره من قلوب هؤلاء الذين ستكون مهمتهم عالمية، وكبيرة، لأنهم مطالبون أن يغيروا أنفسهم ليكونوا نواة التغيير. ودعاة التغيير للجاهلية في الأرض وإلى قيام الساعة.

والمعطيات لهذا كله: نبي صادق مرسل، وقرآن يتنزل، يحمل هذا القرآن معرفة جديدة أصيلة عميقة في تاريخ البشر تعود إلى أول بشر ومخلوق ونبي هو آدم عليه السلام، بُني له البيت الحرام لعبادة الله، وتوحيده، وجدد الله هذه الدعوة عبر أنبيائه ورسله قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ (فاطر٢٤). وختمها بهذه الرسالة، الإسلام، وعلى يد نبيها الخاتم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وللبشر كافة.

وثمة شرك وجاهلية مسيطرة، ولها حماة أشداء، ومجتمع مترابط يقوم عليها، وليس من السهل أن يفرط فيها. بل نسجها من حول البيت العتيق وحوله بها إلى بيت يضم الأصنام ويحوي نقيض ما بني من أجله.

وثمة في الجو معطيات وإشارات، وإرهاصات ودلالات، وبشائر بين يدي هذه البعثة، ومعجزات دالة على صدق رسولها، وصدق ربانيتها، يقف القرآن على

رأسها على أنه المعجزة الرئيسة الكبرى بنظمه ونسجه، وبلاغته وبيانه، وبمحتوياتـه ومضامينه، فيما يدعو إليه من توحيـد وعبـادة، ومعرفـة وتربيـة، وتزكيـة وتعلـيم، وتوجيه ودعوة، وحوار ومناقشة، ودلائل ونظر، وعلـم غيـب وشـهادة، وقصـص وعبرة. وهو يخوض معركته في تربية من آمن بالإسلام تعليماً للتوحيد، وتزكية مـن الشرك والجاهلية، وتسليماً بالحجـة والبرهـان، وتعريفـاً بحقـائق الاعتقـاد وأصـول الإيمان من معرفة الله بأسمائه الحسنى وتوحيده بأسمائه وصفاته وبيـان علاقتـه بمـا سواه وعلاقة ما سواه به، وضرورة إفراده بالعبادة معرفة وقصداً، مرجعيـة وفهمـاً، أخذاً وعطاء، مشـروعية وإخلاصاً، وربطه بمفاهيم الغيب والآخرة، والعمل لمرضاة الله والفوز بالجنة والنجاة من النار.

ويخوض معركته الأخرى بهؤلاء المؤمنين به وعلى رأسهم نبيهم عليـه الصـلاة والسلام مع الجاهلية؛ على رأسها قريش بما تحمل من شـرك، وتحمـي مـن أوضـاع جاهلية فاسدة مفسدة، وهي متغطرسة ، رافضة لهذا الدين الجديد، وغير قابلة لمجرد التفكير في عقيدتـه ومبادئـه، ورافضـة للحـوار في مبادئـه، وتفـرض علـى رسـوله مساومات المصالح، ومحاولات الطمس والاسـتبداد، وعصـا الاضـطهاد والتنكيـل بالمؤمنين، والحصار والمقاطعة، والتأليب والتصفية الجسدية.

ولقد تعرضت كتب السير وسجلت كتب السـنة والتـاريخ المواقـف في سـيرة رسول الله ﷺ، وتناقلت صفحاتها الأحداث المثيرة، ولكنها لم تسجل باهتمـام كـبير الأحداث التربوية والمضامين القرآنية، والمبادئ والصراع في ميدان تربية جيل السيرة النبوية بالقرآن في هذه المرحلة، والذي كان هو وراء إيمان أصـحاب رسـول الله ﷺ وثباتهم وصبرهم. كما لم تسجل إلا اليسير من مواقف قرآنية مع بعـض الجـاهليين من زعمائهم، أو بعض مواقف أولئك الزعمـاء مـن القـرآن؛ أمـا عمليـة الصـياغة للجيل الأول مع رسولهم، وعملية نسجهم بالقرآن، ودعوتهم لما فيه وحواراتهم مع المشركين في تفاصيل مضامين القرآن في مكة، فلم تظهر بصورة جليـة واضـحة مـع أنها هي التي ربت المؤمنين وصنعت منهم المواقف.

والقرآن المكي كثير في سوره وآياته ومحتوياته. تنزل على رسول الله ﷺ وهو محور الدعوة والصراع لرسول الله ﷺومن معه من المؤمنين مع كفار قريش مدة طويلة، بلغت ثلاثة عشر عاماً والمسلمون يتفهمون القرآن في مكة، ويتربون عليه ويصارعون قريشاً به ، ومن أجله، وبمبادئه وعقائده وأخلاقه وقضاياه.

ولذلك لا بد من **محاولة التغيير في منهجية عرض السيرة النبوية** إن تمكنا من ذلك، لنجعل نصوص القرآن وسنة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته ووصفه، وأخلاقه وسلوكاته، تنبض في هذه الأحداث في السيرة، وتشع أنوارها في دماء هذه الأحداث، لنجعلها حيّة من خلال حياة النبي ﷺ وحياة أصحابه ومن معه، في دعوتهم للكفار والمشركين، وفي تعاملهم معهم، وأسلوبهم، ومعاناتهم، وثمرات جهودهم وجهادهم، في الوقت الذي يتعلم هؤلاء الصحابة الإيمان والعلم والعمل والجهاد معاً، وفي حياة ثرية، وتدفق في الأحداث، وليس مجرد عرض لنصوص القرآن وتفسيره وعلومه، وعرض للسنة ودراساتها وشروحها وأحكامها، وعرض للعقيدة وأركانها وثمراتها، ودراسة للفقه والأصول من بطون الكتب وأمهات المراجع؛ في صورة نظرية وتخصصية منفصل بعضها عن بعضها الآخر، بل لا بد من إعادة عرضها كاملة متكاملة متفاعلة، في حياة رسول الله ﷺ وحياة أصحابه في تفاعل زمني وجهد بشري مهتد بهدي الإسلام، ويتربى على الوحي كتاباً وسنة، نصاً وسيرة، فكراً وسلوكاً، جهاداً ومجاهدة، صبراً ومصابرة، دروساً عملية، وحياة واقعية فيها من الجهد البشري ما يحتاج إلى تقويم، وإلى بيان لنقاط القوة، لتعزيزها، ومواطن الضعف لتقويتها، ومواطن الخطأ لتصويبها. وكل ذلك وأنوار الوحي المضيئة كاشفة، وموجهة، مقوّمة ومعدلة، لتحقيق رسالة الإسلام الخالدة برسولها ومعجزته الكبرى القرآن، ومرجعيتها الخالدة المحفوظة أيضاً القرآن والوحي على النبي ﷺ بمثل القرآن وهو السنة ، والحياة بالقرآن والسنة وهي السيرة بمفهومها الشامل والعام.

وإذا ما جئنا لنستكمل السيرة بهذا المفهوم وجدنا أنفسنا أمام صانع هذه السيرة

النبوية وهو القرآن الكريم، لأنه بدونه لا توجد نبوة، وبدون نبوة لا توجد سيرة نبوية، وبدون سيرة نبوية للإيمان بالقرآن والدعوة إليه عقيدة وشريعة ونظام حياة، ومنظومة قيم، وسعادة في الدنيا، وفوزاً بالجنة وبعداً عن النار في الآخرة، بدون هذا كله لا يوجد دين.

ومن هنا كانت سيرة الحبيب عليه الصلاة والسلام، هي حياة الدين، بل هي الدين- عقيدة وعبادة- في صورة عملية تطبيقية نموذجية. وهي معيارية بالنسبة لكل من أراد أن يكون مسلماً وإلى قيام الساعة. ولهذا وصف الله تعالى رسوله بهذه السيرة بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم٤) وفهم ابن عباس الآية ففسرها بأنك على نهج أو منهج عظيم. ولقد كان رسول الله ﷺ بسيرته قرآناً يدبّ على الأرض، ولما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلقه عليه الصلاة والسلام أي عن حياته وسلوكه بالمفهوم الشامل قالت كما ثبت في الحديث الصحيح:"كان خلقه القرآن".

ترى كيف تفاعلت هذه السيرة وهذه الدعوة، وهذه الأحداث في الحياة المكية مع هذا القرآن، وما القضايا الكبرى التي ملأت الحياة النبوية والسيرة النبوية بالنبي ﷺ وأصحابه، وما القضايا التي كان يدعو إليها، وما المواقف التي وقفها الكفار من هذه القضايا خلال ثلاثة عشر عاماً من الدعوة إلى الإسلام في مكة. وما الأدبيات الكبرى التي عمرت هذه السنين من المجاهدة والمصابرة، والثبات والمعاناة والاضطهاد، في أيام تلك السنوات الطويلة ولياليها، وصباحها ومسائها؟

وحقيقة الصراع بين الإسلام والجاهلية، بين الإيمان والكفر، بين التوحيد والشرك، بين جماعة الحق والصدق، رسول الله ﷺ والذين معه، وبين مجتمع الباطل والكذب؛ قريش ومن يلف لفها، حقيقة الصراع تدور حول القضايا الكبرى التي جاء بها هذا القرآن، وآمن بها رسول الله ومن معه ودعوا إليها، ومواقف الكفار والمشركين منها نظرياً وعملياً. هذا إذا علمنا أن القرآن المكي "يقدر بنحو ثلثي القرآن الكريم عدد آيات، وأقل من ثلثيه كماً وعدد أجزاء، ونحو ثلاثة أرباعه عدد

سور"[391].

ولنحاول أن نملأ هذه السنوات الممتدة ثلاثة عشر عاماً في العهد المكي بعناصر صناعة أحداث السيرة: رسول الله ينزل عليه القرآن يعرفه ويعلمه حقائق الدين والإيمان، والنبي ﷺ يدعو إلى هذه الحقائق، ويعلمها أصحابه ممن آمنوا معه وآمنوا به نبياً ورسولاً، وكفار يستمعون لهذا القرآن، فتتباين مواقفهم من:

١- صامتين ولكنه يفكر فيما يسمع من القرآن من داخلهم ولكنهم يكابرون ظاهراً فيرفضونه.

٢- وآخرين لا يقبلون مبدأ نبوة محمد ﷺ شخصاً وقبيلة بدوافع الحسد العصبي، والعصبية الجاهلية حقداً على بني هاشم، وحسداً لهم على هذا الشرف.

٣- وآخرين أقارب منهم من يحمون رسول الله ﷺ دون أن يؤمنوا به، ومنهم حاقدون يسفهون أمره.

٤- ومعتدلين يناقشون ويحاولون ثنيه عن الدعوة حفاظاً على ميراث الآباء والأجداد، وحفاظاً على الهدوء في بلد هو مهبط أفئدة العرب، ومحطة تجارية يعيش أهل مكة على مواسمها، ولا يرغبون بأي تغيير في النمط الرتيب، والهدوء المفيد، والهيئة الرتيبة للعرب، ولمكة ولأهلها.

ومحمد ﷺ ومن معه ينشطون في الدعوة لما آمنوا به، واعتقدوه وآيات الله تتنزل تعالج كل هذه المواقف. والنتائج لهذا التفاعل كله، ولهذه المعطيات، أحداث السيرة النبوية في مكة.

ولهذا فإننا يجب أن ندرس السيرة **بهذه المنهجية** بعرض نماذج من هذه القضايا بعد أن استعرضنا أحداث السيرة المكية وحكمها ودروسها، حتى نتبين ما الذي ولد تلك الأحداث وكيف تولدت، لنعيش السيرة النبوية سيرة دعوة لله بهذا

---

(391) السيرة،دروزة ص٤٠.

القرآن ولهذا القرآن؛ منطلقاً للدعوة وأصلاً للدعوة، وموجهاً للدعوة، ومبيناً السنن والقوانين للدعوة في صورة عملية واقعية هي السيرة النبوية.

وأول قضية جديدة وطارئة ومفاجئة لأهل مكة أن محمداً يدعي أنه نبي يوحى إليه، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، وها هو ذا يقرأ عليهم قرآناً ينزل عليه ويزعم أنه يوحى إليه من ربه، وأول آياته مفتاح للمعرفة لمبدأ الحياة، ومنطلق التفكير وبداية الإيمان الآيات الأولى من سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق١-٥)، وهي دعوة واضحة إلى العودة إلى الله خلقاً وتعليماً، وتذكير بضرورة الإيمان بهذا الرب من خلال تقرير حقيقتين مرتبطتين إحدهما بالأخرى، ونعمتين مقترنتين: نعمة الخلق ونعمة العلم، وكلاهما وجود بعد عدم، وعلم بعد جهل، وقيمة عليا بعد خسة سفلى.

وهذه الآيات بعد كونها مضموناً جديداً يدعى العرب للإيمان به، فهي نظم مفاجئ، جديد، معجز، ومعجزة دالة على صدق النبي الذي أنزلت عليه، فهي معجزة ومضمون، رسالة ودليل. ومع تخوّف الرسول ﷺ على نفسه حينما عاد إلى بيته وقال: "دثروني"، وبعد طمأنة زوجه خديجة له، وطمأنة ورقة بن نوفل له كذلك ينزل عليه بعد ذلك ما يعيد إليه أنفاسه، وما اشتاق إلى عودته وهو جبريل عليه السلام، وبعد أن فتر في نزوله عليه، وإذا به عليه الصلاة والسلام يتلقى أمراً جديداً لتحريكه للدعوة ولما ينزل عليه، وإنذار الآخرين، وأنه بهذا القرآن يجد نفسه مأموراً بالحركة، بما ينتهي عنده عهد النوم مما عبر به رسول الله ﷺ لخديجة بقوله: "ولى عهد النوم يا خديجة" مدركاً بعمق أبعاد الآيات النازلة في المقطع الأول من سورة المدثر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ المدثر(١-٥)، فنزول هذه الآيات تطمين للنبي ﷺ، وأن الله لم يقطعه ولم يتركه، كما أن فيها تكليفاً واضحاً بالبعثة، وإنذار الناس، وتكبير لله تعالى، والبعد عن الرجز والجاهلية.

ثم يتلقى النبي ﷺ من الآيات النازلة عليه ما يؤسس له مفهوم الدعوة التي

يؤمن بها، ويمارسها، ويدعو إليها، ليكرر تلك الآيات في صلاته حتى التي هي على دين إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام فيما بقي من عبارات، وهما ركعتان في الصباح ومثلهما في المساء، فيتلقى سورة الفاتحة التي تمثل أم الكتاب فيما تدعو إليه من تلخيص كامل للقرآن، إذ أنها بآياتها السبع تمثل لوحة الإسلام عقيدة وعبادة، وتحمل التوحيد شاملاً، توحيد ربوبية إثباتاً ومعرفة، وتوحيد ألوهية عبادة، طلباً وقصداً وتعبداً؛ آياتٌ يتربى عليها قلب رسول الله ﷺ وواقعه، ويتربى عليها المؤمنون ممن يلحقون بصفه قال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة ١-٧).

وهذا الاتجاه الذي نراه يعزز حديثاً أخرجه البيهقي والواحدي ووصف رجاله بالثقات عن شرحبيل عن النبي ﷺ، ذكر فيه أن الفاتحة أول ما نزل من القرآن. وهناك رواية عن مجاهد وابن عباس كذلك بهذا المعنى. ولكن نزول أوائل سورة العلق كما في الصحيح هي أول ما نزل، ويفهم من الروايات بأولية نزول سورة الفاتحة أنها كانت بعد العلق، وأنها أول ما نزلت سورة كاملة في حين أن سورة العلق أول ما نزل مقطع منها، وليس كاملة، وبهذا يتم التوفيق بين الروايتين[٣٩٢].

ثم تتابع نزول القرآن على النبي ﷺ، سورة المزمل التي تقرأ في صلاة القيام قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (سورة المزمل١-١٠).

ونلاحظ الآيات مُعَدة لشخصية رسول الله ﷺ شخصية عابدة، متصلة بربها

---

[٣٩٢] انظر السيرة، دروزة ص ١/ ١٣٤

نهاراً بالدعوة إليه، وليلاً بإحكام الصلة به بقيام الليل، والتزود بالطاقة العالية من الإيمان فيما تصنعه صلاة القيام، لأن هذا القرآن- أو القول النازل على محمد ﷺ- قول ثقيل في ذاته وأهدافه وآفاقه، وتكاليفه يحتاج التركيز العبادي الكبير، والاستقامة العالية التي تصنعها القامة العابدة القائمة لليل، حتى الكثرة للتسبيح في النهار، كل هذا يجعل الداعية متوكلاً على الله، صابراً على أذى القوم وعلى ما سيلاقي من إعراضهم وتكذيبهم وصدودهم الكثير، مما يحتاج إلى التزود بالصبر الذي يعين عليه المصابرة على الطاعة بقيام الليل.

وتنزل سورة أخرى، ومطالع سور كلها في اتجاه الدعوة إلى هذا القرآن، بلطف، والتذكير للقوم، والإنذار لهم. فثمة مطلع سورة القلم قال تعالى:﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم١-٤)؛ إذ أن فيها إعلاناً عن القلم وسيلة للقراءة والمعرفة، وأن هذا الذي يقرأ ويكتب وهو القرآن كتاب الله، معجزتك يا محمد، على هؤلاء الذين لم تكن القراءة من كتاب، ولا تأليف الكتب نظرية لهم في التعلم، وأنت أمي منهم وقبلهم، فلا بد لهم أن يقفوا ويتفكروا من أين جاء هذا الذي تقرأه عليهم؟ وهم عاجزون عن أن يأتوا بمثله، وأنت عاجز عن الإتيان بمثله أيضاً، فأنت لا تقرأ ولا تكتب فمن أين جئت به؟! لا شك أنه من عند الله، أنزله عليك، ولا بد أن تكون مطمئناً ولست خائفاً على نفسك فأنت لست بمجنون. وقد طمأنتك خديجة إلى ذلك، من خلال خبرتها بك زوجاً على الأقل ما يقارب خمسة عشر عاماً، إذ المرأة هي أكثر من يعرف أحوال الزوج الذي يعايشها، ليلاً ونهاراً، راضياً وغاضباً، جائعاً وشبعاً، مسروراً وغاضباً، قوياً وضعيفاً، والله تعالى يطمئنك على ذلك فهو خالقك الذي أعطاك العقل، وهو الذي أنزل عليك الكتاب فتهدأ نفسك، فأنت عاقل لست بمجنون، وإن كانوا سيتهمونك بهذا. وأنت اختارك ربك فأنت على خلق عظيم، ولاشك أن خديجة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ شيئاً من أخلاقه العظيمة حين تخوف على نفسه لأول وهلة نزل عليه الوحي. فلتطمئن إذن

فإنك على خلق عظيم بل على نهج عظيم، وطريق قويم.

وفي هذا كله إعداد للنبي ﷺ حتى يقوم بالدعوة، وينطلق بها واثقاً بنفسه، واثقاً باستقامة نهجه، متسلحاً بأخلاق عظيمة في الدعوة إلى المنهج العظيم.

ولما أخذ رسول الله ﷺ يدعو أصحابه الخلّص بعد دعوته أهل بيته، خديجة وزيداً وعلياً وأخذت تنزل عليه سور تدعوه إلى تسبيح الله، مثل سورة الأعلى التي ذكرت بعض الروايات أنها كانت السورة الثامنة ترتيباً في النزول، ثم سورة الليل، وتليها سورة الفجر والشمس والعاديات والعصر والتين والتكاثر والقارعة، وكلها سور فيها من البيان والإنذار والتبشير والدعوة ما يلفت نظر المشركين إلى ضرورة التوقف، والنظر، وإعمال العقل في دعوة رسول الله ﷺ لهم للإيمان بهذا القرآن المعجز، المبين، المفهوم لديهم، المحير لعقولهم، الداعي لهم للتسليم به معجزة دالة على صدق محمد ﷺ.

فماذا كان موقف المشركين من هذه السور ومن هذا القرآن ومن محمد ﷺ؟ أخذوا وشدهوا، ولكن عقولهم لم تستسلم، وخافوا على زعاماتهم ومكاسبهم، ونفسوا على رسول الله ﷺ وعلى بني هاشم نبوة أحد منهم، وقاموا يزعمون أن محمداً يشتم آلهتهم، ويُسّفه أحلامهم، ويفارق قومه، ويفرق صفهم، وأخذوا يكيلون له التهم، مما استدعى أن تنزل سور تقارعهم بالحجة والبرهان وتُهوّن من اتهاماتهم لرسول الله ﷺ بالجنون والكذب، وتستسخف تهمهم الباطلة، ومواقفهم الرخيصة، بل وتعلن جهنم على أقرب الناس لمحمد ﷺ نسباً وهو أبو لهب وزوجته المؤذية لرسول الله ﷺ فتنزل سورة المسد بقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ (المسد١-٥).

ويطمئن الله تعالى الرسول ﷺ أنه لن يتركه، وأنه معه أولاً وآخراً؛ فتنزل سورة الضحى مطمئنة مسلية، مثبتة، مذكرة بمنن الله تعالى على رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ

﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى ١-١١).

وتنزل تتمات السور الأولى التي نزلت، سورة العلق وسورة المدثر، وسورة المزمل، في معرض الدفاع عن هذا القرآن وعن رسول الله ﷺ وعن دعوته.

وقد حاول المشركون أن ينالوا موقفاً ليناً من رسول الله ﷺ باحتواء دعوته ومصادرتها، وعرضوا عليه كما سبق المال والجاه والسلطان، فينزل القرآن محذراً الرسول ﷺ من الاستجابة لطلباتهم قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (القلم ٥-١٤).

ومع ذلك يصبّر الله رسوله ﷺ، ويبين له أن العسر طريق اليسر، وأن الشدة طريق الفرج. قال تعال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ (الشرح ١-٨).

المبحث الثاني
طبيعة الجهاد في العهد المكي

الجهاد بمفهومه الواسع هو كما وصفه ابن عباس رضي الله عنه: استفراغ الطاقة وأن لا يخاف لومة لائم، وكما قال مقاتل: اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته. وكما قال ابن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى [٣٩٣]. وهو بمفهومه الخاص حمل السلاح في سبيل الله بالقتال، وهذه الصورة إحدى صور الجهاد.

والمسلمون في مكة كانوا مأمورين بالجهاد بمفهومه العام، وكانوا ممنوعين من الجهاد المسلح أو القتال. وقد أشار الله سبحانه إلى طرف من هذه القضية بوضوح في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء٧٧). ولهذا حينما طلب أهل بيعة العقبة الكبرى من رسول الله ﷺ أن يميلوا على المشركين ، وضح لهم بصريح العبارة عدم مشروعية ذلك في تلك المرحلة. يروي ابن إسحق عن الزهري قال: "حدثني معبد بن كعب ابن مالك، فحدثني في حديثه عن أخيه عبد الله بن كعب عن أبيه كعب بن مالك. قال: ثم قال رسول الله ﷺ: ارفضوا إلى رحالكم. فقال له العباس بن عبادة بن فضلة: والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، قال: فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم" [٣٩٤].

---

(٣٩٣) انظر زاد المعاد لابن القيم ج٢ ص ٤٤

(٣٩٤) السيرة النبوية لابن هشام مع الروض ج٢ ص ١٩٢ وقد خرجه الألباني في هامش فقه السيرة

ولهذا تميزت هذه الفترة من مكة بتربية المسلمين على الولاء لله وحده، والخروج من الجاهلية؛ عقيدة، وفكراً، وسلوكاً، وارتباطاً، وتربية على الصبر، ومجاهدة النفس، والهوى، والثبات في المعركة، في ميدان النفس، وفي ميادين الجاهلية، بالصبر على الإيذاء والاضطهاد في سبيل الله، وعلى مجاهدة الكافرين بالكلمة والبيان والحجة واللسان وتبليغ القرآن كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان٥١-٥٢).

وها هم أولاء أصحاب رسول الله ﷺ يَلقَوْن الأذى والتعذيب، ولكنهم يواجهون الأمر بصبر، وأناة، والتزام بمنهج الإسلام وأوامر الرسول ﷺ، دونما انفعال عاطفي، ولا تهور؛ ذلك أن أشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً هم أشد الناس جزعاً وانهياراً وهزيمة عندما يجد الجد وتقع الواقعة. وذلك لأن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالباً ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف وليست عن شجاعة واحتمال وإصرار، كما تكون منبعثة عن قلة احتمال الضيق والأذى [٣٩٥].

وها هو ذا رسول الله ﷺ يضرب لهم المثل الأعلى في الصبر والاحتمال، والمواساة والتطمين لأصحابه، والتثبيت للمستضعفين منهم؛ إذ يرفع في نفوسهم من مستوى التضحية والتحمل؛ ذلك أن القضية ليست في سلامة جسد مسلم، أو عافية مجموعة مؤمنة، وإنما هي إقرار عقيدة صحيحة وتصور ناضج، ومستقبل دين على وجه الأرض، فيمر الرسول ﷺ على آل ياسر وهم يعذبون فيقول لهم: "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة"[٣٩٦].

للغزالي ص ١٥٩ وقال سنده صحيح.

[٣٩٥] سيد قطب:في ظلال القرآن طبعة دار العربية، بيروت ، ج٥ ص ١٤١.

[٣٩٦] حديث صحيح رواه ابن إسحق في السيرة مع الروض ج٢ ص ٦٨ بلاغاً ووصله الحاكم

وتربية المسلمين على هذا الهدف الأكبر مع تجلية هذا الهدف وهو **الجنة**، أمر تتميز به التربية الإسلامية عن المناهج الأرضية محدودة الأهداف وضيقة الأفق.

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يلتزمون هذا المنهج ، ويعيشون حالة الضبط والالتزام، مع أنهم قادرون، أفراداً وجماعات على إيقاع الأذى بالجاهلية؛ أفراداً، وزعامات، ومصالح اقتصادية. فلم يكن أمية بن خلف عدو الله وهو يضطهد بلالاً ويعذبه بمنأى عن أن تطوله يد بلال في ليل أو نهار، في غفلة أو صحوة، فلقد كان عبداً لديه ويعيش عنده. ولقد كان الجاهليون يمطلون المسلمين حقوقهم، ومع ذلك كله فلم تؤثر للمسلمين مخاطرة فردية، أو انفعال عاطفي متهور، أو نهب لمصالح المجتمع الجاهلي رغم ما لحق بهم من جوع في أزمة المقاطعة العامة التي كانت في منتهى القسوة واللاإنسانية والظلم. والجوع كفيل بأن يحطم القيود والأغلال ولكن صاحب الدعوة يلتزم أوامر ربه، وتعاليم رسوله، وتعليمات قيادته إذ يذيب شخصيته في شخصية الجماعة المسلمة، ويوقن أن تصرفه ما عاد تصرفا فردياً، وإنما يمس مصالح الدعوة وجوهر الدين وسياسة الجماعة.

كما أن الموقف لم يكن يحتمل القتال لهذه الجماعة المسلمة المضطهدة، ولا يحمل غيرها هذا الإسلام المنقذ للبشرية في ذلك الزمن. والجماعة المسلمة غير قادرة على الدفاع عن نفسها. ومن ثم فإن أية مغامرة غير محسوب حسابها كفيلة لتحسم الصراع في غير صالحها، فضلاً عن أنها يمكن أن تنتهي بإبادتها والأخطر من إبادتها وأد العقيدة والفكرة والرسالة التي تحملها.

تروي لنا كتب السيرة بعض الانفعالات من بعض أصحاب رسول الله ﷺ لشدة ما وقع بهم من اضطهاد وأذى وتعذيب، وهذه الانفعالات لا تتجاوز الشكوى للرسول ﷺ؛ يقول خباب بن الأرت: " أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد

والطبراني انظر هامش فقه السيرة للغزالي تخريج الألباني ص ١٠٧.

بردة في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة. فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو لنا! فقعد وهو محمرٌ وجهه فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المئشار (أي المنشار) على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله [٣٩٧].

وعلى هذا فقد كان عنوان هذه المرحلة **الدعوة والصبر والثبات** وتجنب الوقوع في شَرَك المشركين للاشتباك المسلح معهم؛ فلم يفرض الله تعالى القتال على المؤمنين في هذه المرحلة، بل نهوا عنه حتى جاءت فرضيته في السنة الثانية للهجرة ولهذه السياسة حكمها الكبيرة ومنها [٣٩٨]:

١- أن هذه المرحلة كانت فترة إعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة. ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئات تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لم يكن يصبر عليه العربي عادة؛ من الضيم على شخصه أو على من يلوذون به. وما ذلك إلا لَيخْلَص من شخصه، ويتجرد من ذاته [٣٩٩].وفي هذا الصبر على الأذى والاضطهاد ما يجعل أعصاب هذه المجموعة المؤمنة تنضبط انضباطاً سليماً، فلا تفعل ما كانت تفعله سابقاً قبل إسلامها من الثورة السريعة، والتصرف غير المحسوب مهما كانت النتائج.

٢- كما أن تلك المرحلة التي كانت تعيشها الدعوة في تلك الفترة، ليست في شكلها الاجتماعي مجتمعاً أو دولة تملك المؤسسات والوسائل المكافئة لمواجهة مجتمع الجاهلية، فلو أعلنت سلاحها وقتالها للمشركين لكان ذلك كفيلاً بأن يسارع في تصفيتها تصفية جسدية.

---

[٣٩٧] صحيح البخاري، بشرح فتح الباري ج٧ كتاب مناقب الانصار رقم٣٨٥٢ ص١٦٤.

[٣٩٨] سيد قطب ، في ظلال القرآن ج٥ ص ١٤٣-١٤٦.

[٣٩٩] انظر المرجع السابق.

٣- كما أن الدعوة في هذه الفترة المكية كذلك ليست حريصة على أن تنشأ حروب أهلية في مكة، بحيث لو اصطدم أفرادها مع الجاهلية لكان كفيلاً بأن تثور الإحن والحروب بين القبائل في ظل وسط قبلي. وهذا يفقد الدعوة بُعدها الجماهيري، وتصبح في نظر المجتمع نفسه وخارج نطاقه وفي المستقبل مسؤولة عن تلك الدماء؛ مما يخلف لها ذكريات سيئة في ذاكرة الناس والتاريخ.

٤- وربما كان ذلك الانضباط وعدم الوقوع في القتال أيضاً لأن الدعوة السليمة أشد أثرا وأنفذ تأثيراً في مثل تلك البيئة من إعلان العصيان المسلح في ظل مجتمع يعتبر الدفاع عن أتفه الأمور، ولأتفه الأسباب رجولة تحتاج إلى الحرب الطاحنة.

٥- وربما كان ذلك أيضاً اجتناباً لإنشاء معركة داخل كل بيت من بيوت مكة، حيث لم تكن فيها دولة هي المسؤولة عن ضبط الأمن، مما يستدعي أن تقوم الحروب داخل القبائل نفسها، وداخل الأسرة الواحدة. وفي ذلك كله خطورة كبيرة، حيث ستكون ويلات العداء في داخل القبيلة، والفرقة والتمزق بسبب الإسلام والدعوة الإسلامية. وهذا يتناقض مع هدف الدعوة الإسلامية، وبالتالي فإن الجاهلية تجد مبرراً واقعياً ودليلاً شاهداً على دعواها بأن محمداً يفرق بين الولد ووالده، وبين الشخص وعشيرته وقومه، ويمزق أوصال المجتمع، كما يمزق وحدتها الوطنية، ويثير القلاقل في بلد هادئ – مكة – هو ملتقى العرب في حجهم، وملتقاهم في تجارتهم ومصالحهم؛ مما يستدعي أن تكون مكة- البلد الحرام ومهبط الأفئدة- آمناً. كما أن ذلك الأمن أيضاً مطلوب للدعوة الإسلامية وجوّه يناسبها أكثر من جو القلاقل والفوضى.

٦- وثمة سبب يمكن أن يكون وجيهاً في تبني تلك السياسة التي لم تعلن القتال في مكة؛ ذلك أن الإسلام ليس حريصاً على قتل الناس، وإنما هو يحرص على دخولهم في الإسلام ما أمكن، ولا يتحرك للقتال إلا إذا كان النظام الذي يسود

الناس هو المعوق لدخول الدعوة في نفوس الجماهير فالقتال ليس مقصوداً في حد ذاته إذا كانت كلمة البيان تأخذ طريقها إلى قلوب الناس ولكن متى وقف النظام الكافر وقفة اعتداء على الإسلام وأهله، ووقف حاجزاً بسلاحه بين الناس وكلمة الإسلام، أصبح القتال واجباً، إذ لا دواء يعالج الأمر مثل هذا الدواء.

٧- وربما لم يشرع القتال في مكة وفي هذه المرحلة والبيئة بالذات؛ لما يعلمه الله سبحانه من أن الإسلام حريص على إبقاء الفرصة مفتوحة أمام هؤلاء العرب، ويؤجل المعركة معهم حتى يدخل أكبر عدد منهم في الإسلام، فهم وإن كانوا اليوم أعداءه فسيكونون بعد سنوات قليلة، أو أيام معدودة حملته وأصحابه وجنوده، والحاملين لدعوته إلى الناس جميعاً وقد كان.

٨- وربما كان الأمر كذلك لأن النخوة العربية في بيئة قبلية كان من عاداتها أن تثور للمظلوم الذي تحمل الأذى وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة؛ فابن الدغنة لم يترك أبا بكر – وهو رجل كريم- أن يهاجر، ورأى ذلك عاراً على العرب، وعرض عليه جواره وحمايته. وهذا عمر يرقُّ قلبه لرؤيته أسرة مهاجرة إلى الحبشة. وذلك المطعم بن عدي يُدخل محمداً ﷺ في جواره عند عودته ﷺ من الطائف. وذاك العاص بن وائل السهمي يحول بين المشركين وبين عمر حينما أسلم عمر وتحداهم. وآخر الشواهد على هذه الظاهرة ما كان من نقض صحيفة الحصار عن المسلمين في شعب أبي طالب.

٩- وربما كان ذلك أيضاً لقلة المسلمين في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية أجزاء الجزيرة، أو بلغت أخبارها متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد. ولو حصلت معركة مبكرة بين النبي ﷺ وجماعته وبين المشركين لكان موقف القبائل حيادياً، وهو موقف مقبول في مثل تلك الأحوال، إذ أنها سوف لا تفهم هذه المعركة إلا أنها مجرد معركة داخلية بين قريش وبين بعض أبنائها

فلا تقدرها قدرها، ولا تتخذ منها موقفاً. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل القلة المسلمة. ولو قتلت القلة المسلمة أضعاف عددها من المشركين، إلا أن النتيجة خطيرة، وهي بقاء الشرك، وانمحاء الجماعة المسلمة، وضياع فرصة إقامة نظام الإسلام في الأرض.

١٠-كما أنه يضاف إلى ذلك كله ، أنه لم تكن هناك مبررات ملحة، وضرورات قاهرة لتجاوز مرحلة التربية إلى مرحلة القتال ، إذا كان القتال يقصد منه دفع الأذى، لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة قائم في هذه الفترة ومحقق. وهذا الأمر الأساسي هو وجود الدعوة في شخص رسولها ﷺ رسولاً وقائداً، وهو محمي بسيوف بني هاشم فلا تملك يد أن تمتد إليه بسوء. وهو كذلك بيان الحق ونشر الكلمة والحركة بين الناس. وبالتالي حاولوا مصادرة فكره فلم يستطيعوا، وحاولوا احتواءه ومساومته فلم يستطيعوا، أما محاولة قتله فقد كانت في هذه الفترة مما يصعب تصوره. والقضية المهمة في الدعوة في هذه الفترة مأمونة رغم كل الاضطهادات وهي تبليغ الدعوة إلى الناس.

ولذلك لم تكن ثمة ضرورة قاهرة لاستعجال المعركة فيما لا يكون في صالح الدعوة. والمعركة قادمة، ولكنها مؤجلة فقط لينتفع المسلمون، ويستثمروا كل إمكانات البيئة، وليفيدوا من كل إيجابية في التركيبة الاجتماعية في ظل مرحلة السلم. وهم بهذا يكسبون شيئاً أساسياً في تأجيل هذه المعركة، وهو تعميق مفهوم الإيمان والعقيدة في نفوس المؤمنين، ولتتخلص هذه النفوس من حظوظها، وليصبح الولاء لله وحده حتى إذا ما أقبلت المرحلة القادمة بدءاً من الهجرة إلى المدينة وقيام الدولة وإعلان الجهاد المسلح كانت النفوس مستعدة تماماً لا يشوب فكرها غبش، ولا يخالطها شك، ولا تأخذها في الله لومة لائم.

تم الكتاب

والحمد لله رب العالمين

المراجع

١- البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت٢٥٦هـ، **صحيح البخاري بشرح فتح الباري،** لابن حجر العسقلاني، الطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ.

٢- البرهان فوري، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي ،ت٩٧٥،**كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، طبعة مؤسسة الرسالة.

٣- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، ت٢٧٩هـ ، **الجامع الصحيح،**ت إبراهيم عطوة، الطبعة الأولى، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٥.

٤- ابن حجر العسقلاني، الحافظ بن علي بن حجر، ت٨٥٢ هـ ،**فتح الباري،** الطبعة السلفية،القاهرة ١٣٨٠هـ

٥- الدرامي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام، ت٢٥٥هـ ، **سنن الدارمي،** نشر دار إحياء السنة النبوية ، بيروت.

٦- ابن الربيع الشيباني، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد العبدري الزبيدي ت٩٤٤هـ، **حدائق الأنوار، ومطالع الأسرار،** ت الشيخ عبد الله الأنصار ، طبعة قطر.

٧- الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني ت٦٠٦هـ، **التفسير الكبير(مفاتيح الغيب)**،الطبعة الأولى، المطبعة البهية المصرية، القاهرة ١٩٣٨م.

٨- أبو زهرة، الشيخ محمد، **خاتم النبيين،** طبعة دار الفكر العربي، القاهرة سنة ١٩٧٣م.

٩- ابن سعد، محمد بن سعد، **الطبقات الكبرى،**طبعة دار التحرير، القاهرة ١٩٦٨.

١٠- سليمان الندوي، **الرسالة المحمدية، الطبعة الثانية**، مكتبة دار الفتح، دمشق سنة١٣٨٣ هـ-١٩٦٣م.

١١- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي ت٥٨١هـ،**الروض الأنف، بهامش السيرة النبوية لابن هشام**، طبعة الحاج عبد السلام شقرون، القاهرة١٩٧٢م.

١٢- سيد قطب، **في ظلال القرآن الكريم**، الطبعة الرابعة، الدار العربية، بيروت.

١٣- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ،**الجامع الصغير في أحاديث البشير**، الطبعة الرابعة، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

١٤- صفي الدين المباركفوري، **الرحيق المختوم**، الطبعة الأولى، رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

١٥- د.علي سامي النشار، **شهداء الإسلام**، دار الكتب العربي ، القاهرة.

١٦- د.عماد الدين خليل، **دراسة في السيرة النبوية**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

١٧- القاضي عياض، أبو الفضل القاضي عياض اليحصبي ت٥٤٢هـ ، **الشفاء مطبوع مع شرح الشفا في شمائل المصطفى**، لنور الدين القاري، ت حسنين محمد مخلوف، مطبعة المدني، القاهرة.

١٨- الطبري، أبو جعفر بن جرير ت ٣١٠هـ، **تاريخ الملوك والرسل(تاريخ الطبري)**، محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة سنة١٩٦٧م.

١٩- الفيروزآبادي، مجد محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، الطبعة الثانية، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.

٢٠- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ت٥٧١هـ،**زاد المعاد في هدى خير العباد**، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

٢١- الكاندهلوى، محمد يوسف،**حياة الصحابة**، الطبعة دار المعرفة، بيروت.

٢٢- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ت٧٧٤هـ ، **البداية**

والنهاية،(طبعة مصورة عن الطبعة الأولى)، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٦م.
٢٣- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم،** طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
٢٤- مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ت٢٦١هـ ، **صحيح مسلم بشرح النووي،** المطبعة المصرية، القاهرة.
٢٥- الشيخ محمد الغزالي، **فقة السيرة،** الطبعة الرابعة، دار الكتب الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٦٤م.
٢٦- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، **إمتاع الأسماع**، ج١، الطبعة الثانية محمد شاكر، نشر الشؤون الدينية بدولة قطر.
٢٧- ابن منظور، **لسان العرب،** طبعة مصورة عن طبعة بولاق المؤسسة المصرية العامة، القاهرة.
٢٨- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري ت٢١٣هـ،**السيرة النبوية (وبهامشها الروض الأنف للسهلي)،** طبعة الحاج عبد السلام شقرون ، القاهرة، سنة ١٩٧٢م.
٢٩- العلي، إبراهيم محمد العلي، **صحيح السيرة النبوية،** الطبعة الأولى، دار النفائس، الأردن ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.